دخول الإسلام مصر

جميل عارف

تعقيب

الدكتور على السمان

مراجعة تاريخية

الدكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ التاريخ بجامعة الزقازيق

مراجعة إسلامية

الشيخ فتح الله حسن جزر

مدير عام بمجمع البحوث الإسلامية "سابقا"

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(المائدة: ٨٢ ـ ٨٥)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

الإهداء

إلى *حفيدتى زينب.. وكل الأجيال الصاعدة من أبناء شعب مصر الأصيل بتاريخه العريق أهدى صفحات هذا الكتاب حتى تعرف كيف دخل الإسلام مصر منذ حوالى ١٤٠٠ سنة هجرية؟.. وكيف عاشت وحدة شعب مصر من المسلمين والأقباط قوية متينة على مدى سنوات تاريخ مصر الإسلامية نسيجًا واحدًا لا فرق فيه بين مسلم ومسيحى.. وكانت هذه الوحدة أقوى دائمًا من المؤامرات والدسائس.. ومن دعايات العملاء والمتشنجين..!*



هذا الكتاب

للمؤلف: الكاتب الصحفى جميل عارف


جميل عارف

تلقيت سؤالاً بواسطة الفاكس على عنوان نقابة الصحفيين المصرية من صحفى يابانى اسمه تاكاياما وهو صديق كان يعمل فى الستينيات مراسلاً فى القاهرة لواحدة من أكبر الصحف اليابانية، وكانت لهذا الصحفى اليابانى اهتمامات بتاريخ مصر الإسلامى على مدى السنوات الثلاث التى عاشها فى مصر.. وأذكر أننى سألته مرة عن سر اهتمامه بهذا التاريخ، وكان رده أنه يزمع إعداد رسالة للحصول على شهادة الدكتوراة من إحدى جامعات اليابان عن الفتح الإسلامى لمصر.. وعندما عاد هذا الصحفى اليابانى إلى بلاده انقطعت أخباره عنى تمامًا، ولم أعرف ما إذا كان قد انتهى من دراسته وحصل على شهادة الدكتوراة، أو أنه مازال حيًا أو أنه قد مات.. حتى تلقيت منه سؤاله بواسطة الفاكس وكانت ترجمته تقول بالحرف الواحد:

– لماذا لم تحتفل القاهرة بمرور ١٤ قرنًا إسلاميًا (يقصد هجريًا) على فتح عمرو بن العاص لها ودخول الإسلام إلى مصر؟

وأثارنى هذا السؤال، ولم أعرف بماذا أجيب عليه حتى رجعت إلى عدد من الكتب القديمة فى دار الكتب المصرية وغيرها، وكان عجبى عندما وقفت أمام بعض الحقائق التاريخية مذهولاً مما دفعنى لإعادة قراءة الفاكس الذى تلقيته من الصديق القديم الصحفى اليابانى عدة مرات..

إن تاريخ هذا الفاكس يرجع إلى أوائل شهر أبريل سنة ٢٠٠٠ ميلادية ،وهو تاريخ يوافق أوئل سنة ١٤٢١ هجرية ، وقد خرجت من دراستى السريعة بحقيقة : وهى أن هذا الصحفى اليابانى كان على حق ، وأننا فعلاً لم نحتفل بالمناسبة التاريخية المهمة وهى دخول الإسلام إلى بلادنا مع فتح عمرو بن العاص لمصر .

والشيء المؤكد أن عمرو بن العاص جاء إلى مصر فى السنة الثامنة عشرة للهجرة، وأن حملته استغرقت حوالى ثلاث سنوات، وقد تم فتح مصر بنصر من الله للمسلمين فى شهر المحرم سنة ٢١ هجرية، بعد أن تم فتح الإسكندرية وانسحاب الرومان منها إلى القسطنطينية، ويتواكب التاريخ الذى قامت فيه قوات المسلمين بفتح مدينة الإسكندرية والاستيلاء عليها بدون قتال مع أوائل سنة ٢١ هجرية . . أى منذ ١٤٠٠ سنة هجرية بالضبط .

وعجبت كيف تمر هذه المناسبة بدون احتفال ليس على مستوى مصر وحدها، ولكن على المستوى العربى والإسلامى أيضاً . .

واشتد عجبى أن يستطيع هذا الصحفى اليابانى أن يتذكر هذه الحقيقة التاريخية قبل أن ننتبه إليها فى مصر!

وأذكر أننى ذهبت إلى مسئول كبير فى جامعة الأزهر لأسأله عن رأيه فى هذا الموضوع . وكان حديثًا مثيراً بينى وبين هذا المسئول الكبير الذى التفت إلى، ثم قال لى فجأة بالحرف الواحد :

- لقد اختلف المؤرخون العرب القدامى فى تحديد التواريخ الدقيقة المتعلقة بتطورات عملية فتح مصر بالضبط ولكننى أظن أن صاحبك اليابانى على حق لأن تاريخ وصول قوات عمرو بن العاص إلى العريش ثابت ، ولم يختلف عليه أحد ، وهو يوم الأضحى فى سنة ١٨ هجرية ، كما أن تاريخ فتح الإسكندرية بعد انسحاب قوات الرومان منها قد أكده الكثير من الوثائق وشهادات المؤرخين العرب القدامى وغيرهم ، وهو اليوم السادس والعشرون من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية .

ولما قلت له : مادمنا نعلم ذلك، فلماذا لم نحتفل بهذه المناسبة التاريخية التى دخل فيها الإسلام مصر مع الفتح العربى؟!

وأظنها كانت نكتة عندما قال لى الرجل بصوت خفيض، وكان يبدو كمن لا يريد أن يسمعه أحد غيرى قائلاً :

– أظن أن بعض القوى لن ترحب بالتوسع فى الاحتفال بهذه المناسبة، ولذلك سوف يكون الاحتفال بالمناسبة التاريخية فى أضيق الحدود. !

قلت له: إنها فضيحة لأن الدستور نص صراحة على أن دين الدولة هو الإسلام، وكانت مناسبة قومية للترويج السياحى لمصر على مستوى العالمين الإسلامى والعربى. !

ثم قلت للرجل: المهم عندى.. ماذا أقول للصحفى اليابانى رداً على سؤاله؟..

قال: يمكنك أن تقول له إن جامعة الأزهر تدرس إمكانية تنظيم ندوة علمية حول هذه المناسبة التاريخية.

قلت له: أظنك تقول ذلك مازحًا، وليس أمامنا إلا أن نعترف بأننا ندرس كعادتنا متأخرين وكما يقول المثل العامى.. بعد الهنا بسنة.. أو أننا فى مصر مازلنا كالعادة نائمين فى العسل!

* * *

وأثارتنى حقيقة أخرى تقول إن شهادات تاريخية كثيرة تقول.. إن عمرو بن العاص الذى أحب مصر، وكان عاشقًا لها توفى فيها بعد خمس سنوات من إمارته الثانية لمصر.. أى بعد تعيينه واليا على مصر للمرة الثانية. فى أيام معاوية بن أبى سفيان، وأنه دفن فى منطقة تقع تحت سفح جبل المقطم واسمها منطقة الفج..

ووصف بعض المؤرخين العرب هذه المنطقة التى دفن فيها عمرو بن العاص بأنها تطل على الطريق المؤدية إلى الحجاز وبأنها تقع بجوار محجر قديم كانت تقطع منه الحجارة التى استخدمت فى بناء بعض البيوت والمنازل فى مدينة الفسطاط.

كما استخدمت نفس هذه الحجارة فى بناء المسجد الجامع الذى أصبح يحمل اسم عمرو بن العاص الآن.

واختلفت الآراء حول تحديد مكان قبر عمرو بن العاص، وكان فى رأى بعض المؤرخين العرب القدامى أنه يقع فى مكان قريب من منطقة القرافة، عند عين الصيرة، وقال آخرون إنه كان عند سفح جبل المقطم فى الناحية المعروفة الآن باسم القطامية.

ويقول واحد من هؤلاء المؤرخين العرب، وهو عبد الرحمن بن عبد الحكم، وهو مولود فى مدينة الفسطاط فى حوالى عام ١٧٨ هجرية.. أى بعد وفاة عمرو بن

العاص بحوالى ٩٠ سنة أن عمرًا اختار مكان مقبرته بنفسه، وقد دفن إلى جواره فى نفس المنطقة عدد من الصحابة وشهداء المسلمين الذين شاركوا فى فتح مصر. ولا يسعنى إلا أن أقول للمسئولين عن عمليات الكشف والتنقيب عن الآثار الإسلامية القديمة، وإلى وزيرى الثقافة والسياحة: «أننا نملأ الدنيا صياحًا فى كل يوم عن عمليات – فى تصورى – أنها وهمية حول الكشف عن مقبرة الإسكندر الأكبر الذى جاء إلى مصر غازيًا ومستعمرًا، وأننا نقول مرة إنه مدفون فى الإسكندرية، ومرة أخرى نقول إنه فى سيوة.. فلماذا لا نبذل الجهد فى محاولة الكشف عن مقبرة عمرو بن العاص المحدد مكانها فعلاً عند سفح جبل المقطم.. هذا القائد الذى فتح مصر، وجاء إليها بالإسلام..!

وأؤكد لوزيرى الثقافة والسياحة أن الكشف عن هذه المقبرة إذا لم تكن قد خربت كما يقول البعض أيام الفاطميين، لا يمثل أى حساسية بالنسبة لإخواننا الأقباط المصريين لأن تاريخ الكنيسة القبطية المصرية يشيد بالكثير من الوقائع عن مساندة إخواننا الأقباط المصريين لقوات عمرو بن العاص عندما قامت بفتح مصر لأنهم أولاً.. أصحاب عهد وذمة.. وثانيًا.. نكاية بالرومان الذين يجمعهم مع النصارى المصريين دين واحد، هو المسيحية، ولم يمنع ذلك الرومان من اضطهاد أقباط مصر والتنكيل بهم مما اضطر الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين فى تلك الأيام للاختفاء لمدة ١٣ سنة فى أحد كهوف الصحراء، ومعه الكثيرون من الأساقفة ورجال الكنيسة القبطية. وكان عمرو بن العاص هو القائد الذى أعطى الأنبا بنيامين عهد الأمان بعد فتح الإسكندرية ليعود إلى كنيسته لمباشرة شئون رعيته من النصارى والأقباط المصريين وللعناية بشئونهم الدينية.

وعاد الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين إلى الإسكندرية ليؤمنه عمرو بن العاص على نفسه، وعلى دين كل الأقباط المصريين الذين كانوا يعيشون على أرض مصر..

وعاشت مصر من يومها، مسلمين وأقباطاً، أمة من نسيج واحد، لا فرق فيها بين مسلم وقبطى..

ولا يسعنى إلا أن أطرحها دعوة مفتوحة لكل علماء الآثار المتخصصين فى الكشف عن آثارنا الإسلامية القديمة للبحث والتنقيب عن قبر عمرو بن العاص،

وأظن أن العثور على هذا القبر يمكن أن يخلّد اسم مكتشفه فى مكان رفيع فى سجلات التاريخ..

وأتصور أن وزيرى الثقافة والسياحة وشيخ الجامع الأزهر أيضًا، لن يكونوا إلا جادين، وأنهم لن يبخلوا ويتأخروا لحظة واحدة فى دعم عمليات التنقيب عن قبر الرجل الذى فتح مصر، وجاء إليها بالإسلام..

* * *

وشيء آخر.. فوجئت به بعد المناقشة التى دارت بينى وبين المسئول الكبير فى جامعة الأزهر بأن الجامعة قد نظمت فعلاً ندوة بالمركز الاقتصادى الإسلامى بالجامعة تحت عنوان: الندوة العلمية بمناسبة مرور ١٤ قرنًا على دخول الإسلام مصر.

وكانت الندوة برئاسة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس الجامعة، وقد شارك فيها فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، والدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف والدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية، وقد شهدها عدد من رجال الدين وأساتذة كليات جامعة الأزهر.

وصفقت من كل قلبى لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، وهو يقول فى كلمته:

- إن الفتح الإسلامى لمصر كان نوراً بعد طول ظلام وعدلاً بعد طول ظلم وحضارة بعد أن كان العالم قد عمه الجهل.

وأنقل عن جريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٧ يوليو سنة ٢٠٠٠، فقرة جاءت على لسان فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى كلمته التى ألقاها فى حفل افتتاح هذه الندوة العلمية قال فيها بالحرف الواحد:

- إن آيات القرآن الكريم تأمرنا بالتذكر والتفكير ومراجعة تاريخنا المجيد، فالأمة التى تنسى تاريخها تنسى نفسها وتصبح فى مهب الريح لأن العدل يحيى الأمم والظلم يميتها.

ولا شك أن فضيلة الإمام الأكبر قد سجل فى كلمته رداً واضحًا على الذين تصوروا أن الاحتفال بفتح مصر ودخول الإسلام فيها لن يلقى حماسة بعض الناس..!

وأقف قليلاً أيضًا أمام كلمة الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف.

لقد كان يتكلم بصفته مسئولاً.. أى بصفته الرسمية، وكانت كلماته واضحة، وهو يقول بالحرف الواحد:

- إن صلة مصر بالإسلام صلة وثيقة منذ فجر التاريخ وقد حرر العرب الذين أتوا مع الفتح الإسلامى المصريين من الذل والهوان اللذين كانوا يلاقونهما على أيدى الطغاة الرومان.!

وكانت هناك كلمات أخرى كثيرة، وقد أثار الانتباه للأسف الشديد محاولة بعض المتحدثين تحويل الندوة العلمية عن الفتح الإسلامى لمصر الذى تم فى عام ٢١ هجرية... منذ حوالى ١٤٠٠ سنة هجرية إلى عملية إشادة وتكريم لجامعة الأزهر بالذات..!

وكانت دهشة الكثيرين لأن عملية الفتح الإسلامى لمصر استغرقت ثلاث سنوات، بداية من سنة ١٨ هجرية عندما وصلت طلائع قوات عمرو بن العاص إلى العريش حتى أوائل عام ٢٢ هجرية عندما انسحبت قوات الرومان من مدينة الإسكندرية لتقوم قوات المسلمين بفتحها والاستيلاء عليها بلا قتال.

أما غزوة الفاطميين لمصر التى جاءت من شمال أفريقيا فكانت فى سنة ٣٥٨ هجرية.. أى بعد أن تم فتح مصر ودخول الإسلام إليها بأكثر من ٣٣٥ سنة.

وقد أتم جوهر الصقلى بناء الجامع الأزهر فى سنة ٣٦٠ هجرية.

وهكذا حاول بعضهم أن يخلط بين وقائع التاريخ فى مناسبة الاحتفال بذكرى مرور ١٤٠٠ سنة على الفتح الإسلامى لمصر.

وأقول... إن جامعة الأزهر كانت لها المبادرة بتنظيم هذه الندوة العلمية، وللأسف قد تم الإعداد لها على عجل وفيما يشبه السرية بعد أن ترددت فى الكثير من أوساطنا الإسلامية حكاية الصحفى اليابانى تاكاياما الذى أرسل إلى القاهرة يستفسر عن السبب فى عدم احتفال مصر بذكرى مرور ١٤٠٠ سنة هجرية على الفتح الإسلامى لها..!

وكان تصورنا أن هذه الندوة العلمية، وإن جاءت متأخرة أكثر من شهرين لا تكفى، وكان السؤال.. لماذا لم تتحرك هيئات كثيرة أخرى لتنظيم الاحتفالات، ولا أقول المهرجانات الإسلامية فى هذه المناسبة التاريخية؟..

وقال الكثيرون.. أين المجلس الأعلى للشئون الإسلامية؟.. ولماذا لم تكن له مبادرة خالصة لوجه الله فى هذه المناسبة التاريخية المهمة؟..

وكان فى تصور الكثيرين أن تجرى احتفالات دينية فى مسجد عمرو بن العاص الذى أرادت المصادفة أن تجرى عملية تجديده فى وقت حلول المناسبة بمرور ١٤٠٠ سنة هجرية على الفتح الإسلامى لمصر..

وكان الأحرى حتى نثبت أننا فعلاً لسنا «نائمين فى العسل» أن يكون تخطيطنا مسبقًا لكى تتم عملية الانتهاء من التجديد فى موعد مناسب لأجواء الاحتفالات فيه، بدلاً من أن يحاول بعضهم استغلال المناسبة التاريخية فى الدعاية لنفسه والجامعة الأزهر..

وكان أيضًا السؤال.. أين الإعلام المصرى من إذاعة وتليفزيون وصحافة وثقافة.. ولماذا لم تشارك أجهزته فى إقامة الاحتفالات والمهرجانات فى مثل هذه المناسبة التاريخية التى كان موعدها بالضبط يوم ٢٦ أبريل سنة ٢٠٠٠..؟

وصحيح أن بعض أجهزة الإعلام قد تحركت متأخرة فأعدت بسرعة برنامجًا يتيمًا عن شهداء بلدة البهنسا التى سقط فيها عدد من الصحابة وفرسان المسلمين، ونقل التليفزيون احتفالاً رسميًا أقيم فى هذه المناسبة التاريخية وإن كان قد جرى تنظيمه بسرعة، وبلا إعداد مسبق... ولا أريد أن أقول.. عيب أن يذكرنا صحفى يابانى يعيش فى اليابان بهذه المناسبة التاريخية، ولا أحد فى مصر كان يذكرها.

ولكن للأسف الشديد.. أردنا أن نؤكد أننا مازلنا ننام فى العسل..!

* * *

وأعود مرة أخرى إلى السؤال... لماذا كان احتفال مصر بمرور ١٤ قرنًا هجريًا على دخول الإسلام إليها هزيلاً بحيث لم يشعر به أحد؟..

وهنا تسمع من يقول لك.. صحيح أن بعض المؤرخين العرب القدامى أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى وابن قتيبة والطبرى وغيرهم قد اختلفوا حول تحديد التاريخ الدقيق لقيام عمرو بن العاص بفتح مصر حاملا لواء الإسلام فى أيام أمير المؤمنين الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، إلا أنهم اتفقوا على أن وصول عمرو بن العاص على رأس قوات المسلمين إلى مدينة العريش كان فى يوم الاحتفال بعيد الأضحى.. وبالضبط فى اليوم العاشر من ذى الحجة سنة ١٨ هجرية الذى يوافق ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ ميلادية، وأن عملية فتح مصر استغرقت ثلاث سنوات، وقد اكتملت فى شهر المحرم سنة ٢١ هجرية بفتح الإسكندرية.. أى منذ ١٤ قرنًا هجريًا..

واتفقوا أيضًا على أن سقوط حصن بابليون . . أو «باب أليون» كما كان ابن قتيبة يطلق عليه، كان بعد انسحاب قوات الرومان التى كانت محاصرة بداخله، وكان ذلك فى شهر ربيع الثانى من سنة ٢٠ هجرية، وبالضبط فى الفترة ما بين ٢٠ مارس و١٣ أبريل سنة ٦٤١ ميلادية.

إنها وقائع وتواريخ ثابتة، ولا شك أنها كانت مناسبة ما كان يجب أن تمر دون الاحتفال بها فى مصر، وعلى مستوى العالمين العربى والإسلامى . .

وصحيح أن كتابًا أو كتابين قد صدرا حول هذه المناسبة التاريخية المهمة، وأن جامعة الأزهر قامت بتنظيم ندوة علمية حول هذه المناسبة . .

وصحيح أيضًا أن بعض الصحف والمجلات قد قامت بنشر عدة تحقيقات فى محاولة منها للمشاركة فى إحياء ذكرى دخول الإسلام مصر، ولكن هذا لا يكفى . !

ولا أحد يعرف كيف فات علينا فى مصر الاحتفال بهذه المناسبة التاريخية . .

وأنقل عن المؤرخين العرب القدامى أن عمرو بن العاص كان يميل إلى اتخاذ الإسكندرية بعد أن تم فتحها، عاصمة وقاعدة للحكم فى مصر، ولكن الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اعترض، وكتب إلى ولاته فى مصر وبلاد فارس وفى العراق أن يقوموا بتأسيس عواصم الحكم الإسلامى فى البلاد التى تم فتحها بحيث لا يفصل بين مواقعها وبين المدينة المنورة كما قال . . ماء . . أى حواجز أو موانع مائية حتى إذا ما سنحت له فرصة زيارة هذه العواصم لم تعرقل هذه الحواجز مسيرته إلى هذه العواصم . .

وقام عمرو بن العاص ببناء مدينة الفسطاط فى مصر، واتخذ منها قاعدة لحكم مصر، وقام سعد بن أبى وقاص ببناء مدينة الكوفة، وجعل منها عاصمة للحكم الإسلامى فى بلاد ما بين النهرين بدلاً من البصرة . .

ولم تكن مصادفة أن تنظم العراق بالرغم من محنتها فى شهر سبتمبر أى أيلول سنة ٢٠٠٠ احتفالات ومهرجانات ضخمة بمناسبة مرور ١٤ قرنًا هجريًا . . أى ١٤٠٠ سنة على إنشاء مدينة الكوفة، وقد شارك فى إعداد هذه المهرجانات والاحتفالات العراقية علماء وباحثون عراقيون وعرب، بينما مرت مناسبة إنشاء مدينة الفسطاط فى مصر دون أن يذكرها أحد . .

وأنقل عن الصحف العراقية تصريحات للدكتور خليل إبراهيم لطيف رئيس جامعة الكوفة قال فيها إن جامعته كلفت بتولى مسئولية تنظيم هذه الاحتفالات والمهرجانات فى مدينة الكوفة، وقال إنه تقرر تنظيم ندوة خاصة فى هذه المناسبة بالإضافة إلى إقامة مهرجان للشعر وإقامة معارض للصور واللوحات الفنية عن الحياة فى مدينة الكوفة منذ إنشائها..

وأعلن على صراح عبد الله رئيس بلدية المدينة فى هذه المناسبة أنه تقرر أن يكون يوم الاحتفال بذكرى تأسيس المدينة يومًا وطنيًا يشارك فيه الشعب العراقى بتنظيف المدينة..

وقال محافظ النجف، وهى المحافظة التى تتبعها مدينة الكوفة أن مشروعًا عملاقًا لإقامة مدينة سياحية سوف يجرى تنفيذه على مساحة ١٢٠ دونمًا فى مدينة الكوفة فى هذه المناسبة التاريخية على أن تضم هذه المدينة السياحية مساكن للعرسان الجدد وفندقين وكازينو، ومدينة للملاهى ومحطة للقطارات وحديقة للحيوان..

وأعلن أنه سيبدأ فى تنفيذ مشروع إنشاء هذه المدينة مع الاحتفالات بذكرى تأسيس الكوفة.!

وهكذا اهتم العراق - بالرغم من الظروف المأساوية التى يعيشها شعبه - بالاحتفال بذكرى مرور ١٤٠٠ سنة هجرية على إنشاء مدينة الكوفة.. أما نحن فى مصر فلم نهتم كثيراً بالمناسبة التاريخية الشبيهة، وهى مناسبة دخول الإسلام إلى بلادنا، وعلى بناء مدينة الفسطاط.. وأيضًا الاحتفال بذكرى إنشاء مدينة الجيزة على الشاطئ المقابل لمدينة الفسطاط على النيل. ويواكب تاريخ بنائها نفس الوقت التى تم فيه إنشاء مدينة الفسطاط..

ولا أريد أن أقول إن احتفالنا للأسف الشديد بهذه المناسبة التاريخية المهمة كان هزيلاً للغاية.!

جميل عارف



تقديم

لم يكتبه الدكتور ميلاد حنا.. لماذا؟..



الدكتور ميلاد حنا ووسام من ملك السويد علي أعمدته السبعة!

عندما اقترحت على الصديق الدكتور ميلاد حنا أن يقوم بتقديم الكتاب رحب فى بادئ الأمر، وكانت حماسته شديدة للغاية، ولكن كان له شرط وحيد هو أن يجد فرصة لقراءة الكتاب بإمعان وعناية..

قلت له: هذا حقك.. وبادرت بإعداد نسخة من الكتاب بعد أن تم جمع فصوله، وقمت بتسليمها إليه بنفسى.

وكان فى تصورى أن يقوم الدكتور ميلاد حنا، وهو المفكر والفيلسوف وصاحب الرأى الصريح والحر بكتابة تقديم الكتاب خلال عشرة أيام أو أسبوعين على الأكثر، وكان عليّ أن انتظر، وأن يقوم الناشر بوقف كل عمليات إعداد الكتاب للطبع حتى يجد الدكتور ميلاد حنا الفرصة لكتابة تقديم الكتاب..

ولكن شاء سوء الحظ أن تزدحم ارتباطات الأديب والكاتب الصديق بالدرجة التى جعلته يسافر فى شهر واحد إلى السودان ثم عاد إلى القاهرة بعد أن أمضى فى الخرطوم عدة أيام. ليتوجه إلى الإسكندرية للمشاركة فى أحد المؤتمرات..

وانتهى الكاتب الصديق من مؤتمر الإسكندرية ليطير إلى كوبا للمشاركة فى مؤتمر آخر..

وأظننى.. كنت أعرف.. ماذا يمكن أن يقول الدكتور ميلاد حنا فى تقديمه للكتاب بعد أن يقوم بقراءته لأن الكثير مما جاء

فيه من وقائع تاريخية وآراء وروايات نقلاً عن المؤرخين القدامى من العرب والأجانب تتفق مع أفكار الدكتور ميلاد حنا وآرائه المنشورة والتى نقلها عنه بعض المؤرخين والكتاب كما قال لى بنفسه.

إن رأيه الصريح والواضح فى موقف عمرو بن العاص من الأقباط المصريين الذين كانوا يعيشون فى صراع مرير مع أساقفة الكنيسة البيزنطية معروف..

كما أن رأيه فى كل ما كتبه المؤرخون العرب والأجانب عن مساندة هؤلاء الأقباط المصريين لقوات عمرو بن العاص فى عملية فتح مصر معروف أيضًا..

وأذكر فى هذه المناسبة أن الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين اضطر للاختفاء فى أحد كهوف الصحراء الغربية لمدة ١٣ سنة كاملة منها ١٠ سنوات فى أيام الإمبراطور هرقل، وثلاث سنوات بعد وفاة هذا الإمبراطور..

وكان عمرو بن العاص هو الذى أعطاه عهد الأمان، ودعاه للعودة إلى كنيسته فى الإسكندرية لمباشرة مهمته ورعاية شئون رعيته من الأقباط المصريين..

وكان رأيى.. أن الدكتور ميلاد حنا، وله أحاديث صحفية وتعليقات كثيرة حول هذا الموضوع لن يجد صعوبة فى تقديم الكتاب.

■ ■ ■

وأنقل من حديث الدكتور ميلاد حنا معى عندما طلبت إليه تقديم الكتاب أنه قال لى بالحرف الواحد:

- لا تعنينى الدراسات التاريخية لأننى لست متخصصًا فى التاريخ، وكما تعرف لقد نذرت حياتى لمستقبل العلاقات الجيدة والممتازة والوطنية بين المسلمين والأقباط فى وقت زادت فيه الصراعات فى العالم بشأن الخلافات العرقية والدينية والمذهبية. وكل ما يهمنى أن تبقى مصر شمعة مضيئة فى وسط الظلام مع ضمان أسلوب المعايشة بين أبنائها بالود والحب والصداقة والمودة، وليس بالقانون ونصوصه..

ثم استطرد يقول لى:

- أظن أن هذا سوف يكون مضمون الكلمة التى أرجو أن أجد متسعا من وقتى لكتابتها كمقدمة للكتاب.

وأنقل من كتاب الأعمدة السبعة للشخصية المصرية للدكتور ميلاد حنا قوله:

- يفضل بعض المؤرخين أن تنتهى الحقبة القبطية مع دخول العرب مصر عام ٦٤١م، وفى ذلك إجحاف علمى وثقافى ووجدانى، فقد استمرت مصر مسيحية عدة قرون بعد دخول العرب لمصر، وبالتالى استمرت اللغة القبطية هى اللغة الشعبية فى مصر طوال القرنين السابع والثامن ثم كانت مشاركة فى الحياة اليومية مع اللغة العربية طوال القرنين التاسع والعاشر إلى دخول الفاطمين لمصر عام ٩٦٩م.

وكان التحول السريع إلى الإسلام لتسود اللغة العربية مع عمل الفاطميين على إنشاء دولة خلافتهم الشيعية فى مصر فى مواجهة خلافة العباسيين فى بغداد.. ومع هذا التحول أخذت اللغة القبطية تتقهقر إلى الأبد فى القرن الثانى عشر على يد البطريرك الرائد غبريال بن زيك..

وأنقل عن الدكتور ميلاد حنا أيضاً قوله فى كتابه الأعمدة السبعة:

- ينتمى أقباط مصر إلى الأرض والتراب المصرى انتماء الأهرام والنيل، ولا يمكن لهم بالطبيعة والتراث والتاريخ إلا أن يكونوا مصريين ووطنيين، ولعل فى كلمة قبط أو جبط وهى جزء من كلمة «إيجيبتوس» أى الأرض السوداء والتى اختصرت فى اللغة اللاتينية إلى كلمة «إيجيبت» EGYPT تعبيراً عن مصر وهو ما يؤكد الانتماء الأصيل للأقباط إلى هذه الرقعة من الأرض.

ويحمل الأقباط كجزء أصيل من بلادنا كل الخصائص الحضارية للشعب المصرى ككل، ولذلك فهم يتسمون بالطيبة والبساطة والبعد عن العنف وتحمل الصعاب بصبر، وفى ذلك فإن التكوين النفسى للمصريين - مسلمين وأقباطاً - هو تراث الحضارات الزراعية المستقرة فى الوديان المنبسطة منذ آلاف السنين حيث الأمان والولاء للحكومة المركزية التى تملك مفاتيح الحياة عن طريق نهر النيل العظيم، الشريان الذى يوصل الأمن إلى كل نجع فى الوادى منذ قرون..

وينتشر الأقباط فى مصر انتشار الماء والهواء فهم موجودون جنباً إلى جنب مع أشقائهم المسلمين فى كل مكان وموقع فى المدينة، كما فى أعماق الريف، ومنهم المثقف إلى أعلى الدرجات. ومنهم المهنى ورجل الأعمال وموظفو الدولة فى كافة درجاتها وباختصار فهم نسيج كامل من أهل مصر فى كافة صورها..!

هذه هي بعض آراء الدكتور ميلاد حنا ولا أظن أنه كان من الممكن أن يغفل الإشارة إليها في حالة كتابته مقدمة الكتاب.. وصحيح أن بعض المؤرخين والمتشككين والمتشنجين، والذين يتصيدون في المياه العكرة، يمكن أن لا تعجبهم أن يقول الرجل كلمة حق تدعيمًا لوحدة شعب مصر مسلمين وأقباطًا، ولكنني أظن، وأنا أعرف شجاعة الدكتور ميلاد حنا أن هؤلاء المؤرخين ما كانوا يهمونه كثيراً طالما بقيت وحدة شعب مصر من مسلمين وأقباط قوية ومتينة..

إنه رجل وطني وأمين وشريف..

■ ■ ■

وفي تصوري.. أن ضيق وقته قد جعله يتردد كثيراً، وهو يحاول أن يعتذر..

وأنا نفسي أدركت الموقف بسرعة، ويحتمل أن أكون قد تضايقت لفترة، ولكنني لمعرفتي بالدكتور ميلاد حنا، وهو الرجل والمفكر وصاحب الرأي الحر والصريح، ما كان يتردد في كتابة تقديم الكتاب إلا لأسباب قهرية..

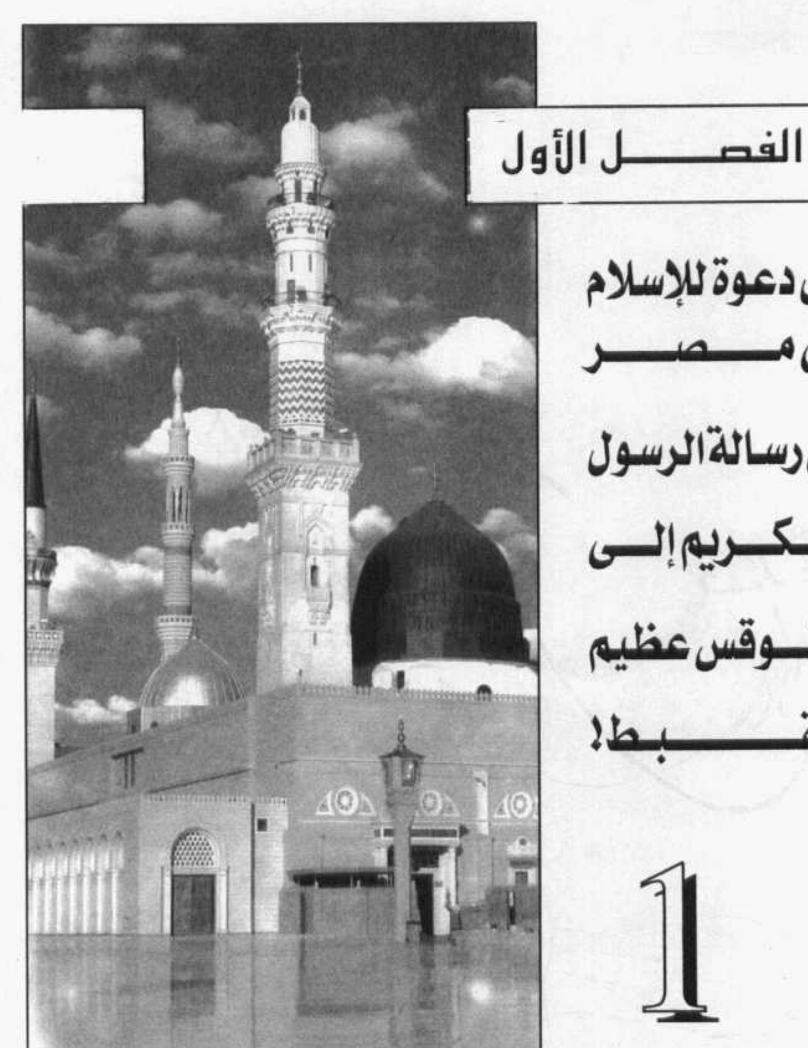
وأريد أن أقول إنه اعتذر، ولم يعتذر لأن شجاعته التي عرفناها فيه وخاصة بالنسبة لقضايا الرأي والوحدة الوطنية ما كانت لتمنعه في أن يقول رأيه في الكتاب، وفي أن يقوم بتقديمه إلى قرائه من الأقباط والمسلمين..

ولا يسعني إلا أن أعتذر نيابة عن الرجل الذي أصبحت ارتباطاته تغطي وقته للدرجة التي جعلت السيدة الفاضلة عقيلته، وهي الزميلة العزيزة الكاتبة الصحفية إيفلين رياض التي عملنا سويا عندما كنت مديراً لتحرير مجلة آخر ساعة لمدة ١٩ سنة كاملة في الستينيات والسبعينيات تقول لي قبل وفاتها.. إنها لم تعد تراه لأنه أصبح على سفر دائم..

وهكذا كان قدر كتابي أنا أيضًا، وليس أمامي إلا أن أصبر.. أنا أيضًا. عسى أن يجد لديه من الوقت لكي يكتب تقديم الكتاب للطبعة الثانية بإذن الله..

ولا يسعني إلا أن أقول للصديق الدكتور ميلاد حنا شكراً.. وألف شكر سلفًا!.

المؤلف



الفصـــــل الأول

أول دعوة للإسلام فى مصـــر فى رسالة الرسول الكـريم إلــى المقــوقس عظيم القـــبط!

1

- ما هي حكاية ماريا القبطية الجارية التى أهداها المقوقس إلى الرسول الكريم ﷺ وقد تزوجها الرسول بعد أن أعتقها؟
- وكيف اهتز المقوقس بعنف بعد أن قرأ رسالة الرسول الكريم، وقال: كنا نعرف أن نبيًا سوف يظهر؟
- وماذا يعنى اسم دلدل الذى أطلقه الرسول الكريم على البغلة التى بعث بها المقوقس إليه كهدية من مصر؟



هكذا تصور الفنان البرجينى نقل الرسائل عبر الصحراء وبنفس الأسلوب تم إرسال رسالة الرسول الكريم إلي المقوقس حاكم مصر وكبير القبط في الإسكندرية.

تسأل عن حال الدنيا عندما قام عمرو بن العاص بفتح مصر.

والجواب كما تقول الوقائع التاريخية الثابتة عن تلك الأيام:

●● فى عام ٦١٠ ميلادية نزل الوحى من رب العالمين على محمد بن عبد الله ﷺ وكان عمره أربعين سنة، ليكون رسولاً ونبيًا... وكما هو معروف أنه ﷺ ولد فى عام الفيل... أى فى سنة ٥٧٠ ميلادية.

وأرادت الأقدار أن يتربع هرقل الأول على عرش بيزنطة فى تلك السنة نفسها...

●● وفى سنة ٦١١ ميلادية زحف كسرى الثانى ملك الفرس على أراضى بيزنطة، وأخذت المدن السورية الكبرى تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى قبضة جيوش الفرس...

●● وفى سنة ٦١٤ ميلادية سقطت مدينة إيليا، وهو الاسم القديم لمدينة بيت المقدس فى أيدى قوات الفرس التى نهبت كل ما وجدته فى المدينة من كنوز ومقدسات بما فيها الصليب الأعظم الذى كان الرومان يطلقون عليه اسم «صليب الصلبوت» وهو عبارة عن قطعة من خشب الصليب يقول المسيحيون أن المسيح صلب عليه، وكانت محفوظة فى كنيسة القيامة فى بيت المقدس داخل صندوق محلى بالذهب والياقوت والبرونز...

وأعمل الفرس سيوفهم فى رقاب المسيحيين من سكان مدينة بيت المقدس فى تلك الأيام.

وتقول الروايات القديمة.. أن ٢٦ ألف يهودى انضموا إلى قوات الفرس، وأنهم قاموا بمساعدتهم فى عمليات قتل وذبح المسيحيين، ويقدر عدد ضحايا هذه المذابح بحوالى ٩٠ ألف قتيل غالبيتهم من المسيحيين.

●● وفى سنة ٦١٩ ميلادية زحفت جيوش الفرس على مصر بحجة ملاحقة عشرات الألوف من المهاجرين الذين لجأوا إليها. وفى هذه السنة نفسها فتحت الاسكندرية أبوابها لجيوش الفرس بلا قتال عن طريق الخيانة.

وكان هذا النصر الذى أحرزه الفرس الوثنيون على الروم المسيحيين من أهل الكتاب سببًا فى شماتة مشركى قريش فى أتباع الرسالة المحمدية.

ونزلت فى تلك الأيام سورة «الروم» التى أخبرت بانتصار الرومان على الفرس بعد هزيمتهم ويقول الله تعالى فى هذه السورة الكريمة ﴿**الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾.. وقد نزلت هذه الآية الكريمة فى وقت لم يكن يتوقع فيه أحد أن ينتصر فيه الروم على الفرس، وكان انتصار الرومان أمرا يكاد يكون مستحيلاً فى تلك الأيام...!

●● وفى سنة ٦٢٢ ميلادية.. نزل الامبراطور هرقل من سفنه على رأس قواته فى منطقة بين حدود الشام وقيليقية فى بلاد الأناضول تاركًا ابنه فى القسطنطينية – وكما قال – **فى رعاية الله والعذراء والبطريرك!**

وكانت بداية حرب جديدة بين الرومان والفرس استمرت ست سنوات كاملة، وقد تكلل لهرقل النصر فى تلك الحرب ليخرج منها كأقوى ما عرفت الامبراطورية الرومانية من أباطرة...

وأراد القدر أيضًا أن يتحقق لهرقل تباشير هذا النصر فى السنة نفسها التى هاجر فيها النبى ﷺ من مكة إلى يثرب التى أصبحت تعرف باسم المدينة المنورة.

●● وفى سنة ٦٢٧ ميلادية، وبالضبط فى السنة السادسة الهجرية سحب الفرس قواتهم من مصر للاستعانة بها فى حربهم ضد هرقل.

وعادت قوات الروم إلى مصر من غير معركة وبدون قتال...!

* * *

وفى تلك السنة أيضًا... أى سنة ٦٢٧ ميلادية (٦ هجرية) أرسل سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه رسالته إلى المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط فيها، وقد حملها إليه رسول اسمه حاطب بن أبى بلتعة، ويقول نص هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم... وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين... ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

إنها رسالة تاريخية، فقد كان النبى صلوات الله عليه وسلامه يدعو فيها حاكم مصر الرومانى لاعتناق الإسلام والرسالة محفوظة فى غرفة خاصة فى متحف « توب كابى » وهو المتحف الذى اشتهر باسم متحف « باب المدفع »، ويطل على البوسفور فى مدينة استانبول . . .

وكان السلطان العثمانى سليم الأول قد عثر على هذه الرسالة فى القاهرة عندما قام بغزو مصر منذ حوالى ٥٠٠ سنة وحملها معه مع الكثير من المقتنيات المصرية القديمة إلى بلاده . .

* * *

وكان الرسول الكريم عندما قرر إرسال هذه الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط قد سأل أصحابه فى المسجد النبوى الشريف قائلاً :

– **أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر . . وأجره على الله . . .**

ووثب حاطب بن أبى بلتعة من مكانه، وقال : . . . **أنا يارسول الله . . .**

ورد عليه الرسول الكريم قائلا :

– **بارك الله فيك يا حاطب . . .**

ومما يروونه . . . أن حاطبًا أخذ الكتاب وبعد أن ودع رسول الله ﷺ ذهب إلى بيته حيث ودع أهله، ثم شد على راحلته . . . أى دابته . . . وخرج مسافراً إلى مصر . . .

ويروى ابن عبد الحكم وهو واحد من المؤرخين العرب القدامى، وهو مولود كما سبق أن قلنا فى مدينة الفسطاط فى عام ١٧٨ هجرية بعض التفاصيل عما حدث عندما تلقى المقوقس هذه الرسالة، فيقول :

– كان المقوقس فى مجلس يشرف على البحر فى الاسكندرية فلما وصل حاطب أشار إلى الرسالة التى كان يحملها بين أصبعيه فاستدعاه المقوقس الذى بادر بقراءة الرسالة وبعدها التفت ناحية حاطب وسأله :

– **ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها حتى يسلط الله عليهم ؟ . .**

ورد عليه حاطب قائلا:

- ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به، ويفعل؟..

وسكت المقوقس، ولم يقل شيئًا..

واستطرد حاطب بن أبى بلتعة يقول له:

- كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك فلا يعتبر بك وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى الله به فقد ما سواه وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به...

ويقول ابن عبد الحكم أيضًا:

- أرسل المقوقس إلى حاطب بن أبى بلتعه ليلة، وليس عنده إلا ترجمانًا له، ثم قال له: ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها، فإنى أعلم أن صاحبك (يقصد النبى ﷺ) قد تخيرك حين بعث بك إلىّ...

ورد عليه حاطب قائلاً:

- لا تسألنى عن شيء إلا صدقتك...

قال المقوقس: إلام يدعو محمد؟..

ورد عليه حاطب قائلاً:

- إلى أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، ونخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة.

قال المقوقس: فكم تصلون؟..

وأجاب حاطب قائلاً:

- خمس صلوات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان وحج البيت والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم.

وعاد المقوقس يسأل: ومن أتباعه؟..

ورد عليه حاطب قائلاً: الفتيان من قومه وغيرهم...

وسأل المقوقس:

- وهل يقاتل قومه؟..

وأجاب حاطب: نعم..

وهنا قال المقوقس لمبعوث النبى ﷺ: صفه لى..

وأخذ حاطب يصف النبى عليه صلوات الله وسلامه بالكثير من صفاته..

وفجأة قاطعه المقوقس، وهو يقول:

- بقيت أشياء لم أرك ذكرتها وهى أن فى عينيه حمرة قلما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، وهو يركب الحمار ويلبس الشملة، ويجتزئ بالثمرات والكسر، ولا يبالى بمن لاقى من عم، ولا ابن عم..

قال حاطب: فعلا هذه من صفاته..

وهنا قال المقوقس:

- كنت أعلم أن نبيًا قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام حيث كانت تخرج هناك الأنبياء من قبله، وأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس...

ثم استطرد المقوقس يقول:

- إن القبط لن تطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك.. أى حديثى معك أحد.. وسوف يظهر نبيكم على البلاد، وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا، وأنا لا أذكر للقبط من ذلك حرفًا، فارجع إلى صاحبك...

ويقول ابن الحكم:

- دعا المقوقس بعد ذلك كاتبًا يكتب باللغة العربية، وأملى عليه رسالة يقول فيها:

- لمحمد بن عبد الله.. من المقوقس عظيم القبط.. سلام أما بعد... فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج فى الشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام...

وفي رواية أخرى يقول ابن الحكم:

- حدثني فلان. وفلان... وفلان أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضم الكتاب إلى صدره وقال: هذا زمان يخرج فيه النبي ﷺ نجد نعته وصفته في كتاب الله، وإنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين، ولا نكاح.. وأنه يقبل الهدية، ولا يقبل الصدقة وأن جلساءه من المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه..

هكذا تصور عن المقوقس عظيم القبط عندما تلقى رسالة النبي عليه صلوات الله وسلامه...

لقد أيقن إنها رسالة من رسول، وقد كشف حديثه مع حاطب بن أبي بلتعة أنه كان على قناعة بأنه كان النبي المنتظر!

والثابت أن عدداً من المؤرخين الأوروبيين لم تعجبهم تصرفات المقوقس وما عرف عن مناقشاته مع حاطب بن أبي بلتعة، فأجروا تحقيقات كثيرة للتعرف عن حقيقة شخصيته، ومن هؤلاء الدكتور الفريد بتلر الذى استقر رأيه بعد البحث والدراسة كما قال فى كتابه الوثائقى عن فتح العرب لمصر، على أن المقوقس لا يمكن إلا أن يكون هو الحاكم، الذى بعث به الامبراطور هرقل لحكم مصر بعد عودة قوات الرومان إليها، واسمه الحقيقى كما يقول هو البطريرك فيرس وأنه هو نفسه الذى تفاوض مع عمرو بن العاص عندما جاء لفتح مصر بعد عدة سنوات لتسليمها إلى قوات المسلمين..، وهو نفسه الذى قام بتسليم الاسكندرية إلى عمرو بن العاص لفتحها بلا قتال..

وفي رأى بتلر.. أن العرب أطلقوا اسم المقوقس على الوالى أو الحاكم على مصر الذى تسلم رسالة النبى صلوات الله وسلامه فى عام ٦٢٧ ميلادية.. أى فى السنة السادسة للهجرة، وقد أكرم المقوقس الرسول الذى حمل الرسالة إليه، ووعده بأن يقوم بدراستها وبحثها.

وأرسل المقوقس كما هو معروف هدية إلى الرسول الكريم كانت عبارة عن جاريتين مصريتين هما ماريا القبطية التى تزوجها النبى الكريم بينما تزوج حسان بن ثابت شاعر الرسول صلوات الله عليه وسلامه من أختها سيرين...

وأنجبت ماريا القبطية لرسول الله ابنه إبراهيم الذى توفى ولم يكن قد تجاوز السنتين من عمره، وقد حزن الرسول على موته حزناً شديداً....

وكـان من بين الهـدايا أيضًـا بغلة بيـضـاء اللون سـمـاها النبى صلوات الله عليـه وسلامه . . . « دلدل » . . وحمار أطلق عليه اسم « نفور » . .

وبعث المقوقس إلى الرسول الكريم مع هداياه طبيبًا معالجًا إلا أن رسول الله أعاده إلى مصر، وهو يقول « أغنانا الله عن الطبيب، وذلك لأننا قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع » .

* * *

وماتت ماريا القبطية فى سنة ٦٣٧ ميلادية . . وبالضبط فى شهر المحرم سنة ١٥ هجرية، وقد دفنت فى البقيع، وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبالتالى لم تشهد فتح مصر ! ! .

وتسأل عن اسم « دلدل » الذى أطلقه الرسول الكريم على « البغلة » التى تلقاها كهدية من المقوقس عظيم القبط فى مصر لتجد الجواب فى معجم لسان العرب الذى يقول :

– دلدل فى الأرض تعنى أنها اهتزت تتدلدل فى مشيتها وهى تحرك رأسها وأعضاء جسمها . والدلدل تشبه القنفد الذى لا يمكن الاقتراب منه لأنه ينتفض وهو يدفع بأشواكه الطويلة كالسهام !

وتقول . . . وماذا عن اسم « نفور » الذى أطلقه الرسول الكريم على « الحمار » الذى تلقاه كهدية من المقوقس أيضًا ؟

والجواب فى معجم لسان العرب الذى يقول أيضًا :

– إن النفور تعنى الاندفاع عند الانطلاق، وفيها معنى النفير، والنفرة والاستنفار . .

وأعود مرة أخرى إلى ماريا القبطية وأختها سيرين الجاريتين التى بعث بهما المقوقس إلى النبى الكريم مع هديته ردًا على الرسالة، التى بعث بها النبى إليه يدعوه فيها إلى اعتناق الإسلام . . .

تقول دراسة تاريخية قديمة أنها مع أختها سيرين تنتميان إلى عائلة قبطية كانت تعيش فى واحدة من قرى محافظة المنيا فى صعيد مصر .

واشتهرت هذه القرية باسم هبنو، وهو الاسم الذى كان الأقباط المصريين يطلقونه عليها، أما الرومان فكانوا يسمونها هابونا، ولما فتح العرب.. مصر قلبوا الهاء حاء والباء فاء، وأطلقوا على القرية اسم حافون.

ويقال إن هذه القرية كانت قاعدة للإقليم السادس عشر وهو أحد الأقاليم الذى كان يتكون منها التنظيم الإدارى فى مصر.

وتروى الدراسة التاريخية تفاصيل مثيرة فى قصة انتقال الفتاتين ماريا وسيرين من بيت عائلتيهما فى القرية الهادئة فى صعيد مصر، بحجة وفاء الضرائب التى لم تسددها عائلتهما كجاريتين فى قصر المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط.

وتقود هذه الدراسة التاريخية الهامة بالحرف الواحد!

– إن الفتاتين من أب قبطى مصرى اسمه شمعون وأم مسيحية رومية، وأن قرية حفن التى كانتا تعيشان فيها لا تبعد كثيراً عن بلدة اسمها انصتا فى شرق النيل فى اتجاه الأشمونيين فى محافظة المنيا الآن.. وصحيح أن قصة انتقال الفتاتين من قرية حفن، ثم ظهورهما فى قصر المقوقس قد غابت تفاصيلهما تماماً عن كتب التاريخ العربى والقبطى، ولكنها لا تختلف كثيراً عن الكثير من حكايات تلك الأيام عن انتزاع زوجات وبنات الفلاحين المصريين من أراضيهم وبيوتهم بسبب عجز الرجال عن أداء الضرائب، وأحياناً بسبب الاضطهاد الدينى لهم بصفتهم أقباط مؤمنين بكنيسة الإسكندرية.. أى الكنيسة الشرقية، وغير ذلك من أسباب المظالم الكثيرة وعمليات اضطهاد الفلاحين المصريين بمختلف أساليب الإرهاب وقيود الحكم البيزنطى.

* * *

وتقول... وماذا عن حاطب بن أبى بلتعة الذى حمل رسالة الرسول الكريم إلى المقوقس..

وهنا تسمع رواية قديمة تقول:

– إنهم يروون عن الرجل أنه كان يعمل تاجراً للمأكولات وأنه كان ينتمى إلى قبيلة الأسد، وهى واحدة من القبائل التى كانت متحالفة مع قبيلة قريش، وكان الرجل يملك عدداً من العبيد مما يوحى بأنه كان على جانب كبير من الثراء، وكان معروفاً عنه فى نفس الوقت أنه من أشهر المقاتلين ومن أمهر الرماة عند العرب...

ويقول الطبرى فى رواية غريبة أن تاجر المأكولات عرض على ماريا وعلى أختها سيرين اعتناق الإسلام أثناء رحلته معهما فى طريق عودته إلى المدينة المنورة . . .

وكانت هذ الرحلة قد استغرقت شهرًا كاملاً عبر الصحراء من الإسكندرية إلى المدينة .

وقال الطبرى . . إن حاطب بن أبى بلتعة نجح فى ترغيبهما فى الدين الإسلامى، وأنهما أسلمتا قبل وصولهما إلى المدينة . .

أما الصبى الخصى مابور، فقد تأخر إسلامه قليلاً . . واعترض بعض المؤرخين العرب على رواية الطبرى، وقالوا إن أحداً من الثلاثة ماريا وسيرين ومابور لم يكن يتحدث إلا اللغة القبطية بلهجة صعيدية وهى لغة لم يكن حاطب يعرف أن يتحدث بها وبالتالى لم يكن فى وسعه أن يقوم بمهمة ترغيبهما فى اعتناق الإسلام!

وتتكلم الدراسة التاريخية القديمة لتقول أن ماريا القبطية أنجبت إبراهيم، وكانت فرحة النبى الكريم بابنه كبيرة، لكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً بسبب إصابة الطفل فى عامة الثانى بمرض غريب ووفاته . . .

وتردد سؤال عن وفاة إبراهيم يقول :

– ماذا كان السبب المباشر للوفاة؟ . . هل كان بسبب إصابته بحمى الملاريا، خصوصاً وأن مياه السيول كانت تتجمع فى صورة مستنقعات فى أزقة وشوارع المدينة فى تلك الأيام مما ساعد على انتشار الباعوض الناقل لحمى الملاريا؟ . . أم أن الوفاة كانت بسبب مرض آخر؟ . . .

وحقيقة أخرى . . وهى أن ماريا وأختها سيرين أخذتا فى العويل عندما توفى إبراهيم إلا أن النبى الكريم نهاهما عن الصراخ! . .

وقال الرسول الكريم : إننا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئًا . .

وبعدها انحنى الرسول الكريم على جثمان ابنه ثم قبله، وكان الدمع يفيض من عينيه . .

ثم تمالك الرسول الكريم نفسه وقال :

– تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا بما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزنون، وإنا لله وإنا إليه راجعون . .

ونظر الرسول الكريم إلى ماريا فى عطف وحنان وقال ليواسيها:

- **إنّ له موضعًا فى الجنة!.**

وتم دفن إبراهيم فى البقيع.

وتقول الدراسة أيضًا. إن سيرين كانت قد أنجبت من زوجها حسان بن ثابت ولداً اسمه عبد الرحمن.

وقد شب هذا الابن.. وتزوج وأنجب ولدين سعيد وإسماعيل...

وقتل الابنان فى معركة «الحرة» فى عام ٦٣ هجرية عندما قام يزيد بن معاوية على رأس جيوشه بالهجوم على المدينة المنورة لإجبار أهلها على مبايعته بالخلافة.. وقتل فى ذلك اليوم حوالى ١٧٠٠ عربى مسلم من بينهم سعيد وإسماعيل ابنا عبد الرحمن.

وتتكلم الوقائع التاريخية فتقول.. إن النبى الكريم مرض بعد وفاة ابنه إبراهيم بأربعة أشهر، ولم يستغرق مرضه أكثر من ١٢ يومًا أمضاها فى بيت عائشة..

ومات النبى الكريم، وكان عمره ٦٣ سنة، وترك ماريا، وكانت شابة صغيرة.

ولم يذكر المؤرخون القدامى عمرها بالضبط عند وفاتها، ولكن الثابت أنها كانت فى ريعان شبابها عندما أهداها المقوقس إلى النبى الكريم..

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول أيضًا:

- جاءت ماريا إلى المدينة المنورة فى أواخر العام السابع للهجرة، وقد توفى النبى الكريم فى العام الحادى عشر الهجرى.. أى بعد حوالى خمس سنوات أو أقل قليلاً من زواجه منها واعتبارها واحدة من زوجاته..

وبقيت ماريا وحيدة، وقد شهدت زمن خلافة أبى بكر الصديق الذى كان ينفق عليها من بيت المال، وقد أدركتها الوفاة فى شهر المحرم من العام السادس عشر من الهجرة... أى فى زمن أمير المؤمنين.. الخليفة عمر بن الخطاب...

وكان هذا يعنى.. أنها ماتت فى ريعان شبابها، حيث لم تكن قد تجاوزت العقد الثالث من عمرها..

وبالتالى لم تشهد ماريا.. عملية فتح مصر عندما قامت القوات الإسلامية تحت قيادة عمرو بن العاص بالزحف فى عام ١٨ هجرية على الأراضى، المصرية لفتحها، ولطرد الرومان منها...

ودفنت ماريا فى البقيع.. ويقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يدعو الناس بنفسه للمشاركة فى تشييع جنازة ماريا...

وتتكلم الوقائع التاريخية أيضًا لتقول:

- ماتت ماريا فى ريعان شبابها بينما عمرت بقية نساء النبى، وقد عاشت بعضهن حتى بلغن سن الشيخوخة، وكان أن توفيت أم حبيبة عام ٤٤ هجرية أى بعد وفاة ماريا بحوالى ٢٨ سنة، وبعد وفاة النبى الكريم بحوالى ٣٣ سنة.

وتوفيت حفصة بنت عمر عام ٤١ هجرية.. أى بعد وفاة الرسول الكريم بحوالى ٢٥ سنة..

وتوفيت عائشة عام ٥٧ هجرية، وكان عمرها عند وفاتها ٦٥ سنة...

* * *

ومما يروونه عن رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط... أن المجلة الآسيوية الفرنسية ذكرت فى عدد شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤.. أن فرنسيًا اسمه بلن أرسل من القاهرة فى يوم ١٠ مارس سنة ١٨٥٢ رسالة إلى رينو أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى قال له فيها أن السيد إيتان بارتليمى أحد المستشرقين الفرنسيين وكان مقيمًا فى القاهرة قد عثر فى شهر ديسمبر سنة ١٨٥٠ فى أحد الأديرة القبطية القديمة بالقرب من بلدة أخميم على رق جلدى وقد أثار انتباهه وجوده كتابة عربية عليه، وأنه قد أصاب التمزق بعض أجزائه الوسطى، وقد أخذ الرجل الفرنسى فى حل رموزه فلم يجد فيه من الكتابة إلا كلمات متقطعة وفى أسفلها خاتم مستدير فى أعلاه اسم الجلالة.

وقال بلن أن الرجل الفرنسى اهتم بهذا الاكتشاف متصورًا أنه كتاب نبى الإسلام إلى المقوقس، وكان فى تقديره أن هذا الرق هو الكتاب الأصلى الذى تلقاه المقوقس، وأنه ظل مدة طويلة ضمن المحفوظات القبطية فى البطريركية. وكان فى تصوره أن الكتاب انتقل من يد إلى أخرى مع مرور الأجيال حتى وقع فى يد راهب جاهل استخدمه فى تجليد أحد الكتب...

وعرف أن مجلة الهلال التى تصدر عن دار الهلال قد نشرت هذه الرواية فى صفحة رقم ١٦٠ من العدد الثالث من السنة الثالثة عشر لصدورها . .

وكانت الرواية بعنوان : كتاب النبى إلى المقوقس نقلاً عن المجلة الأسبوعية الفرنسية عدد ديسمبر سنة ١٨٥٤ .

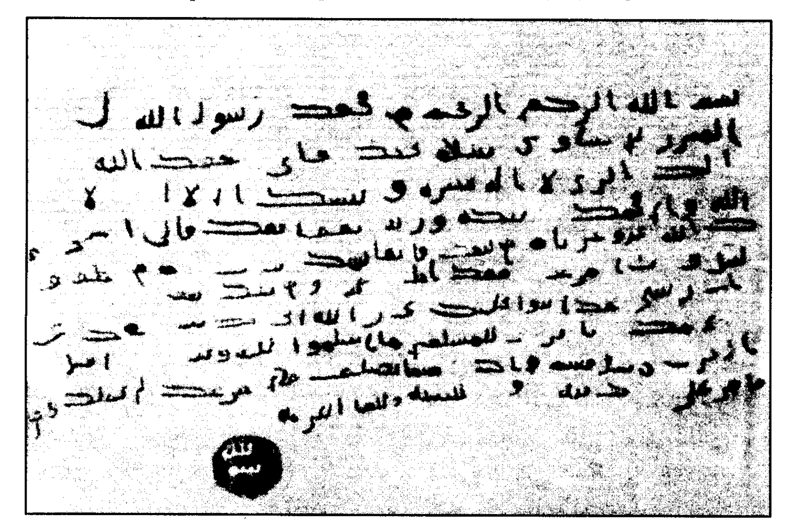
وقالت مجلة الهلال . . . أن أحداً لا يعلم ما آل إليه هذا الرق، ولا أين هو الآن . . .

وكان من الواضح أن مجلة الهلال لم تكن تعلم أن كتاب النبى ﷺ الآن قد انتقل إلى استنانبول ليستقر فى متحف باب المدفع المعروف باسم توبى كابى . .

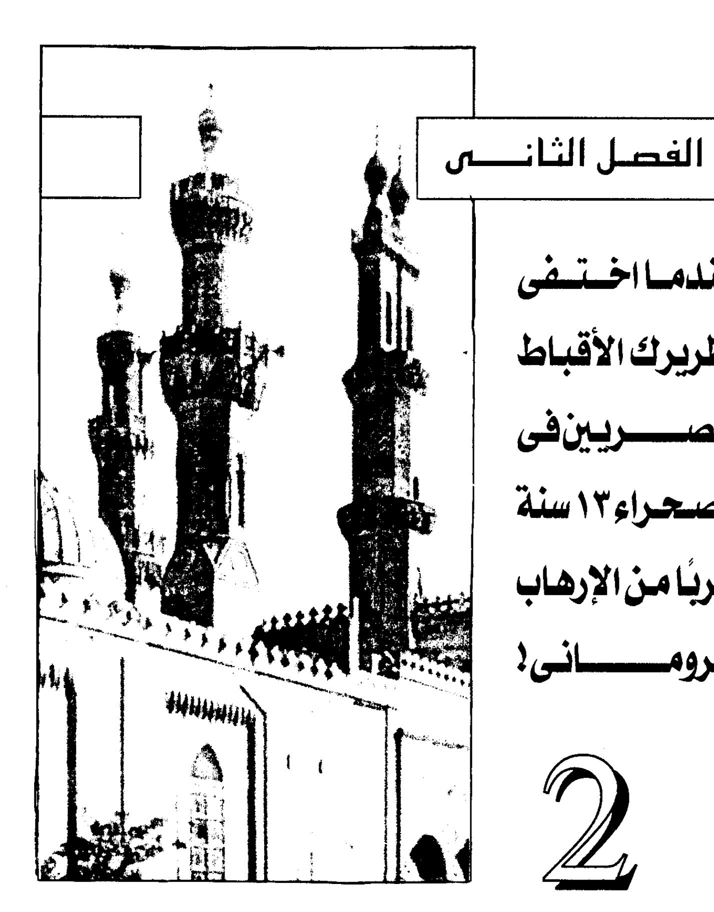
ويبقى بعد ذلك السؤال . . لماذا لا تطالب القاهرة باسترداد هذه الرسالة التاريخية باعتباره من مقتنياتها القديمة . . .

وبمعنى آخر . . أن تطلب إلى الحكومة التركية إعادته إلى القاهرة ! . ■

رسالة الرسول الكريم إلي المقوقس كبير القبط وحاكم مصر، وهى محفوظة فى غرفة خاصة بمتحف توب كاباي فى استانبول في تركيا



بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله



الفصل الثانى

عندما اختفى بطريرك الأقباط المصريين فى الصحراء ١٣ سنة هربًا من الإرهاب الرومانى!

2

- ❑ الجمال تحمل هوادج زوجات القادة والجنود وتتحرك وراء الجيش الإسلامى أثناء المعارك!
- ❑ ملك الفرس يمزق رسالة الرسول وهرقل ملك الروم يرحب بها!
- ❑ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتبادل ركوب دابته مع تابعه فى رحلته من المدينة المنورة إلى القدس!



الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين الذى اختفى فى الصحراء لمدة ١٣ سنة هربًا من الإرهاب الرومانى كما تصورته ريشة الفنان البرجينى..

هزمت جيوش الرومان قوات الفرس في سنة ٦٢٩ ميلادية التي تواكب السنة السابقة للهجرة، واضطر كسرى الثاني للفرار منها ذليلاً.

وقام خليفته شيرويه الذى تولى عرش الفرس من بعده بالقبض عليه.

ووجه شيرويه إلى كسرى إهانات كثيرة باعتباره المسئول عن الهزائم التى أصابت جيوش بلاده، ثم أمر بتعذيبه والتنكيل به قبل أن يقوم بإعدامه.

وكان كسرى الثانى واحداً من الذين بعث الرسول الكريم برسائله إليهم داعيًا إياهم للإسلام، إلا أنه قام بتمزيق الرسالة ولم يرد عليها...

وعندما بلغ الخبر النبى ﷺ قال: «مزق كتابى، مزق الله ملكه»، وتقول الوقائع التاريخية... إن شيرويه ملك الفرس عقد بعد انكسار قوات كسرى وهزيمتها، الصلح مع هرقل، وأنه وافق بمقتضى هذا الصلح على إعادة كل البلاد التى كانت ما تزال تحت سيطرة الفرس من أملاك الدولة الرومانية إليها، ووافق أيضًا على أن يدفع الجزية إلى الرومان.

وكان من أهم شروط الصلح إعادة الصليب الأعظم: أى «صليب الصلبوت» المقدس إلى مكانه فى كنيسة القيامة فى بيت المقدس.

وكان الرسول الكريم قد بعث برسالة أخرى إلى هرقل يدعوه فيها أيضًا إلى الإسلام..

وأرادت الصدفة أن تصل هذه الرسالة الكريمة إلى هرقل كما يقول المؤرخون القدامى بينما كان متجهًا فى موكبه الرهيب. وهو يحمل الصليب المقدس إلى بيت المقدس لإعادته إلى مكانه داخل كنيسة القيامة..

وكان هرقل فى موكب انتصاراته عندما طلع عليه جماعة من الفرسان العرب، وقام قائدهم وكان اسمه دحية، بن خليفة الكلبى بتقديم كتاب النبى صلوات الله عليه وسلامه إليه.

ويقول الدكتور الفريد بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر:

- لاشك أن الامبراطور هرقل كان قد سمع بما حدث لكسرى ملك الفرس عندما مزق كتاب النبى صلوات الله عليه وسلامه، ولكن الشيء المؤكد أن هرقل

أكرم وفادة رسول النبى حتى أن بعض المؤرخين العرب ابتكروا قصة غريبة تقول إن هرقل وافق على اعتناق الإسلام، وهى قصة لا أساس لها من الصحة!..

●● وفى سنة ٦٢٩ ميلادية.. أى فى السنة نفسها التى اندحرت فيها قوات الفرس وشهدت نهاية كسرى وقع صدام بين قوة من المسلمين كانت بقيادة زيد بن حارثة، مع أحد جيوش الروم عند قرية اسمها مؤتة بالقرب من نهر الأردن، وقتل زيد بن حارثة، ثم قتل من تولى القيادة من بعده، وكادت الدائرة أن تدور على قوات المسلمين لولا أن بادرت القوة الإسلامية باختيار خالد بن الوليد لتولى القيادة، وقد استطاع خالد أن يقوى عزيمة قواته، وأن ينجو بها من كارثة كانت محققة بالعمل على انسحابها بنجاح من أرض المعركة.

ولم يهتم هرقل كثيراً بما حدث فى تلك المعركة، فقد كان يعيش فى أوج انتصاراته، واعتبرها مجرد غارة من غارات البدو.

ولم يتبادر إلى خاطر هرقل أن القائد الذى أنقذ قوات المسلمين من الإبادة، وهو خالد بن الوليد سيتمكن بعد عدة سنوات من سحق جيوش الرومان فى معركة من أكبر معارك التاريخ القديم، وهى المعركة التى عرفت باسم معركة «اليرموك» وانتهت بنسف كل انتصارات هرقل وأحلامه، وكانت انتصارات قوات المسلمين على قوات الفرس والرومان فى تلك الأيام هى التى مهدت الطريق أمام فتح مصر..!

* * *

والثابت أن اهتمام هرقل بمصر كان قد بدأ منذ توليه عرش الامبراطورية الرومانية، وقبل أن يصاب بالهزائم المتلاحقة أمام قوات المسلمين، وكان هذا الاهتمام بلا حدود، فقد كان يرى أن من أهم واجباته المقدسة، أن يعمل على توحيد العقيدة المسيحية، وإزالة الخلافات بين الكنيستين الرومانية والشرقية.

وأعد هرقل بالاشتراك مع رجال الكنيسة فى القسطنطينية صيغة للتوفيق بين المذاهب المختلفة فى الكنيسة المسيحية..

ووقع اختيار هرقل على مطران مدينة اسمها فاسيس فى القوقاز، وكان اسمه قيرس، وهو نفسه الذى أطلق عليه العرب اسم المقوقس، ليقوم بمهمة التوحيد بين المذاهب..

وعرف الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط فى مصر فى تلك الأيام بما استقر عليه رأى هرقل، وباختياره قيرس لهذه المهمة، فغضب بشدة وبادر بعقد اجتماع فى مدينة الاسكندرية شهده عدد كبير من القساوسة وزعماء الأقباط المصريين.

وتكلم الأنبا بنيامين فى هذا الاجتماع بصراحه معلنًا معارضته لأفكار هرقل وآرائه وطلب إلى القساوسة مقاومة هذه الاتجاهات والثبات على عقيدتهم وأن يدافعوا عنها حتى الموت.

وبعث الأنبا بنيامين فى الوقت نفسه رسائل إلى بقية الأساقفة، الأقباط فى مختلف ربوع مصر يقول لهم فيها إن عليهم مواجهة اضطهاد الدولة الرومانية بالهجرة إلى الجبال والصحارى حتى تزول الغمة التى كانت تهدد رجال الكنيسة القبطية فى مصر.

ولم ينتظر الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط، وبادر بنفسه بالتوجه إلى جنوب مصر، أى إلى الصعيد، وفيه اختفى ليعيش فى أحد الكهوف فى صحراء مصر الغربية لمدة ١٣ سنة كاملة...!

وكان قيرس قد حاول بعد وصوله إلى مصر أن يشرح للأقباط المصريين حقيقة المهمة التى كان مكلفًا بها من هرقل برفق وكياسة.

قال لهم.. إن المطلوب هو توحيد المذاهب فى الكنيسة المسيحية فى مذهب واحد كان يطلق عليه اسم مذهب: «وحدة الإرادة».. أو «المونو تلينى» ولكن كل محاولاته باءت بالفشل..

وبمعنى آخر.. قوبلت مهمته بالرفض الشديد من جانب أقباط مصر..

ولم يكن قيرس إلا أن اتجه إلى اتخاذ أسلوب آخر، وهو شن حملة من الاضطهاد ضد هؤلاء الأقباط المصريين متصوراً أن فى وسعه إقناعهم بالقوة والضغط عليهم لقبول وجهة نظر هرقل...

واستمرت هذه الحملة لمدة عشر سنوات كاملة.. ويضم تاريخ الكنيسة القبطية القديم فى مصر الكثير من الوقائع التى تفضح عمليات التعذيب الوحشية التى تعرض لها الأقباط المصريين على أيدى قوات الرومان فى تلك الأيام.

وكانت كل هذه العمليات تتم بعلم وبناء على تعليمات قيرس.. أى المقوقس.

وعلى سبيل المثال . . أمر فيرس بالقبض على ميناس شقيق الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط، ثم قام بتعذيبه بتسليط مشاعل النار على جسده بالدرجة التى جعلت الدهن يسيل من جنبيه ويتساقط على الأرض! .

ولم يتزعزع الرجل عن عقيدته وإيمانه، وظل ثابتًا على موقفه، وبعدها قام زبانية الرومان بخلع أسنانه وأظافره، ثم وضعوه فى زكيبة مملوءة بالرمل، وتوغلوا به فى سفينة فى البحر، وهم يعرضون عليه الحياة مقابل أن يعلن إيمانه وموافقته على ما يريده فيرس، فلما أصر على التمسك بموقفة ألقوا به فى البحر ليموت غرقًا . . !

وكانت هذه الجريمة البشعة وغيرها من عمليات الاضطهاد التى كان فيرس يباشرها بنفسه ضد الأقباط المصريين هى السبب فى كراهيتهم لحكم الرومان!

* * *

وكان عمرو بن العاص أول من اقترح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد أن تم تحرير بيت المقدس، واستسلامها لقوات المسلمين فتح مصر .

وكان سفرونيوس أسقف بيت المقدس قد أطل من فوق أحد أسوار المدينة أثناء حصار قوات المسلمين لها، وأعلن أنه على استعداد لتسليم المدينة صلحًا، ولكن بشرط أن يكون تسليمها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه . . أى إليه شخصيًا . .

وعرف عمر بن الخطاب بذلك، فلم يتردد لحظة واحدة فى السفر إلى بيت المقدس لتسلم المدينة من الأسقف الرومانى .

أراد كما قال أن يحفظ دماء المسلمين . . وقالوا فى وصف رحلة أمير المؤمنين فى المدينة المنورة إلى بيت المقدس، أنه قطع المسافة بين المدينتين من غير حاشية أو حراسة، وأنه لم يصطحب معه سوى تابع واحد، وكانت معه دابة واحدة، ولذلك كان يتبادل ركوب الدابة مع تابعه، فقد كان يركبها لمسافة فى الطريق، بينما كان تابعه يسير إلى جوار الدابة على قدميه، وكان أمير المؤمنين ينزل من فوقها بين الآونة والأخرى ليركبها تابعة بينما كان وهو أمير المؤمين يسير إلى جوارها . .

وقام أمير المؤمنين بتسلم مدينة بيت المقدس، وبعد أن أمضى فيها عدة أيام توجه إلى دمشق .

وكان أمير المؤمنين فى ناحية لا تبعد كثيراً عن دمشق واسمها الجابية عندما عرض عليه عمرو بن العاص لأول مرة اقتراحه بأن يقوم بفتح مصر، إلا أن أمير المؤمنين لم يوافق فى بادىء الأمر قائلاً: إن الوقت ما يزال غير مناسب للموافقة على الاقتراح.. ولم يستسلم عمرو بن العاص لذلك، وأخذ يلح على أمير المؤمنين محاولاً إقناعه بالموافقة على أن يقوم على رأس جيش من فرسان المسلمين بفتح مصر.

وقال عمرو بن العاص لأمير المؤمنين أثناء إحدى محاولاته.. إن فتح مصر سوف يحرم الرومان من خيرات مصر، ومن مواردها الوفيرة.

وقال له أيضًا حتى يهون عليه الأمر.. أنه لن يحتاج إلى جيش كبير للقيام بعملية فتح مصر، فقد سبق له أن زار مصر فى شبابه.. أى فى أيام الجاهلية، وأنه يعرف مسالكها وأحوالها وظروفها..

ولكن أمير المؤمنين، وكان على قناعة بأهمية فتح مصر، بقى على إصراره وعلى موقفه. أولاً لحرصه على المحافظة على دماء المسلمين كما كان يقول، وثانيًا لأنه كما قال أكثر من مرة لعمرو بن العاص يخشى أن يشتت قوات المسلمين شرقًا وغربًا فى الفتوحات بعد نجاحها فى توجيه ضرباتها إلى قوات الفرس والرومان وفتح بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين.

ولكن عمرو بن العاص استمر يدافع عن اقتراحه، وفى إحدى المرات قال لأمير المؤمنين:

– إن أريطيون قائد حامية بيت المقدس الرومانى، وصحة اسمه «ارطبون» قد هرب إلى مصر، وأنه يخشى أن يقوم الرجل، وهو قائد رومانى مقاتل بحشد قوات جديدة لاستخدامها فى محاولة الانتقام من قوات المسلمين، واسترجاع بلاد الشام بما فيها بيت المقدس.

وسكت أمير المؤمنين ولم يقل شيئًا..!

ويروى المؤرخون العرب القدامى أن أمير المؤمنين ظل معارضًا للاقتراح حتى عاد إلى المدينة المنورة وعرف أنه قام باستشارة عدد من كبار الصحابة، وكان من بينهم عثمان بن عفان قبل أن يتخذ قراره بفتح مصر.

وكان فى رأى هؤلاء الصحابة.. أن عمرو بن العاص هو القائد المناسب للقيام بالمهمة فى حالة موافقة أمير المؤمنين على تنفيذها، إلا أنهم كما قالوا يخشون فى

الوقت نفسه على عمرو بن العاص فى حالة تكليفه بها لما عرف عنه من شدة الحماسة.. وأحيانا التهور أيضاً!

وكانت مناقشات لم يعرف بها عمرو بن العاص، حتى كانت المفاجأة عندما استدعاه أمير المؤمنين وكلفة بالتحرك لفتح مصر على رأس قوة من المقاتلين العرب لا يزيد عددها على أربعة آلاف فارس.

ووعد أمير المؤمنين فى الوقت نفسه بأن يبعث إلى عمرو بن العاص مستقبلاً بكل ما يمكن أن يحتاج إليه من إمدادات ومقاتلين.

وكان تسليح القوة التى خرجت مع عمرو بن العاص فى حملته لفتح مصر محدوداً للغاية، فقد كان ما يحمله غالبية المقاتلين لا يتعدى السيوف والرماح.. والعصى أيضاً!

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول.. إن الجيش الإسلامى الذى تحرك لفتح مصر كان يتكون من وحدات قبلية يطلق عليها اسم ألوية. وكان كل لواء يرفع راية تختلف فى اللون والشكل عن رايات القبائل الأخرى..

وكانت بعض الألوية تسير على ميمنة الجيش، بينما تسير الألوية الأخرى على ميسرته.

وكانت جميع الألوية تتوحد تحت راية القلب حول قيادة عمرو بن العاص.

وكان عمرو بن العاص يفضل استخدام راية سوداء اللون على نمط أول راية أعطاها إليه النبى صلوات الله عليه وسلامه فى غزوة ذات السلاسل، وقد ظل عمرو بن العاص يستخدم راية سوداء فى جميع المعارك التى شارك فيها ومنها واقعة قيسارية وفى معركة اليرموك وفى معارك بلاد الشام وفى معركة صفين.

وكانت رايته أيضاً على رأس قوات المسلمين التى قامت بفتح مصر سوداء اللون.

وتسأل عن القبائل التى شاركت فى الجيش الإسلامى الذى كلف عمرو بن العاص بقيادته لفتح مصر لتقول الوقائع التاريخية:

●● كان غالبية القوات المقاتلة من عرب جنوب الجزيرة العربية الذين ينتمون إلى

الأصول القحطانية القديمة، وكان عددهم ثلاثة أضعاف عدد عرب الشمال من ذوى الأصول العدنانية.

●● واشترك فى الجيش الإسلامى ممثلون عن حوالى ٣٠ قبيلة من قبائل شمال الجزيرة العربية وكان أبرزها قبائل قريش وفهر وعامر وغفار وثقيف، وقد تولى كبارهم مواقع أمراء الجيش وقواده، وخرج منهم أصحاب الشرطة والقضاة ورؤساء الدواوين والقادة الذين حكموا مصر فى السنوات التى أعقبت الفتح.

●● واشترك من قبائل جنوب الجزيرة العربية ممثلون عن حوالى ٦١ قبيلة يتفرع منهم حوالى ١١١ بطنًا وكان من أبرزها قبائل الأزد ولخم وجذام والمعافر..

واشترك فى الجيش الإسلامى حوالى مائة من الصحابة الذين كانوا مقربين إلى النبى الكريم فى حياته!!

ومما يروونه أن بعض المقاتلين الجنوبيين كانوا من العرب المرتدة الذين انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى رافضين دفع الزكاة، وكان أبو بكر الصديق قد حاربهم حتى استطاع إخضاعهم مرة أخرى..

وكان أبو بكر يرفض انضمام أهل الردة إلى جيوش الفتوحات الإسلامية إلا أنه وافق بعد ذلك على مشاركتهم فى هذه الجيوش، واشترط أن يكونوا دائمًا فى المعارك الأمامية.

وجاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليعمل على تشجيع انضمامهم إلى جيوش الفتوحات الإسلامية حتى يشغلهم عن الفتن والقلاقل الداخلية وحتى يمنحهم فرصة تحقيق بعض المنافع وتغيير حالة الفقر التى كانوا يعيشونها وبخاصة قبيلة علك وغامق اللتين لم تكن مصادفة أن تمثلاً كثرة عددية فى جيش عمرو بن العاص الذى تحرك لفتح مصر.

وكانت عادة اصطحاب النساء فى الحرب عادة عربية قديمة لإثارة حماس الرجال فى الدفاع عن نسائهم، وقد ظلت هذه العادة سارية فى غزوات النبى وأثناء حروب الفتوحات الإسلامية.

ويقول بعض المؤرخين العرب أن عمرو بن العاص اصطحب زوجته رايطة بنت منية بن حجاج القرشية أثناء حملته لفتح مصر.

وجاء ذكر زوجة عمرو بن العاص لأول مرة أثناء حصار الإسكندرية عندما اشتد القتال وقام أحدهم بتحذير عمرو وهو يقول له:

- إن الرومان قد يغشوك، ونحن نخاف على رابطة..

وابتسم عمرو بن العاص، وهو يقول له:

- عندها سوف يجد العدو الرومانى رباطًا كثيرة..!

ولم يكن عمرو بن العاص هو الوحيد الذى اصطحب زوجته، فقد كانت الجمال تتهادى فى مؤخرة القوات الإسلامية عندما تحركت الجيوش وهى تحمل هوادج النساء من زوجات القادة وأمراء الجيش وبعض الذين خشوا أن يتركوا وراءهم زوجاتهم مع قبائلهم فى الصحراء.

ومن الزوجات اللاتى اصطحبتهن قوات المسلمين بسيمة بنت أبى يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وزوجة معاوية بن حديج بالإضافة إلى خولة بنت الأزور الكندية ومزروعة بنت عملوق الحميرية اللتين يقول الواقدى أنهما أبليتا بلاء حسنًا فى فتوح مصر والشام!

المهم.. تحرك عمرو بن العاص على رأس قواته فى اتجاه الأراضى المصرية حتى إذا ما وصل إلى رفح من منطقة حدود مصر لحق به رسول يحمل إليه رسالة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقيل إن عمرو بن العاص تخوف بثاقب ذكائه، وكان يعرف مقدار الصعوبة التى واجهته حتى استطاع إقناع أمير المؤمنين بالموافقة على تحركه على رأس قوات المسلمين لفتح مصر، أن تكون الرسالة قد حملت إليه قراراً بالتراجع عن مهمته، ولذلك تقاعس عن استقبال الرسول وتسلم الرسالة حتى وصل على رأس قواته إلى مدينة العريش، وعندها استدعى الرسول، وقام بقراءة الرسالة، فإذا بها تؤكد صدق حدسه وفراسته، فقد كان أمير المؤمنين يقول له فيها:

إذا تسلمت رسالتى قبل أن تصل على رأس قواتك إلى منطقة حدود مصر، فعليك أن تعود أدراجك، وأن لا تستمر فى تنفيذ مهمتك، إما إذا كنت قد تجاوزت هذه الحدود بالفعل، فإنه يصبح لزامًا عليك أن تمضى على بركة الله فى تحقيق هذه المهمة، وسوف أدعو لك فى صلواتى بالنصر بإذن الله.

وأدرك عمرو بن العاص.. أن أمير المؤمنين قد راودته فعلا فكرة التراجع عن فتح مصر، إلا أنه كان يخشى فى الوقت نفسه أن يصدر إليه تعليماته بعدم تنفيذ مهمته فى حالة إذا كان قد تجاوز منطقة الحدود وبعد أن يتوغل فى داخل الأراضى المصرية حتى لا يقال إن القوات الإسلامية قد تراجعت عن مواجهة قوات الرومان فى مصر..!

وسأل عمرو بن العاص من حوله بعد أن قرأ الرسالة:

- أين نحن الآن.. فى مصر.. أم فى الشام!

فلما قيل له: نحن فى مصر؟.. قام بقراءة الرسالة على جنوده، ثم قال لهم:

- إذن نسير فى طريقنا كما يأمرنا أمير المؤمنين..

هذا ما يقوله المؤرخ العربى المقريزى.. أما ابن عبد الحكم فيضيف أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص عندما أبلغه قرار موافقته على تحركه لفتح مصر:

- سوف أرسل إليك بعد قليل كتابًا فإذا أمرتك فيه بالتراجع عن عملية فتح مصر، فارجع مع قواتك إلا إذا كنت قد دخلت فى أرض مصر، وعندها واصل تقدمك وسر على بركة الله.

وكان هذا يعنى أن عمرا كان يعرف مسبقًا أن أمير المؤمنين الذى كان ما يزال مترددًا عندما اتخذ القرار سوف يبعث إليه بهذه الرسالة!

وفى العريش تحول المكان الذى كان عمرو بن العاص يصلى فيه مع قواته إلى مسجد وكان هذا المسجد الذى ما يزال موجودًا حتى الآن، واشتهر باسم مسجد السلام فى ناحية المساعيد هو أول مسجد عرفته مصر بعد الفتح الإسلامى لها..

ومما يروونه أن اسم المساعيد التى اشتهرت بها الناحية التى أقام فيها عمرو بن العاص معسكر قواته بعد وصولها إلى المنطقة يرتبط بتوقيت وصول هذه القوات المنطقة فى يوم عيد الأضحى.. فقد فوجئ عمرو بن العاص بأهالى المنطقة.. وهم يستقبلون قواته بقولهم.. المساعيد... أى اليوم مساء يبدأ العيد.

وأصبح اسم الناحية: المساعيد...! ■



وقعت أرمانوسة ابنة المقوقس حاكم مصر وكبير القبط فى الأسر فى بلبيس وبادر
عمرو بن العاص بإطلاق سراحها فوراً وقام بإعادتها إلى والدها معززة مكرمة..!

الفصل الثالث



عندما وقعت أرمانوسة إبنة المقوقس أسيرة فى بلبيس وأعادها المسلمون إلى والدها معززة مكرمة!

3

- معارك طاحنة في بلبيس يخسر فيها الرومان ١٠٠٠ قتيل وثلاثة آلاف أسير..!
- لماذا اقترح الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق أن تكون بلبيس عاصمة لمحافظة الشرقية؟
- ثاني مسجد عرفته مصر بني في بلبيس منذ ١٤٠٠ سنة هجرية واسمه مسجد «سادات قريش»!



ماريا وصيفة أرمانوسة كما تصورها الفنان ومعها الراهب
شطا الذي اصطحبته أثناء لقائها مع عمرو بن العاص..!

تحركت قوات المسلمين من العريش فى طريقها إلى مدينة الفرما أو مدينة الفرسان كما كانوا يطلقون عليها وهى مدينة فرعونية مندثرة كان اسمها باللغة القبطية «فرومى» على مسافة ٢٣ كيلو مترا فى الشرق من محطة الطينة بين بورسعيد والإسماعيلية. وكانت هذه المدينة أقوى مراكز الدفاع عن حدود مصر الشرقية، وترجع تحصيناتها القوية إلى أيام احتلال الفرس للأراضى المصرية..

وقد دارت فى المنطقة حول المدينة معارك عنيفة عندما غزاها طاغية الفرس قمبيز فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد.

وكان أحد فروع النيل فى تلك الأيام وهو الفرع الذى كان معروفا باسم الفرع البلوزى يصب فى البحر فى الشمال من المدينة.. وكان يوجد فى المدينة آثار مصرية قديمة كثيرة وكذلك عدد من الأديرة والكنائس، وكانو يعتبرونها بوابة مصر الشرقية باعتبارها طريق القادمين إلى الأراضى المصرية من الصحراء.

وعندما قام الفرس بغزو مصر قبل الرومان لم يجدوا مشقة فى اقتحام المدينة، وقد قاموا - وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار - بدك أسوارها كما خربوا حصونها..

وما تزال أطلال قلعة قديمة من قلاعها باقية حتى الآن على مسافة غير بعيدة من المكان الذى كانت مدينة الفرما قائمة فيه، وكانت القلعة تستخدم حتى أواخر القرن الثامن عشر كمنفى للمجرمين والخارجين عن القانون من أهل مصر.

وأجمع غالبية المؤرخين العرب على أن قوات المسلمين سلكت فى تقدمها من العريش إلى مدينة الفرما الطريق نفسه الذى شهد مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز والإسكندر الأكبر وعائلة المسيح والسيدة زينب رضى الله عنها فى الوصول إلى مصر، وهى الطريق نفسه التى وطأتها جيوش الفرس عندما قامت بغزو مصر قبل الرومان، وكانت فى الوقت نفسه طريق التجار والقوافل بين آسيا وإفريقيا.

ولم تلق قوات المسلمين أية مقاومة من جنود الرومان على طول الطريق التى قطعتها من العريش حتى اقتربت من مدينة الفرما حيث وقعت بعض المناوشات بينها وبين جنود الحامية الرومانية التى كانت متمركزة فى المنطقة.

واستمر حصار قوات المسلمين للمدينة لمدة شهر كامل، فلم تكن هذه القوات التى كانت غالبية أفرادها من الفرسان العرب تملك أية آلات للحصار، كما أنه لم يكن لديها دراية أو معرفة بأساليب الحصار أو فنونه. وكان اعتمادها فى الاستيلاء على المدينة على المهاجمة وفتح أبواب الحصون عنوة، وأحيانا بالصبر على المدافعين عن الحصون حتى يدفعهم الجوع وانهيار الأعصاب للخروج لقتالهم.

وحدث فى مدينة الفرما أن خرج جنود الرومان من حصونهم أكثر من مرة لقتال قوات المسلمين، ولكنهم كانوا دائما يرتدون على أعقابهم، وفى إحدى المرات استطاعت قوات عمرو بن العاص أن تطاردهم وأن تتبعهم حتى تمكنت من السيطرة على أبواب بعض الحصون، وأن تقوم باقتحامها.

وكان اسم أول من اقتحم الحصون القوية فى المدينة من الفرسان العرب سميقع بن وعله السباى!

وكان انتصار قوات عمرو بن العاص على الحامية الرومانية فى مدينة الفرما هو أول الفتح الإسلامى لمصر.

وانقضى نصف شهر يناير فى عام ٦٤٠ ميلادية قبل أن تتحرك قوات العرب من مدينة الفرما.

ويقول التقويم الهجرى.. إن أول عام ١٩ هجرية يتفق.. مع يوم ٢ يناير سنة ٦٤٠ ميلادية، كما أن آخر يوم فى العام الهجرى هو يوم ٢٠ ديسمبر من نفس السنة الميلادية!

* * *

ويقول المؤرخون العرب.. إن قوات عمرو بن العاص اجتازت بعد تحركها من مدينة الفرما الأراضى السبخة التى كانت تمتد على طول الطريق فى المنطقة حتى خرجت منها لتسير فى أرض تغطيها رمال يختلط بها الصدف الأبيض حتى بلغت مدينة كان يطلق عليها اسم مجدول.. أو مجدل فى الجنوب الغربى من مدينة الفرما، ثم تحركت من هذه المدينة فى اتجاه مدينة قديمة أخرى كان يطلق عليها اسم «ثارو» وهى نفس المدينة التى قامت على أنقاضها مدينة القنطرة الآن، وتتميز الأرض فى هذه المنطقة بالصلابة، وكانت تنتشر فيها الملاحات التى كانت تنبت فيها أحراش كثيفة من الغاب والبوص.

وعرف من متابعة خط سير القوات الإسلامية إن عمرو بن العاص اضطر فى تحرك قواته إلى التزام جانب الصحراء، وإن كانت بعض الاحتمالات تقول إنه اتجه بقواته ناحية المنطقة المعروفة الآن باسم «الصالحية».. وبالتالى يكون قد خالف بعد تحرك قواته من مدينة الفرما، خط سير غالبية الجيوش التى سبقته فى غزو مصر.

وكان قمبيز على سبيل المثال قد سلك طريقا آخر بعد خروجه من مدينة الفرما، فقد اتجه غربا فى اتجاه مدينة كانت تعرف باسم «سنهور» وقد اشتهرت الآن باسم «سنهوت»، ومنها تحرك إلى ناحية صان الحجر وتل بسطة والزقازيق.

وتقول دراسة تاريخية أخرى.. إن قوات عمرو بن العاص اضطرت لتغيير خط سيرها بسبب ارتفاع المياه فى بحيرة المنزلة وطغيانها على الأرض المحيطة بها فى تلك الأيام، وأنها اتجهت بعد خروجها من منطقة الصالحية إلى الجنوب وكان أن اجتازت تلال وادى الطمبلات فى المنطقة التى تعرف الآن باسم التل الكبير.

وكان تحرك هذه القوات على أرض صلبة حتى بلغت مدينة بلبيس. وأجمع المؤرخون العرب على أن مقاومة القوات الرومانية الفعلية للقوات الإسلامية قد بدأت فعلا فى هذه المنطقة.

وكانت مدينة بلبيس تعتبر فى تلك الأيام عاصمة للاقليم الذى كان يمتد حتى مدينة الفرما.

وكان فى تصور الرومان عندما انسحبت قواتهم أمام القوات الإسلامية فى الفرما أنهم استطاعوا استدراج هذه القوات حتى وصلت إلى مشارف مدينة بلبيس، ولذلك قامت بعض طلائع قواتهم الرومانية التى جرى حشدها فى المنطقة، وهى قوات كانت تتمركز أساسا فى حصن بابليون بعدة محاولات للتصدى للقوات الإسلامية.

وكانت مناوشات فى بداية الأمر مع الحامية الرومانية لمدينة بلبيس، ثم تحولت هذه المناوشات إلى معارك حامية دارت فى المنطقة لمدة شهر كامل.. وشهدت المنطقة فى تلك الأيام معركة اشتهرت باسم موقعة «المشهد» عند قرية لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات من مدينة بلبيس واسمها قرية كفر أيوب.

وسقط فى هذه المعركة عدد كبير من أصحاب رسول الله من الصحابة الذين شاركوا مع عمرو بن العاص فى زحفه لفتح مصر.

ولم تصمد القوات الرومانية طويلا أمام شجاعة الفرسان العرب فبادرت بالانسحاب من المنطقة والتراجع فى اتجاه حصن بابليون الذى كان واحدا من أقوى حصون الرومان فى مصر فى تلك الأيام.

وتم فتح مدينة بلبيس على أيدى قوات عمرو بن العاص.. ويقول الدكتور الفريد بتلر فى كتابه الوثائقى «فتح العرب لمصر».. إن قوات الرومان خسرت فى المعارك التى دارت بينها وبين قوات المسلمين فى بلبيس وحدها ١٠٠٠ قتيل، وثلاثة آلاف أسير.. ويبدو أن الدكتور بتلر قد بالغ كثيرا فى تقديره لعدد الأسرى بالذات لأن عدد قوات المسلمين لم يكن يتجاوز أربعة آلاف مقاتل وهو عدد لم يكن يسمح بأن يحتفظ بمثل هذا العدد الكبير من الأسرى!

* * *

وكانت بلبيس واحدة من المدن المصرية القديمة، ويقول المؤرخون القدامى أن «أرمانوسة» ابنة المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط كانت فى المدينة، وأنها وقعت أسيرة فى أيدى قوات المسلمين عندما قامت باقتحام المدينة على أثر انتصارهم على قوات الرومان التى كانت تدافع عن المدينة..

وكانت أرمانوسة قد سافرت فى موكب مهيب فى طريقها إلى مدينة قيصرية فى بلاد الشام، ومنها كانت تزمع أن تواصل رحلتها »إلى مدينة القسطنطينية ليجرى زفافها على قسطنطين ابن الإمبراطور هرقل.

وعرفت أرمانوسة أن قيصرية قد حاصرتها قوات المسلمين فى حربها ضد الرومان فى بلاد الشام، فعادت أدراجها إلى بلبيس فى طريقها إلى حصن بابليون.

وعرف عمرو بن العاص بوقوع الأميرة الرومانية فى الأسر، فأمر بإطلاق سراحها فى الحال، ثم أكرم وفادتها، وقام بإعادتها تحت حراسة قيس بن سعد السهمى إلى والدها المقوقس ومعها خدمها وحاشيتها ومجوهراتها، وما كانت تحمله من هدايا وأموال.

وكان أحد القساوسة الرومانيين قد كتب قصة ابنة المقوقس التى أكرمها عمرو بن العاص، ثم أعادها إلى والدها، وأطلق على القصة اسم «أرمانوسة المصرية».

وفى العشرينيات من القرن الماضى، قام جورجى زيدان صاحب ومؤسس دار الهلال بترجمة هذه القصة، وإصدارها فى كتاب باللغة العربية يحمل نفس الاسم!

ويقول المؤرخون عن أيام الفتح الإسلامى لمصر أن المقوقس اهتز بعنف عندما عرف بتفاصيل ما حدث لابنته، وبأسلوب عمرو بن العاص الحضارى عندما أكرم وفادتها وأرسلها إليه معززة مكرمة.

* * *

وكان لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى ماريا. وكانت هذه الوصيفة ذات جمال يونانى امتزج بحلاوة الجمال المصرى.

وكانت ماريا مسيحية قوية الإيمان بدينها، كما كانت تمتاز برجاحة العقل، وعلى جانب كبير من الثقافة..

وكان المقوقس قد اختارها بنفسه لتكون جليسة ووصيفة لابنته..

وقال بعض المؤرخين القدامى.. أن ماريا أصيبت بالذعر عندما وصلت قوات عمرو بن العاص إلى مشارف مدينة بلبيس بسبب ما كان يروجه الرومان من دعايات تقول بأن العرب قوم جياع، وأنهم خرجوا من بلادهم هربًا من حالة القحط التى كانت تطارد حياتهم فى الصحراء..

وكان الرومان يطلقون على العرب أوصافا غريبة منها أنهم جراد إنسانى لا يغزو منطقة إلا ليشبع منها جوعه، وليملأ بطنه بخيراتها، ثم يتركها خرابًا، ومنها أيضًا أنهم غلاظ الأكباد والقلوب، ولا فرق بينهم وبين الإبل التى يمتطونها، وأن النساء عندهم كالدواب، وأنهم لا عهد لهم، ولا وفاء..

وقالوا أيضًا فى حملتهم للتشهير بقوات المسلمين أن عمرو بن العاص كان يعمل جزارًا فى الجاهلية، وأنه اعتنق الإسلام، ومع ذلك ما يزال يعيش فى حربه ضد الرومان بروح الجزار وطبيعته.!

وصدَّقت ماريا الكثير من هذه الدعايات مما أدى إلى انهيار أعصابها وإصابتها بحالة من الفزع والخوف عندما وصلت قوات العرب إلى مشارف مدينة بلبيس..

وكان معروفًا عن ماريا.. أنها شاعرة، وأنها قامت مع أرمانوسة ابنة المقوقس بدراسة الفلسفة والأدب اليونانى، ولذلك بادرت بالتعبير عن حالة الرعب التى أصابتها بقصيدة من الشعر تقول ترجمة كلماتها:

جاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة..

ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحى..

جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة..

ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت..

قوِّنى يا إلهى، لأغمد فى صدرى سكينًا يرد عنى عن الجزارين..

يا إلهى شجع هذه العذراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربى..

وذهبت ماريا إلى أرمانوسة ابنة المقوقس ثم أخذت تتلو أمامها كلمات قصيدتها بصوت حزين..

وأخذت أرمانوسة تضحك، وهى تستمع إلى كلمات القصيدة، ثم قالت لماريا:

- أنت واهمة يا صديقتى.. أنسيت أن أبى قد أهدى إلى نبيهم بنت «أنصتا»..

والتفتت ماريا ناحية أرمانوسة، وهى تقول لها:

- ماذا تعنين بالضبط؟..

وردت عليها أرمانوسة، وهى تقول لها:

- إننى أقصد ماريا التى أهداها أبى مع أختها سيرين إلى نبى المسلمين ردا على رسالته، وكما سمعنا لقد تزوجها النبى، وقد أنجب منها ابنه إبراهيم..

ثم استطردت أرمانوسة تقول لوصيفتها:

- كان فى تصور والدى عندما أهدى بنت «أنصتا» إلى نبى المسلمين أن فى وسعها أن تكشف له عن حقيقة الدين الجديد وحقيقة هذا النبى.. أى أنه كان يريدها أن تعمل له جاسوسة فى بلاد المسلمين، ولكنه فوجىء عندما عرف أنها قد أشهرت إسلامها قناعة منها بأن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى يفرق بين الحق والباطل فى العالم، وأنهم جميعًا ينطلقون من الحدود التى رسمها دينهم.. لا من حدود أنفسهم وشهواتهم، وأنهم إذا سلوا السيف فإن ذلك يكون بقانون، وإذا أغمدوه.. فإن ذلك يكون بقانون أيضًا!.. وقالت: إن المرأة تخاف على عفتها من أبيها أقرب من

أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبى فإنهم جميعًا فى واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامى فى الرجل منهم يكون حاملاً سلاحه يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته..

* * *

كان حديثًا مثيراً للغاية بين أرمانوسة ووصيفتها ماريا، وقد كشف عما كان يراود المقوقس من أفكار حول الدين الجديد، وهى أفكار عبرت عنها ابنته بوضوح وصراحة فى هذا الحديث..

وأضافت أرمانوسة أيضًا.. أنه كان فى رأى والدها أن الدين الإسلامى الجديد سوف ينتشر فى الدنيا لأن له ثلاث عبادات تشد بعضها بعضًا، واحدة للأعضاء والثانية للقلب والثالثة للنفس، فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها على الانضباط، وعبادة القلب طهارته وحبه للخير، وعبادة النفس طهارتها وبذلها فى سبيل الإنسانية..

وقالت أيضًا.. أن فى تصور والدها أن المسلمين سوف يملكون بالعبادة الثالثة الدنيا، لأنه لا يمكن أن تقهر أمة عقيدتها أن الموت فى سبيل الله شهادة..

وأخذت الوصيفة ماريا تستمع إلى أرمانوسة باهتمام شديد، وفجأة قالت لها بحماسة شديدة:

- مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التى كتبوها، وهم لم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الإنسانية فضلاً عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة وهو كما يقولون كان أميًا.. إنها الحقيقة التى تسخر من كبار العلماء والحكماء وأهل السياسة بحيث دعتهم يعملون عبثًا أو كالعبث، ثم استسلمت للرجل الأمى الذى لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم..!

ثم استطردت تقول لها:

- من طبيعة الإنسان أن لا تنبعث نفسه غير مبالية بالحياة أو الموت إلا فى أحوال قليلة تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء كالغضب الأعمى والحب الأعمى والتكبر الأعمى فإذا كانت أمة المسلمين كما قلت ليس فيها الشعور بذاتها العالية فهذا دليل

على أن الدين الجديد هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته، وهذه أعلى درجات الفلسفة والحكمة!..

وابتسمت أرمانوسة ثم أخذت تداعب وصيفتها، وهى تقول لها:

– يبدو أن أفكاراً جديدة قد أخذت تراودك حتى تصبحى مسلمة يا ماريا!..

* * *

ولما وقعت أرمانوسة فى الأسر، وقرر عمرو بن العاص إطلاق سراحها فوراً، وإعادتها إلى أبيها المقوقس مع حاشيتها معززة مكرمة قالت ماريا لها:

– لا يجمل بمن كانت مثلك فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيّذة.. أى المرأة التى تقع أسيرة فى الحرب، ويجرى توجيهها وتحريكها كما يراد بها. وفى رأيى أن تكون المبادرة من جانبك بأن ترسلى إلى عمرو بن العاص من يقول له على لسانك.. أنك راجعة إلى أبيك، وعليك أن تسأليه أن يصحبك بعض رجاله وبذلك تكونى الآمرة حتى فى الأسر، وأن تفعلى ما تصنعه بنات الملوك!..

وأعجب هذا الرأى أرمانوسة فقالت لوصيفتها:

– لن أجد رسولاً يقوم بالمهمة خيراً منك فى لسانك ودهائك، ولذلك اذهبى إليه نيابة عنى وبلغيه رسالتى، وسوف يصحبك الراهب شطا. وخذى معك كوكبة من فرساننا!..

وذهبت ماريا تحمل رسالة أرمانوسة إلى عمرو بن العاص، ثم عادت تنقل إليها تفاصيل ما دار بينها وبينه من حديث..

قال عمرو بن العاص لماريا:

– ماذا تظن ابنة المقوقس بنا؟..

وردت عليه ماريا قائلة:

– ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان كرمه ودينه!..

وابتسم عمرو بن العاص، وهو يقول لها:

– ابلغيها أن نبينا ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة..»..

وقولى لها أيضاً.. بأننا لسنا فى غارة نغيرها، ولكننا فى مهمة لتغيير النفوس!..

ولمعت عينا أرمانوسة ببريق عجيب، وهى تقول لماريا بعد أن استمعت إلى ذلك الحديث:

– صفيه لى يا ماريا..

قالت الوصيفة.. كان آتيا فى جماعة من فرسانه على خيولهم، وكانوا يبدون كشياطين تحمل شياطين من جنس آخر، فلما صار بحيث أصبح قريباً منى، أومأ إليه إلى الترجمان وهو مولاه وراده، فنظرت فإذا هو على فرس كميت أحم.. أى أن لون الفرس خليط بين الأحمر واللون الضارب فى السواد..

ولم تتمالك أرمانوسة نفسها، وبادرت بمقاطعة ماريا، وهى تقول لها:

– ما سألتك وصف جواده..

قالت ماريا: أتريدين معرفة شيء عن سلاحه..

قالت أرمانوسة: مالى وسلاحه.. أريدك أن تصفيه لى.. كيف رأيتيه؟..

قالت ماريا: قصير القامة، ويبدو قويا وصلبا، وهو وافر الهامة علامة عقل وإرادة، وهو أدعج العينين.. أى أن عينيه متسعتان مع اشتداد سوادهما ولمعان بياضهما..

وضحكت أرمانوسة، وهى تقول:

– وماذا أيضاً.. يا ماريا؟..

قالت الوصيفة: إنه داهية كُتب دهاؤه على جبهته العريضة، وكنت كلما حاولت أن أتفرس فى وجهه، أرى صورته التى لا يفسرها إلا تكرار النظر إليه.

وأخذت أرمانوسة تداعب ماريا، وكان أن اتهمتها بالإعجاب بعمرو بن العاص..

ولم تتمالك ماريا نفسها، فقالت بغضب:

– هو والله كما وصفته، وأزيد على ذلك أننى كنت فى كل مرة أحاول فيها أن أملأ عينى منه، كنت أنكر أنه إنسان لقوة شخصيته وهيبته..

وأخذت أرمانوسة تضحك، وهى تقول لماريا:

– من هيبته.. أم من عينيه الدعجاوين!..

* * *

وروى الواقدى.. أن صلاة الظهر وجبت فى منتصف الطريق وقبل أن يصل موكب ابنة المقوقس فى طريق إعادتها إلى أبيها فى حصن بابليون. وكانت قوة من فرسان العرب بقيادة قيس تقوم بحراسة الموكب..

وتوقف الموكب حتى يؤدى الفرسان العرب صلاة الظهر..

وارتعش قلب ماريا بشدة عندما ارتفعت أصوات المصلين بالدعاء.. الله أكبر.. الله أكبر.

وسألت ماريا الراهب شطا: ماذا يقولون؟..

قال.. إنهم يدخلون بهذا الدعاء إلى صلاتهم، وهم يعلنون بهذه الكلمات بأنهم قد أصبحوا فى يد من هو أعظم من الوجود!.

وهم يعلنون بهذه الكلمات أيضًا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت، وبالتالى إنهم ينحون الدنيا أثناء صلواتهم عن النفس ساعة أو بعض ساعة، ولا يعنى ذلك أن يمنعوها عن أنفسهم، ولكنهم يرتفعون عليها!.

ثم استطرد الراهب شطا يقول لها:

- ألا ترين.. كيف أن دعاء الله أكبر قد سحرهم سحرًا، فهم لا يلتفتون فى صلواتهم إلى شىء، وقد شملتهم السكينة وعمهّم الخشوع كأعظم الفلاسفة والحكماء فى تأملاتهم..

قالت ماريا.. ما أجمل ذلك، فقد فشل الفلاسفة والحكماء بما خلفوه من تعاليم وكتب فى أن يفرضوا الاستقرار والهدوء لأهل الدنيا ولو لمدة ساعة فى سكينة الله عليهم، وجاءت الكنيسة البيزنطية بما فيها من زخارف وصور وتماثيل وألوان لتوحى إلى نفوس المصلين ضربًا من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدينى، وبالتالى عملت على نقلهم من جوهم إلى جوها فكانت كساقى الخمر إذا لم يعطك الخمر عجز عن إعطائك النشوة.

واستطردت ماريا تقول.. عندما انتهت الصلاة قام قيس وقد شاهدته عندما اقترب منى فكان يبدو كمسافر قد رجع، وكنت فى تلك اللحظة مازلت فى أحلام قلبى، وقد أخذ العالم يتلاشى أمام عينى إلا عما سمعته عن عمرو بن العاص، وما

عرفته عن الدين الجديد . وكما يقول الراوى . . فى الحياة أحوال ثلاثة يغيب فيها الكون بحقائقه، وهى أن يغيب عن السكران وعن المخبول، وأيضًا عن النائم، وتوجد حالة رابعة، وهى عندما يتلاشى الكون عن حقيقة واحدة تتمثل فى إنسان محبوب . .

وكما يقول بعض الرواة . . ترددت روايات تقول . . إن ماريا أحبت عمرو بن العاص، ولكنه كان حبًا من طرف واحد ! . .

ومما يروونه . . أنها التفتت ناحية الراهب شطا ثم قالت له :

ـ اسأل «قيسًا» عما يهدفون إليه من هذه الحرب، وهل من سياستهم أن يكون القائد الذى يفتح بلدًا حاكمًا على هذه البلد ؟ .

ورد قيس على هذا السؤال بقوله :

ـ حسبك أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً يعمل فى إعلاء كلمة الله . . أما حظ نفسه فهو فى غير هذه الدنيا . .

وحاولت ماريا أن تعرف تفاصيل أخرى عن حياة عمرو بن العاص . .

وكما قالوا . . أخذت تفتش عن هذه التفاصيل عند أقرب الناس إليه .

وأصبح واضحًا . . أن صورته ظلت تملأ خيالها، ولم يعد لها تفكير إلا فيه . .

* * *

وهكذا أحبت ماريا عمرو بن العاص، وكان حبًا مكتومًا فى نفسها وحدها وبمعنى آخر . . لم يكن من ناحيته يعرف شيئًا عن المعجبة التى ظلت تتابع أخباره . .

وفى الاسكندرية أخذت العاشقة الولهانة تذوى وشحب لونها، وبدأت تبدو نظراتها التائهة . .

وظهر على ماريا أثر الروح الظمأى، وقد أحاطها اليأس بجوه الذى يحرق الدم، وبدت مجروحة المعانى، إذ كان يتقاتل فى نفسها الشعور بأنها عاشقة، وشعورها فى نفس الوقت بأنها يائسة . .

ورقت أرمانوسة لحالها، وكانت هى نفسها قد تعلقت بحب فتى رومانى . .

وراودت ماريا فكرة كتابة رسالة إلى عمرو تبثه فيها حبها له، ولكن فجأة جاءت الأخبار تقول إنه قد اتجه على رأس قواته إلى الاسكندرية لحصار الرومان فيها . .

وشاعت الأخبار أنه أمر بالإبقاء على فسطاطه، وهو الخيمة التى كان يتخذها مركزاً لقيادته عندما شاهد يمامة قد باضت فى أعلاها .

وأنه قال : قد احتمت بجوارنا . ولذلك اتركوا الفسطاط حتى تطير فراخها .

ولم يمض وقت طويل حتى قضت ماريا نحبها، وبقيت أرمانوسة تحفظ سرها . .

وتركت ماريا وراءها قصيدة ظلت أرمانوسة ترددها، وقد أطلقت عليها اسم : نشيد اليمامة .

وتقول ترجمة هذه القصيدة الشعرية :

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضن بَيْضَها .
تركها الأميرُ تَصنع الحياة، وذهب هو يَصنع الموت !
هى كأسعد امرأة، تَرَى وتلمس أحلامَها .
إن سعادةَ المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض .
على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها .
لو سئلَتْ عن هذا البيض لقالتْ : هذا كَنْزى .
هى كأهنأ امرأة، مَلَكَتْ مِلْكها من الحياة ولم تفتقر .
هل أكلف الوجودَ شيئًا كثيراً إذا كلَّفْته رجلاً واحداً أحبه !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .
الشمس والقمر والنجوم، كلها أصغر فى عينها من هذا البيض .
هى كأرقَ امرأة، عرفت الرِّقَّةَ مرتين : فى الحبّ، والولادة .
هل أكلف الوجود شيئًا كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة !
على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها .
تقول اليمامة : إن الوجودَ يحب أن يرى بلونين فى عين الأنثى،
مرةً حبيبًا كبيراً فى رَجلها، ومرة حبيبًا صغيراً فى وَلَدها .

كل شيء خاضعٌ لقانونه، والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها.

* * *

أيتها اليمامة، لم تعرفى الأميرَ وتركَ لكِ فسطاطَه!
هكذا الحظّ: عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحية أخرى.
احمدى الله أيتها اليمامة، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان،
عندكم فقط: الحب والطبيعة والحياة.

* * *

على فساط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها،
يمامةٌ سعيدة، ستكون فى التاريخ كهدْهد سليمان،
نسبَ الهدهد إلى سليمان، وستُنسب اليمامة إلى عمرو.
واهًا لكَ يا عَمرو! ما ضَر لو عرفْتَ (اليمامة الأخرى)...!

* * *

وتسأل عما يعنيه اسم مدينة بلبيس التى شهدت النصر الثانى من الله لجند المسلمين ضد قوات الرومان.

وهنا نسمع **محمد عاشور** وهو مواطن مصرى قام بنشر دراسة تاريخية عن أصل اسم المدينة فى كتاب اسمه :«بلبيس بلد الأنبياء والرسل» يقول:

إن اسم بلبيس يعنى عبادة القط..

ويقول أيضا فى تفسيره لاسم المدينة:

- إن كلمة بلبيس تتكون أصلا من مقطعين أو كلمتين بعل.. وبس. وتعنى.. الإله أو السيد.. وكان بعل اسم يطلق على إله الزراعة والمطر فى بعض البلاد المجاورة كالعراق قديما، وكان نفس الكلمة تضاف إلى بعض الأسماء للتشريف والتعظيم كما يقول المسلمون عبد الرحمن.. أو عبد الله مثلا.

وكانت كلمة بس، وهى المقطع الثانى يعنى معبود لإله آخر.. وكانوا أحيانا يضيفون كلمة بعل إلى اسم مدينة أو مكان مثل بعل بك أو بعلبك فى شمال لبنان، ومعناها وادى الرب، أو بيت الرب.

ويقول الباحث صاحب هذه الدراسة أيضا:

– إن حرف العين يعتبر من الحروف التى يصعب نطقها، ولذلك اختصرت كلمة بعل لتصبح بل..

أما لفظ بيس فهو اسم أحد الآلهة عند الفراعنة، وهو إله الفرح والسرور الذى تظهر صورته فى بعض النقوش فى المقابر الفرعونية على شكل رأس قط لابسا فوق رأسه تاجا من الريش النادر..

ويقول رأى آخر.. أن موطن الإله بيس.. أو بس هو السودان، وأنه جاء إلى مصر ليصبح واحدا من الآلهة المصرية، وقد استوطن شرق الدلتا فى المنطقة حول مدينة بلبيس.! وكان المصريون القدماء يطلقون على هذا الإله الذى كان يتميز بالريش الذى كان يضعه فوق رأسه اسم إله الحب والموسيقى والجمال!

ويقول الدكتور حسن بكير فى كتاب عن قواعد اللغة المصرية القديمة فى عصرها الذهبى، إن بر أو بير لفظتان فى اللغة الهيروغليفية تعنيان البيت أو الدار، وأن إضافة إحداهما إلى كلمة ما يدل على بيت أو دار.

واستنادا إلى هذا الرأى يقول بعض الباحثين أن كلمة بلبيس قد يرجع أصلها إلى بريس.. أو بيربس بدلا من بلبيس!

وبمعنى آخر أن مدينة بلبيس كانت تسمى بيربس أى مكان أو بيت عبادة الآلهة بس.. أى القط!

* * *

ويقول محمد عاشور فى دراسته التاريخية أن مدينة بلبيس كانت إحدى المدن التابعة للاقليم السابع عشر من مقاطعات مصر السفلى.

وكانت هذه المدينة تقدس الإله «رع».. وكان يطلق على الاقليم كله اسم: «أم حنت» وهو الاسم الذى اشتهرت به البلدة التى تعرف الآن باسم «تل بسطة»!

ولا أعرف.. لماذا يحاول.. بعض المؤرخين، وأيضا الباحثين فى التاريخ الإسلامى القديم التركيز على أن المسجد الجامع الذى قام عمرو بن العاص بانشائه فى مدينة الفسطاط بعد فتح الإسكندرية، وهو المسجد الذى أصبح معروفا الآن باسم مسجد

عمرو بن العاص يعتبر أول مسجد بنى فى مصر، وفى إفريقيا كلها، بينما توجد مساجد أخرى أنشئت مع دخول الإسلام مصر وقبل بناء المسجد الجامع فى مدينة الفسطاط.

وأضرب مثلا بمسجد السلام الذى أقيم فى العريش مع بداية زحف قوات المسلمين لفتح مصر..

وفى رأيى أن هذا المسجد يعتبر من الناحية التاريخية أول مسجد شهدته أرض مصر..

والثابت تاريخيا أنه قد تم إنشاء مسجد آخر فى مدينة بلبيس أثناء حصار القوات الإسلامية للمدينة، وقبل أن يجرى أى تفكير لإنشاء المسجد الجامع فى مدينة الفسطاط، ويعرف هذا المسجد باسم مسجد « سادات قريش » وهو ما يزال قائما فى المكان نفسه الذى أقيم فيه منذ حوالى ١٤٠٠ سنة هجرية وقد أصبح موقعه مع التوسع فى رقعة المدينة يطل على الشارع الرئيسى فيها، وهو الشارع المعروف الآن باسم شارع بورسعيد.

ويتبارك أهل بلبيس بهذا المسجد، وأصبح المسجد الذى تجرى فيه شعائر الاحتفالات الدينية.

ويذكر أهالى مدينة بلبيس أن الرئيس حسنى مبارك كان يتردد على هذا المسجد للصلاة فيه عندما كان قائدا للقاعدة الجوية فى منطقة بلبيس!

وكان الراحل الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، وهو من شيوخ الجامع الأزهر السابقين من رواد هذا المسجد، وكانت عادته التردد عليه للصلاة فيه، وكان فى رأيه الذى كثيرا ما كان يجاهر به.. أن مدينة بلبيس التى أقيم فيها هذا المسجد المبارك فوق بقعة الأرض التى استشهد فيها عدد من الصحابة يجب أن تكون عاصمة لمحافظة الشرقية بدلا من مدينة الزقازيق.

والمعروف عن الراحل الدكتور عبد الحليم محمود أنه من أبناء محافظة الشرقية فهو من مواليد قرية كانت معروفة باسم « تل اليهودية » وقد تغير اسم القرية بعد أن أصبح شيخا للأزهر الشريف ليصبح اسمها قرية السلام!

* * *

وتذهب إلى مدينة بلبيس لتسمع أن مساحة أرض مسجد «سادات قريش» كانت تقدر بحوالى ١٦٠٠ متر مربع، بينما لا تتعدى مساحتها الآن ٦٠٠ متر مربع.

وتقول.. أين ذهبت بقية مساحة أرض المسجد الذى يعتبر ثانى مسجد شهدته أرض مصر؟ وهنا تسمع من يقول:

- اغتصبها الأهالى.. وهيئة الآثار أيضا.!.

وتقول: كيف حدث ذلك؟

والجواب أن الدكتورة سعاد ماهر كانت قد اقترحت فى عام ١٩٦٩ هدم مئذنة المسجد وإعادة بنائها على الطراز الإسلامى، وقد تم فعلا هدم المئذنة التى يشاهد بعض أجزاء منها مُلْقَىً على الأرض إلى جوار المسجد.

وكان الإخصائيون، قد قاموا بترقيم الأحجار حتى يتسنى إعادة تركيبها من جديد، ثم مرت السنوات دون أن يعاد بناء المئذنة التى تناثرت أحجارها إلى جوار المسجد التاريخى، ولم يعمل أحد على إعادة بنائها حتى الآن!

ومما يرددونه أن المرحوم الشيخ مصطفى النجار، وكان قد عين إماما للمسجد فى عام ١٩٧٣ كتب على إثر تعيينه إلى وزارة الأوقاف وإلى هيئة الآثار يطلب إعادة بناء المئذنة والاستعانة بالخرائط المساحية للمسجد حتى يتسنى تحديد مساحة أرضه بالضبط، وقد ظل الرجل يبعث بالرسائل والمذكرات إلى وزارة الأوقاف وإلى المسئولين فى هيئة الآثار لمدة ٣٠ سنة كاملة دون أن يستجيب أحد إليه إلى أن توفاه الله رحمة الله عليه.

ويبتسم الشيخ سعيد على محمد إسماعيل شيخ المسجد الحالى الذى تولى مسئولية المسجد بعد وفاة الشيخ السابق، وهو يقول:

- إن سعر المتر المربع من الأرض فى المنطقة حول المسجد لا يقل عن عشرة آلاف جنيه، وللأسف الشديد أنهم يبيعون أرض المسجد المغتصبة، ولا أحد من المسئولين يتحرك!

ولعلها نكتة عندما تسمع أن هيئة الآثار قامت بتعيين حارسين فى عام ١٩٦٩ لحراسة أحجار مئذنة المسجد، والأرض التى سرقت بالفعل، ولا أحد يعرف.. لماذا تبقى هيئة الآثار على هذين الحارسين حتى الآن!

وأشار الطبرى وابن الأثير – وهما من المؤرخين العرب القدامى – إلى هذا المسجد بقولهما: إن القبائل العربية التى استقرت فى بلبيس، ولم تواصل زحفها مع القوات الإسلامية لحصار حصن بابليون، قامت بإنشاء هذا المسجد فى نفس المكان الذى استشهد فيه عدد كبير من المجاهدين من المهاجرين والأنصار أثناء المعارك التى دارت فى المنطقة حول منطقة بلبيس، وأنها هى التى أطلقت عليه اسم «سادات قريش».. ومما يروونه أن عددا لا يقل عن ١٠٠ صحابى، وبعضهم ينتمى إلى عدد من قبائل جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قد وفدوا إلى مصر مع قوات عمرو بن العاص للمشاركة فى عملية فتح مصر، قد استشهدوا فى المعارك الحامية التى دارت حول مدينة بلبيس.

ويقول ابن يونس، وهو مؤرخ قديم إن الصحابى برناد بن الأسود بن شمس القضاعى قد قتل فى بلبيس.

ومن هؤلاء الشهداء أيضا واحد من الصحابة كان اسمه اغامة الرومانى، وقد قتل فى المعارك حول مدينة بلبيس هو ومولاه خارجة بن عراك!

ويقول ابن ربيع من المؤرخين القدامى أيضا.. إن أبا فاطمة الأشعرى من الصحابة الذين شاركوا فى فتح مصر استشهد فى بلبيس.

ومما يروونه أن أميرة كويتية أرادت أن تبنى مسجدا فى مصر، وبعد أن أمضت عدة أشهر فى الدراسة والبحث وقع اختيارها على مدينة بلبيس لكى تبنى المسجد على أرضها.. قالت إن بلبيس مدينة لها قيمتها التاريخية وأن أرضها رويت بدماء عدد كبير من الصحابة الذين استشهدوا فى المعارك التى دارت بين القوات الإسلامية تحت قيادة عمرو بن العاص وقوات الرومان مما جعلها أرضا مباركة.. ولم تنتظر الأميرة الكويتية وقامت ببناء مسجد ضخم على طريق الشهيد عبد المنعم رياض، وقد اشتهر هذا المسجد باسم: «مسجد الكويتية».

إنه أحدث مسجد بنى فى أيامنا وبقى أن تهتم هيئة الآثار بترميم أقدم مسجد عرفته مصر قبل مسجد عمرو بن العاص.. وللدقة.. ثانى مسجد لأن الأول ما زال قائما حتى الآن فى العريش..!

* * *

المهم تحركت قوات عمرو بن العاص فى طريقها إلى حصن بابليون وكان هذا الحصن الذى كان العرب يطلقون عليه اسم حصن «باب أليون» يطل على النيل من الناحية المعروفة الآن باسم مصر القديمة، وكانت تحصينات الحصن قوية ويعتبرونها من أقوى حصون الرومان فى مصر.

وكانت جزيرة الروضة تقع فى النيل فى منتصف الطريق بين حصن بابليون ومنطقة الجيزة على الشاطئ الآخر للنيل، وقد انطلق اسم هذه المنطقة من معنى الاجتياز، أو جواز المرور إلى الشاطئ الآخر للنيل.

وكانت خريطة مجرى النيل فى المنطقة تختلف كثيرا عنها فى الوقت الحاضر فقد كان مجرى النيل يتسع ليغطى مساحات كبيرة من الأراضى التى تتكون منها مدينة القاهرة الآن بحيث كانت شواطئه تمتد حتى المنطقة المعروفة الآن باسم الأزبكية التى كانت تطل مباشرة على شاطئ النيل، وبالتالى لم تكن منطقة ماسبيرو أو حى بولاق وشارع ٢٦ يوليو موجودة، فقد كانت أراضيها مطمورة تحت مياه النيل، وكانت تقع على مسافة ليست بعيدة من منطقة الأزبكية بلدة كان الرومان يطلقون عليها اسم قرية «تندونياس» وقد اشتهرت أيام العرب باسم «أم دنين»، وكان يمتد أمام هذه القرية على النيل ميناء نهرى تحتشد أمامه السفن النيلية التى كانت الوسيلة للتنقل فى النيل.

ويقول المؤرخون القدامى.. إن قوات عمرو بن العاص تحركت فى محاذاة الصحراء حتى وصلت فى مسيرتها، وهى قادمة من بلبيس إلى مدينة هليوبوليس، ثم هبطت فى اتجاه قرية «أم دينين» على شاطئ النيل، وكانت فى الشمال من حصن بابليون.

وكان الرومان قد قاموا بتحصين هذه القرية، ولهذا كان فى وسع القوات الرومانية المحاصرة داخل الحصن أن تخرج منه فى أى وقت لمهاجمة قوات المسلمين ثم العودة عندما تشاء لتختفى وراء أسوار حصن «بابليون».

ووقعت مناوشات بين قوات الرومان وجيش عمرو بن العاص لمدة عدة أسابيع أدرك عمرو من خلالها أنه لن يستطيع بما تبقى معه من قوات، اقتحام حصن بابليون أو أن يقوم بمحاصرته فى مواجهة قوات الرومان التى كانت تحتمى بداخله.

وكان طبيعيا أن يرسل عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان فى المدينة المنورة يستحثه على إرسال الإمدادات التى كان قد وعده بها.

* * *

وكان على عمرو بن العاص فى نفس الوقت أن يتحرك مع قواته حتى لا تصاب بالكسل، وحتى يوفر لها الحماية من الأخطار التى كان من الممكن أن تهددها إذا ما بقيت فى المنطقة حول حصن بابليون ولذلك قام بعبور النيل على رأس قواته فى أواخر شهر مايو سنة ٦٤٠ ميلادية من ناحية قرية أم دينين واتجه بها ناحية الجنوب أى اتجاه إقليم الفيوم.

وفى البداية أخذت قوات المسلمين تسير بمحاذاة المزارع حتى وصلت إلى مدينة منفيس، وهى نفسها مدينة منف التى كانت عاصمة الدولة الفرعونية القديمة، وكان يطلق عليها مجازا اسم مصر، وقد تضاءل شأن هذه المدينة بعد إنشاء مدينة الإسكندرية فى أيام الأسكندر المقدونى.

وكانت أطلال مدينة ممفيس ما تزال قائة عندما وصلت إليها قوات المسلمين كما كان الكثير من مساكنها ما تزال آهلة بالسكان!.

وشاهدت قوات المسلمين، وهى فى طريقها إلى الفيوم قلاع وأسوار حصن بابليون وهى تطل على نهر النيل من وراء جزيرة الروضة، كما شاهدت على يمينها أهرامات الجيزة وأبو الهول.

وكان حاكم الفيوم أو مدينة «بيوم» كما كانوا يطلقون عليها اسمه «رومنتياس» أما حاكم اقليم الفيوم فكان اسمه «تيودوسيوس»، وكان الاثنان فى زيارة وبصحبتهما «انستاسيوس» حاكم مدينة الأسكندرية لإحدى مدن مصر العليا فى أقصى الصعيد.

وكان يتولى مسئولية الدفاع عن الاقليم كله قائد كتيبة رومانية اسمه حنا.

وواصلت قوات عمرو بن العاص تحركها حتى وصلت إلى مدينة البهنسا التى تطل على بحر يوسف، لتقع بينها وبين القوات الرومانية معارك حامية قتل فيها عدد كبير من جنود الرومان، كما سقط فيها عدد من شهداء المسلمين.

ونجحت القوات الإسلامية فى اقتحام مدينة البهنسا بعد قتال عنيف عنوة!

وتردد أن عدداً كبيراً من الأطفال والنساء من سكان المدينة قد تعرضوا للقتل فى واحدة كما يقول بعض المؤرخين الأجانب من أبشع مجازر التاريخ.

وقالوا أيضا.. إن قلة عدد الفرسان الذين كانوا يعملون تحت قيادة عمرو بن

العاص، لم تكن تسمح لهم بتجميع الأسرى والتحفظ عليهم، ولذلك كثيرا ما كانوا يدفعونهم أمامهم حتى لا يضطرون للإمساك بهم والتعامل معهم كأسرى أو سبايا حرب!

المهم.. استمرت القوات الإسلامية فى مواصلة تقدمها فى اتجاه مدينة الفيوم. وعرف عمرو بن العاص فى تلك الأثناء أن المسئول عن الدفاع عن إقليم الفيوم، وهو الذى اشتهر باسم حنا يتحرك على رأس قوة مكونة من خمسين فارسا وراء قواته لرصد حركتها ومتابعة خط سيرها وأنه قد استغاث بالقوات الرومانية فى حصن بابليون لنجدته.

ولم ينتظر عمرو بن العاص وبادر بوقف تحرك قواته فجأة ثم باغت الرجل بهجوم اضطره للهرب محاولا الانضمام إلى معسكر قواته الرئيسية فى الفيوم.

وجاء أحد الشيوخ إلى عمرو بن العاص يقول له.. إن حنا يكمن أثناء النهار مختفيا تحت أشجار النخيل، وأنه يتحرك مع فرسانه أثناء الليل.

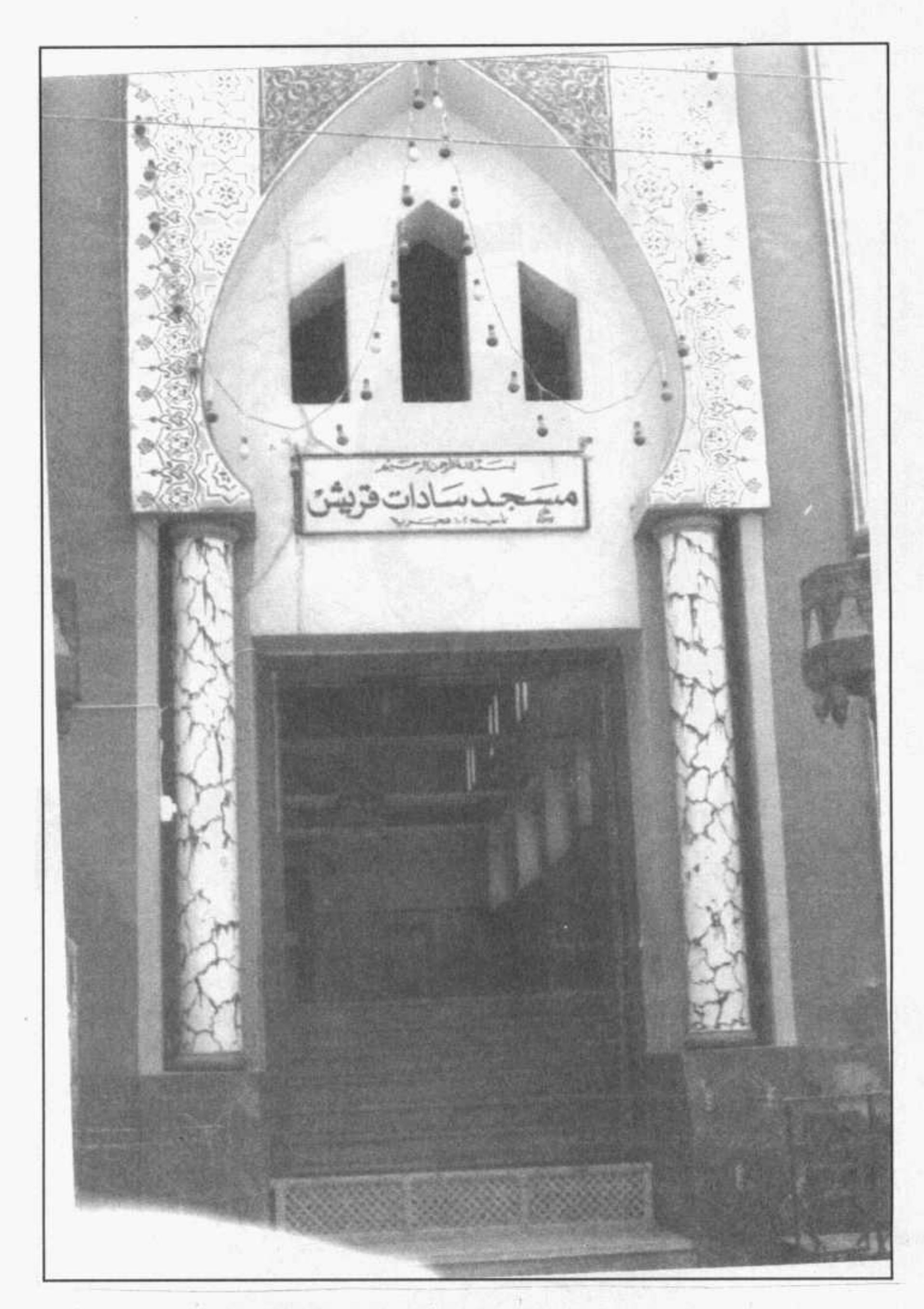
ومرة أخرى قام عمرو بن العاص بمهاجمة الرجل مع جنوده فى أحد الأماكن التى كان مختبئا فيها.

وكانت معركة سريعة قتل فيها حنا قائد الكتيبة وقتل مساعده، كما أبيد كل الجنود الذين كانوا يرافقونه فى عملية التجسس على تحركات القوات الإسلامية.

وواصل عمرو بن العاص بعد هذه المعركة السريعة مسيرته فى اتجاه مدينة الفيوم.

وفى رأى بعض المؤرخين العرب أن عمرو بن العاص كان يزمع الاستقرار فى مدينة الفيوم، وأن يتحصن فيها حتى تصل إليه الامدادات التى وعده أمير المؤمنين بارسالها إليه.. ولكنه فجأة قرر تغيير خط سيره.. والعودة على رأس قواته فى اتجاه الشمال.

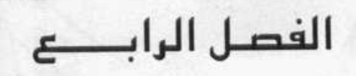
وعرف أنه تلقى أنباء تقول إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد استجاب لطلبه فبعث إليه بالامدادات التى كان قد وعده بها، وأن هذه الإمدادات قد وصلت بالفعل فى أفواج متلاحقة إلى ناحية هليوبوليس، وأن على رأسها عددا من الصحابة. ■



مسجد «سادات قريش» في مدينة بلبيس.. أنه ثاني مسجد أقيم في مصر بعد دخول الإسلام فى نفس المنطقة التى استشهد فيها عدد من الصحابة فى معركة بلبيس الذي اندحرت فيها قوات الرومان.. وكانت بداية زاوية ثم أصبح مسجداً..



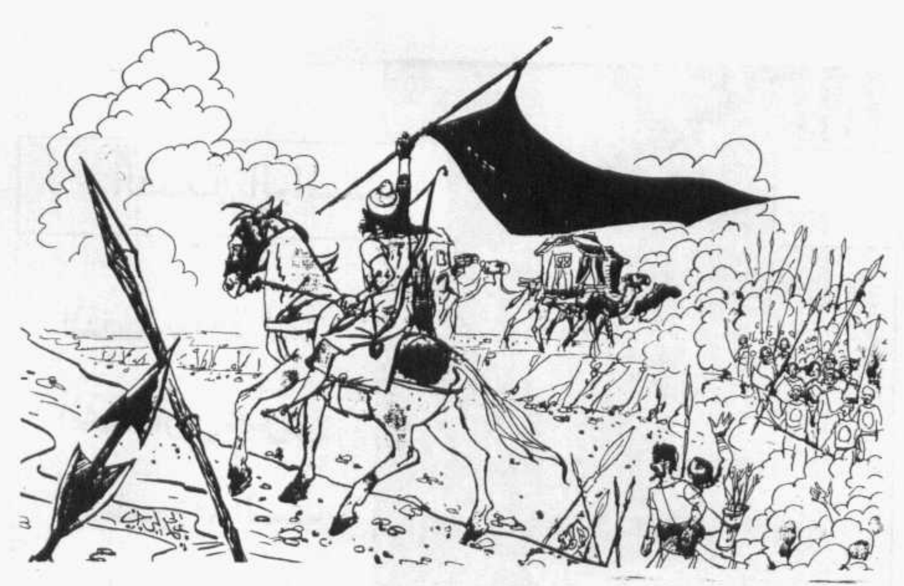
وكانت معركة سريعة قتل فيها حنا قائد الكتيبة وقتل مساعده..
كما أبيد كل الجنود الرومان الذين كانوا تحت قيادته..



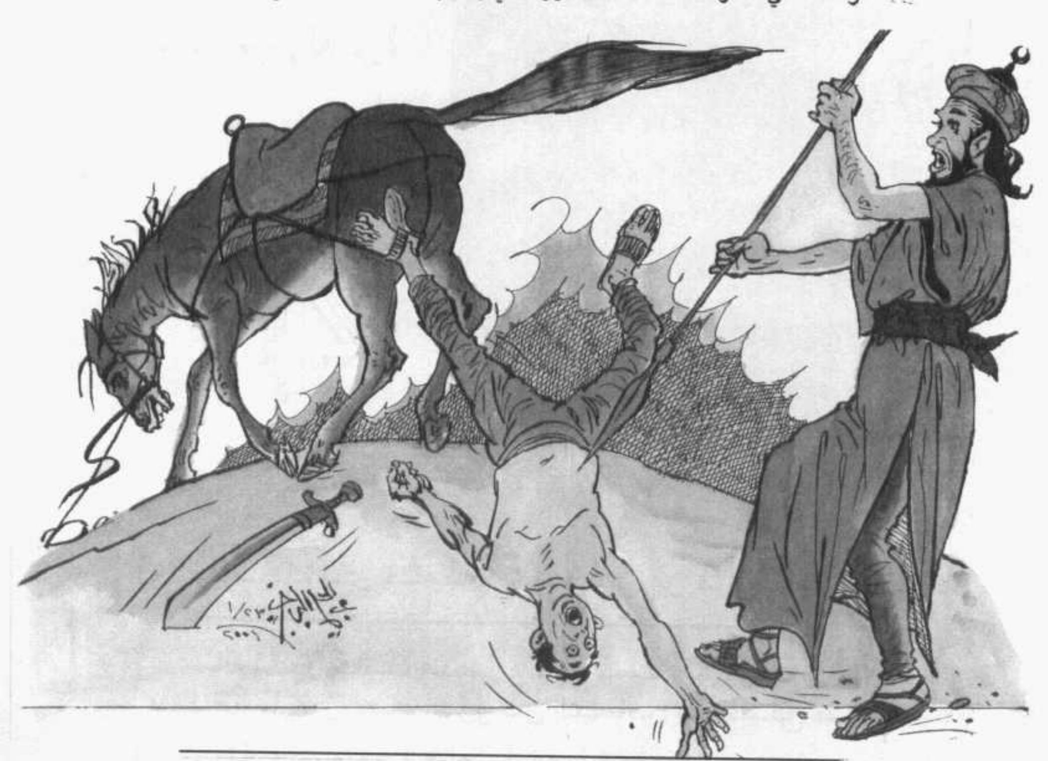
انتصار ساحق لـ ٢٠ ألف فارس عربى على ٨٠ ألف مقاتل رومانى فى هليوبوليس!



- كلوت بك الذى جاء به محمد على من فرنسا يتهم أقباط مصر بخيانة كنيسة روما..؟
- ماذا يقول كاتب قبطى وآخر مسلم عن مساندة الأقباط المصريين لعمرو بن العاص فى فتح مصر؟
- خطة عمرو بن العاص أوقعت قوات الرومان فى كمين في المنطقة التى تعرف الآن باسم العباسية!



وكان نصراً من الله لقوات المسلمين علي قوات الرومان في معركة هليوبوليس
وسقط في المعركة ١٠٠٠ قتيل روماني وهرب قائد الرومان إلي الإسكندرية



وارتفعت صرخات قوات الرومان تحت وطأة ضربات فرسان المسلمين
وكانت هذه المعركة هي التي فتحت طريق النصر لقوات المسلمين

أرسل عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستغيث، ويطلب إليه أن يبعث إليه بالإمدادات التى كان قد وعد بإرسالها إليه.

واستجاب أمير المؤمنين للاستغاثة، وبادر بإرسال هذه الإمدادات وعلى رأسها عدد من الصحابة.

وقال أمير المؤمنين فى رسالة بعث بها إلى عمرو بن العاص إن كل واحد من هؤلاء الصحابة فى قوة ١٠٠٠ رجل.

وكان عمرو بن العاص يشق طريقه على رأس قواته جنوبا لاستكمال فتح إقليم الفيوم عندما أخذت الأنباء تتلاحق عليه لتبشره بوصول إمدادات الخليفة، وتقول له.. إن أول هذه الإمدادات قد وصل إلى ناحية هليوبوليس فى يوم ٦ يونيو سنة ٦٤٠ ميلادية، وكانت عبارة عن قوة تتكون من أربعة آلاف مقاتل.

ووصلت على أثرها إمدادات أخرى على دفعتين كل منهما كانت تتكون من أربعة آلاف مقاتل آخرين.

وقالت الأنباء إن أمير - أى قائد هذه الإمدادات - هو الزبير بن العوام وهو من الصحابة وأنه اصطحب معه المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد.. من الصحابة أيضا!

ولم ينتظر عمرو بن العاص وبادر بالتوقف عن مسيرته، ثم تحرك على رأس قواته ناحية الشمال، فقد كان يخشى أن تعمل قوات الرومان فى حصن بابليون على قطع الطريق على قواته حتى لا تتمكن من الاتصال بالإمدادات التى وصلت إلى ناحية هليوبوليس.

وكانت تعليمات أمير المؤمنين إلى أمير هذه الإمدادات بأن يضع نفسه وقواته تحت تصرف عمرو بن العاص.

وكانت مدينة هليوبوليس واحدة من مدن مصر الكبرى، وقد اشتهرت فى الأزمنة القديمة - أى فى أيام الفراعنة - باسم «أتوم» كما كان يطلق عليها أيضا اسم مدينة «رع» أى مدينة الشمس.

وكان لها اسم آخر باللغة العبرية هو «أون». وكانت هذه المدينة تقع على مسافة

عدة كيلو مترات في الشمال من حصن بابليون، وكان مكانها بالضبط هو الذى يعرف الآن باسم « تل الحصن » فى الناحية المعروفة باسم « المطرية » فى شمال القاهرة، وقد جاء اسم مدينة « أون » فى قصص موسى.

وأطلق الرومان على المدينة اسم « هليوبوليس » أى مدينة الشمس، ولما جاء العرب احتفظوا بهذا الاسم للمدينة، وعرفوها باسم مدينة «عين شمس».

* * *

والثابت كما يقول بعض المؤرخين العرب أن عمرو بن العاص قام بعبور النيل على رأس قواته فى منطقة تقع فى الجنوب من قرية « أم دينين » وأنه اتجه بعدها بسرعة إلى منطقة هليوبوليس حيث كان اللقاء بينه وبين القوات الجديدة التى بعث بها أمير المؤمنين إليه.

وكان فى وسع المدينة التى اتخذ منها عمرو بن العاص مركزا لقيادته أن تدافع عن نفسها، فقد كان يحيط بها سور سميك الجدران، وكانت بها مياه وفيرة، وتحيط بها المزارع التى استخدمت فى توفير الاحتياجات الغذائية للقوات الإسلامية.

وأخذ عمرو بن العاص فى تجهيز قواته استعدادا لما كان يتوقعه من معارك وقتال.

وفى الجانب الآخر.. كان تيودور قائد قوات الرومان فى حصن بابليون قد تصور أن الإمدادات التى وصلت لدعم القوات الإسلامية هى أول المدد، وأن طلائع أخرى من قوات المسلمين سوف تلحق بها.. وبالتالى فإن عدد هذه القوات الإسلامية لن يلبث أن يتزايد وأن يتضاعف، وكان أن قرر أن يوجه ضربة للقوات الإسلامية قبل أن تستكمل استعداداتها لمحاربته.

وقدر بعض المؤرخين قوة القوات الإسلامية بعد وصول الإمدادات إليها بحوالى ٢٠ ألف مقاتل، وهو عدد يعتبر ضئيلا بمقارنته بقوات الرومان التى كان فى وسع قائدها أن يحشدها، وكانوا يقدرونها بحوالى ٨٠ ألف محارب!

ووقع تيودور فى أكبر خطأ عندما خرج على رأس قواته من حصن بابليون الذى كان يحتمى به ليشتبك فى معركة مع قوات المسلمين عند هليوبوليس.

وكانت خطة عمرو بن العاص أن يستدرج قوات الرومان للخروج من حصن بابليون لمقاتلته فى السهل الذى يمتد أمام المدينة. ويصف هؤلاء المؤرخون المعركة بقولهم:

- تحرك تيودور على رأس جيوشه نحو هليوبوليس، وكانت على مسافة ستة أو سبعة أميال من معسكر العرب، وكان حاكما الفيوم والأسكندرية من بين قواده، بينما كان غالبية جنوده من الرماه، وكان بعضهم يحمل الرماح.

وتحرك عمرو بن العاص بسرعة لمواجهة قوات الرومان، وكان قد وجه أثناء الليل كتيبتين إحداهما إلى منطقة «أم دنين» والأخرى وكانت تحت قيادة خارجة بن حذاقة إلى مكان فى ناحية الشرق يقال إنه عند نهاية الجبل الذى تقع عنده قلعة القاهرة الآن.

وهكذا تحركت قوات الرومان لمواجهة قوات المسلمين، وهى لا تدرى أنها تسير بين كمينين من القوات العربية.

وكانت تعليمات عمرو أن يهبط فرسان الكتيبتين على جانبى قوات الرومان ومؤخرته عندما تسنح لهما الفرصة.

ويصف المرحوم الكاتب الصحفى محمد صبيح فى كتاب كان قد نشره عن عمرو بن العاص فى سلسلة «كتاب الشهر» الذى كان يصدرها فى الأربعينيات من القرن الماضى تفاصيل المعركة التى دارت بين قوات الرومان والمسلمين فى تلك الأيام قائلا:

- خرجت قوات الرومان فى الصباح الباكر من بين البساتين والأديرة التى كانت فى الشمال الشرقى من حصن بابليون ثم انتشرت فى السهول، ولم يكن عندها أى علم بمكيدة عمرو بن العاص الذى كانوا يشاهدونه وهو يسير راكبا حصانه على رأس قواته متجها ناحيتهم من منطقة هليوبوليس.

ثم كانت المعركة، والاعتقاد السائد أنها دارت فى المنطقة التى تعرف الآن باسم العباسية فى شمال القاهرة.

واشتد القتال بين الجانبين وفجأة نزلت كتيبة خارجة بن حذاقة من فوق الجبل، وكانت كالعاصفة وهى تجتاح مؤخرة جيش الرومان ولما رأى تيودور أن قواته قد أخذت مباغتة، حاول أن يتجه يساراً بما تبقى من قواته ناحية «أم دنين» ليجد فى مواجهته قوات الكتيبة الثانية مما جعل قواته تصاب بالزعر والفزع اعتقادا منها بأنها تواجه جيشا عربيا ثالثا.

وتكررت المعجزة الإلهية التى ما تزال تثير دهشة كل الباحثين الذين تابعوا عملية فتح مصر حتى الآن، فقد انتصرت قوات المسلمين التى كان عددها محدودا للغاية بالنسبة لقوات الرومان التى كانت مدربة على فنون القتال، وكان عددها يفوق عدد قوات المسلمين أكثر من أربع مرات!

وانتهت المعركة بقتل عشرات الألوف من الجنود الرومانيين، كما غرق الكثيرون منهم فى النيل بينما هرب الذين افلتوا بجلدهم من الموت ليحتموا بحصن بابليون من جديد. وكان نصرا جديدا من الله لقوات المسلمين.

* * *

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول: وقعت معركة هليوبوليس.. أو معركة «عين شمس» كما كان يحلو لبعض المؤرخين العرب أن يطلقوا عليها فى شهر يوليو سنة ٦٤٠ ميلادية، وكان نهر النيل قد بدأ فيضانه لتتحول دلتا النيل - أى منطقة الوجه البحرى - إلى ما يشبه البحيرة التى تستحيل فيها عمليات القتال.

وقام عمرو بن العاص بعد انتصار قواته على قوات الرومان باحتلال قرية «تندونياس» التى أطلق عليها العرب اسم «أم دينين» وكانت تطل على النيل، وتقع فى المنطقة التى يطلق عليها اسم حى الأزبكية فى القاهرة الآن.

وكانت مياه النيل تغطى على مدار السنة الأرض أمامها، وكان يقع فى جنوبها ميناء نهرى يطل على النيل.

واتخذ عمرو بن العاص من هذه القرية قاعدة تتحرك منها قواته إلى مختلف أنحاء البلاد.

وفى نفس الوقت قامت القوات الإسلامية بفرض حصارها على حصن بابليون.

وكان المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط كما كانوا يطلقون عليه قد احتمى هو وزعماء الرومان داخل الحصن.

واستمر هذا الحصار تسعة أشهر قبل أن يعقد المقوقس اتفاقا للصلح مع قوات المسلمين، وكان يقضى بانسحاب قوات الرومان من حصن بابليون واستيلاء القوات الإسلامية عليه بلا قتال.

وحاول بعض المؤرخين الأوروبيين وعلى رأسهم الدكتور الفريد بتلر إثارة علامات

استفهام كثيرة حول موقف المقوقس حاكم مصر أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبين عمرو بن العاص لعقد اتفاقية الصلح مع قوات المسلمين فهو يقول صراحة فى كتابه الوثائقى : « فتح العرب لمصر » . . أن آراء وأفكار المقوقس تغيرت كثيرا منذ أن عرف بوصول القوات الإسلامية إلى العريش وأنه فى الكثير من أحاديثه كان يردد . . إن العرب الذين حققوا انتصاراتهم الكاسحة على الفرس والرومان فى سوريا وفى فلسطين وفى بلاد ما بين النهرين لن يفشلوا فى فتح مصر .

وفى نفس الوقت كان فى رأى بعض المؤرخين العرب القدامى أن مشاعر المقوقس قد اهتزت بعنف عندما وقعت ابنته « أرمنوسة » فى أسر قوات المسلمين فى مدينة بلبيس، وقام عمرو بن العاص بإعادتها إليه معززة مكرمة، بحيث أصبح شديد الرغبة فى التصالح مع العرب ! .

* * *

والشىء المؤكد أن قوات المسلمين بقيادة عمرو بن العاص قد لقيت ترحيبا كبيرا من غالبية الأقباط المصريين، وأن هؤلاء الأقباط لم يترددوا فى تقديم العون والمساعدات لها أثناء تحركها لفتح مصر .

وأنقل من كتاب نشر فى القاهرة منذ عدة سنوات واسمه « تاريخ الكنيسة المصرية » . . لمؤلفيه رفيق حبيب « قبطى » ومحمد عفيفى « مسلم » فقرة باعتبارها على جانب كبير من الأهمية تقول بالحرف الواحد .

– يثير الفتح العربى لمصر مشكلة فى غاية الأهمية والحساسية فى التاريخ القبطى، وهى موقف الأقباط من الفتح العربى ومساعدتهم لعمرو بن العاص ضد البيزنطيين، على الرغم من الرابطة الدينية التى تربط بينهما .

ودفع ذلك أحد الكتاب الأجانب من المعاصرين إلى ترديد مقولة عن خيانة الأقباط لإخوانهم فى الدين المسيحى – أى البيزنطيين – بتسليمهم مصر للعرب ويرى هذا الكاتب أن الأقباط – كما قال – قد دفعوا بعد ذلك ثمن خيانتهم بأن أصبحوا عبيداً تحت حكم الاحتلال الإسلامى لمصر .

وكان مؤلفا الكتاب وأحدهما وهو رفيق حبيب وهو ابن الأنبا صمويل من أقطاب الكنيسة القبطية فى مصر وهو باحث ومثقف قبطى له مكانته وأهميته قد تحفظا

بالنسبة لمقولة هذا الكاتب، قد أشارا فى هامش الصفحة التى جاءت بها هذه الفقرة إلى أن الأجنبى المعاصر صاحب هذه المقولة الاستعمارية هو كلوت بك..

وتسائل عن هذا الأجنبى لتسمع من يقول لك.. أن اسمه بالكامل أنطونى برتلمى كلوت، وهو من مواليد سنة ١٧٩٣ وقد توفى فى سنة ١٨٦٨ وهو طبيب فرنسى كان يعمل فى إحدى مستشفيات مارسيليا فى فرنسا عام ١٨٢٢، وقد جاء إلى مصر فى عام ١٨٢٥ ليعمل طبيبًا خاصًا لمحمد على الكبير الذى كانت تربطه علاقات طيبة بالملك شارل العاشر ملك فرنسا، وقام الرجل الفرنسى الذى لم يكن أحد يعرف عن نزعته الاستعمارية بإنشاء مستشفى ومدرسة للطب فى «أبو زعبل» فى عام ١٨٢٧، وقد أمر محمد على الكبير بنقلها إلى مبنى القصر العينى، وقام كلوت بك بإدارتها حتى عام ١٨٥٨..

واستطرد مؤلفا الكتاب أن بعض الأقباط المعاصرين قد حاولوا دفع هذا الاتهام بمقولة أخرى لا تثبت كثيرًا أمام الحقائق التاريخية، ولكن الدافع إليها كان نفسيًا يقوم بالإحساس كرد فعل للاتهام السابق إذ يرى أصحاب هذا الرأى أن الأقباط لم يساعدوا العرب لكى يحتلوا مصر، ولكن نكاية منهم فى البيزنطيين!

* * *

وتقول الروايات القبطية القديمة أن عمرو بن العاص عرف لأول مرة بعد فتح الأسكندرية من أحد المواطنين الأقباط أن الأنبا بنيامين بطريرك أقباط مصر قد اختفى هربًا من اضطهاد الرومان المذهبى له ولم ينتظر عمرو بن العاص، وبادر بالكتابة إلى قواده فى جميع أنحاء مصر يقول لهم:

- إن المكان الذى يعيش فيه بنيامين بطريرك النصارى من القبط المصريين له العهد والأمان والسلامة من الله وعليه أن يحضر آمنًا مطمئنًا إلى الإسكندرية ليدير حال رعيته وسياسة طائفته.

وسمع البطريرك القبطى، وهو فى مخبئه فى أحد كهوف الصحراء بذلك فظهر من مكان اختفائه، وبادر بالعودة إلى الأسكندرية بعد غيبة ١٣ سنة منها ١٠ سنوات فى عهد هرقل، و٣ سنوات قبل أن تقوم قوات المسلمين بفتح الأسكندرية.

وفرح الشعب القبطى المصرى كله بعودة الأنبا بنيامين..

وأضاف مؤلفا كتاب «تاريخ الكنيسة القبطية».. أن المصادر القبطية أكدت أن عمرو بن العاص لم يأخذ شيئا من أموال الكنيسة كما أنه لم يرتكب أى عمل من أعمال السلب والنهب التى كان الرومان يقومون بها ضدها، كما أنه أسبغ على الكنيسة القبطية حمايته طوال أيام حكمه فى مصر، وأنه التزم بمبدأ حرية العقيدة بدقة، وكانت العدالة تميز سلوكه تجاه الأقباط المصريين، وأن أحوالهم كانت فى أيامه خيراً منها تحت حكم البيزنطيين.

وأكد المؤلفان فى الكتاب.. أن البطريرك بنيامين عمل بعد عودته على إعادة الأقباط الذى كانوا قد تحولوا تحت الضغط والإرهاب عن الكنيسة الأرثوذكسية فى عهد هرقل، كما ظهر الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا قد اختفوا ليعيشوا فى الجبال والصحارى تنفيذاً لتعليمات بطريرك الأقباط بنيامين قبل أن يختفى هو نفسه.

وقال الصديق الدكتور ميلاد حنا، وهو مفكر يعتد برأيه كثيراً فى تعليق نشر له فى نفس الكتاب.. أن فى تصوره بمفهوم عقلانى أن عمرو بن العاص كان متفهماً ومقدراً لموقف المصريين الأقباط فى ترحيبهم به، وأن حفاوتهم كانت تعبيراً عن سخطهم على النظام البيزنطى.

وقال.. أن فى تصوره بمفهوم آخر، وهو المفهوم السياسى.. أن عمرو بن العاص كان قد قطع على نفسه وعوداً بأن يترك الأقباط المصريين وشأنهم فيما يتعلق بالعقيدة، فضلاً على أنه قام بتخفيض الضرائب على الأهالى!

* * *

المهم كانت بداية حصار القوات الإسلامية لحصن بابليون فى شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ميلادية، وقد استمر هذا الحصار كما سبق أن قلنا لمدة تسعة أشهر كاملة، وكان سقوط الحصن واستسلامه لقوات المسلمين فى يوم الجمعة السابق ليوم القيامة، وكان يوافق يوم ٩ أبريل سنة ٦٤١ ميلادية.

وكانت قد وقعت خلال أشهر حصار الحصن مناوشات كثيرة بين القوات الرومانية المحاصرة داخل الحصن، وقوات المسلمين.

وجاءت إلى عمرو بن العاص أنباء تقول أن المقوقس قد جمع كل السلطات بين يديه باعتباره مبعوثاً من قبل الإمبراطور هرقل لحكم مصر، ولذلك كان عليه أن يقوم بنفسه بتنظيم قوات الرومان التى كانت محاصرة داخل الحصن.

وكان حصن بابليون يقع فى المنطقة نفسها التى يطلق عليها الآن اسم: مصر القديمة.

وكان سمك أسوار الحصن يقدر بحوالى ١٠ أقدام - أى ثلاثة أمتار تقريبًا - وكان ارتفاع هذه الأسوار فى بعض أجزائها إلى ٦٠ قدمًا - أى حوالى ٢٥ مترًا.

وكانت مياه النيل تجرى تحت أسوار الحصن من ناحيته الجنوبية وكان محيط أسواره على شكل مربع غير منتظم، وكان يرتفع على امتداد أسواره الجنوبية أربعة أبراج، وقد تهدمت هذه الأبراج، كما تهدمت حوائط الكثير من أسوار الحصن، وأندثرت غالبية المبانى التى كانت مقامة على أرضه فلم يتبق منها إلا بعض آثارها القديمة.

وكان للحصن باب كبير يطلقون عليه اسم: الباب الحديدى، وكان يوجد مرسى خاص للسفن النيلية التى كانت تقف أمام سلالم حجرية كانت تمتد تحت مدخل الحصن الرئيسى الذى كان يطل على النيل.

وكان طبيعيًا أن ترتفع وتنخفض السفن الرومانية التى كانت تقف بجوار الحصن مع اختلاف مستوى ارتفاع مياه النيل.

وكانت الكنيسة المعلقة تقع بجوار الباب الجنوبى الذى كان موقعه فى مواجهة جزيرة الروضة.

وكانت هذه الجزيرة هى الأخرى ذات حصون وأسوار، وكان تحصينها يزيد من قوة ومناعة حصن بابليون.

وكانت الأراضى الزراعية وبساتين الكروم تنتشر تحت أسوار الحصن من جهته الشرقية، وكانت هذه البساتين تمتد حتى المنطقة التى بنى عندها جامع أحمد بن طولون، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم قلعة الكبش.

وتقول رواية قديمة أن الإمبراطور الرومانى تراجان كان أول من قام ببناء حصن بابليون فى العام المتمم للسنة المائة بعد الميلاد.. أى فى سنة ١٠٠ ميلادية.

وفى رواية أخرى أن اليهود الذين كانوا يتمركزون فى مدينة الأسكندرية كانوا قد أعلنوا عصيانهم ضد الإمبراطورية الرومانية فأرسل إليهم الإمبراطور تراجان جيشًا رومانيا تحت قيادة القائد الرومانى مرقيوس - تربو الذى قام بإخماد ثورة اليهود وتأديبهم..

وجاء الإمبراطور تراجان بعد ذلك بنفسه إلى مصر وكان هو الذى قام ببناء حصن بابليون وجعل منه قلعة منيعة، على مسافة ليست بعيدة فى الشمال من مدينة منفيس وهو الاسم الذى كان يطلق أحيانًا على مدينة منف عاصمة الدولة الفرعونية القديمة.

وتقول رواية ثالثة أن الملك بختصر كان قد بنى هذا الحصن عندما قام بغزو مصر، وأنه أطلق عليه اسم عاصمة بلاده، وكان اسمها بابليون وأن الإمبراطور تراجان قام بعد ذلك ببناء أسوار الحصن فوق الأساسات التى بناها الملك بختصر.

ويقول الدكتور الفريد بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» إن من المحقق والثابت.. أنه كان يوجد فى نفس المنطقة حصن آخر قديم يرجع تاريخه إلى أيام استرابو الذى جاء إلى مصر قبل تراجان بحوالى ١٣٠ سنة، وقال أنه شاهد هذا الحصن القديم فوق هضبة صخرية!

وقال بتلر: أن المؤرخين القدامى قد اتفقوا على أنه كان يوجد على مقربة من حصن بابليون حصن قديم آخر يرجع تاريخه لعدة قرون قبل عصر تراجان، وكان معروفًا باسم حصن بابليون أيضًا!

واستطرد بتلر يقول فى دراسة تاريخية مثيرة:

- إن اسم بابليون سبب ارتباكًا كبيرًا للكتاب العرب، فقد بقى هذا الاسم حتى اليوم، ولكنه لا يطلق على الحصن الذى اشتهر باسم «قصر الشمع»، أما اسم بابليون فكانوا يطلقونه على دير صغير يقع على مسافة ليست كبيرة فى الجنوب من الحصن ويعرف باسم دير بابليون!

وكان اسم الحصن باللغة القبطية وقت الفتح الإسلامى «آن - خيمى» ومعناه بابليون مصر!

ولم يجد المؤرخون حتى الآن أى تفسير لإطلاق اسم قصر الشمع على الحصن المنيع، وإن قال بعضهم، إن هناك احتمال فى أن يكون لفظ الشمع، هو تحريف للكلمة القبطية «خيمى».

ويقول المقريزى فى تصور آخر: أن الفرس درجوا أثناء فترة احتلالهم لمصر فى القرن السابع الميلادى على إشعال كتلة من النار فى قمة أحد أبراج الحصن فى أول

يوم من كل شهر عندما تدخل الشمس فى أحد أبراجها الجديدة وأن اسم قصر الشمع يرجع تاريخه إلى تلك الأيام.

ولفت الانتباه أن المؤرخين الأوربيين بالذات قد تعمدوا فى القرون الوسطى إطلاق اسم بابليون على المنطقة التى كان الحصن القديم مقاماً فيها، وليس اسم مصر، وأنهم ظلوا متمسكين بتلك التسمية إلى ما بعد بناء القاهرة فى أيام الفاطميين حتى أنهم كانوا يطلقون على مصر اسم بابليون، وكان يسمون حاكمها.. سلطان بابليون!

* * *

ونعود مرة أخرى إلى حصار قوات المسلمين لحصن بابليون.. أن إجماع المؤرخين القدامى على أن المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط، وهو نفسه البطريرك فيرس كان موجوداً فى قصره الفاخر داخل الحصن عند بداية الحصار.. أما القائد الرومانى تيودور فقد اختلفوا حول تحديد مكانه أو دوره فى معركة استسلام حصن بابليون لقوات المسلمين.. ويقول بعض هؤلاء المؤرخين إنه كان موجوداً داخل الحصن قبل معركة هليوبوليس ثم انقطعت أخباره فلم يعرف عما إذا كان قد اشترك فى المعركة بنفسه، أو أنه لم يشترك فيها.

ومنهم من يقول إنه قد شوهد وهو يشارك فى المعركة وأنه لحق بالهاربين بعد الهزيمة إلى الأسكندرية.

ومن المؤكد أن المقوقس تولى قيادة القوات الرومانية المدافعة عن الحصن باعتباره مبعوث هرقل وأكبر شخصية رومانية فى مصر. أما القائد العسكرى الذى كان مسئولاً عن الدفاع عن الحصن فقد كان العرب يطلقون عليه اسم «الأعيرج» وهو اسم غريب ولم يكن من الأسماء الرومانية التى كانت معروفة فى تلك الأيام.. وإن كان الاحتمال كبير فى أن يكون الاسم تحريف فى النطق لاسم «جورج».

ويروى بتلر تفاصيل مثيرة أخرى عن اجتماع عقده المقوقس داخل الحصن فى شهر أكتوبر ٦٤٠ ميلادية.. أى بعد انقضاء شهر على بداية حصار قوات المسلمين للحصن.

وتقول روايته بالحرف الواحد:

– كان المقوقس آمنا إلى حين داخل حصنه المنيع الذى كانت تحيط به مياه النيل، وكانت آلات قذف الحجارة من داخل الحصن على المحاصرين أقوى بكثير، كما كان

تأثيرها أضعاف ما كان المسلمين يرمونه على الحصن من أحجار وسهام، ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى طويلاً، فقد كان لا بد أن يأتى وقت تنخفض فيه المياه التى كانت تملأ الخندق حول الحصن.

وأخذت عزائم المدافعين عن الحصن فى تلك الأثناء فى الانهيار فى مواجهة قوة التحمل عند القوات العربية.

وفى أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ ميلادية عقد المقوقس اجتماعًا شهده عدد من رؤساء الجيش الذين كان يثق فيهم، كما اشترك فيه أسقف بابليون الملكانى أى التابع للكنيسة الرومانية فى بيزنطة.

وقام المقوقس باستشارة المشتركين فى الاجتماع سرًا حول الموقف ثم قام بمصارحتهم برأيه..

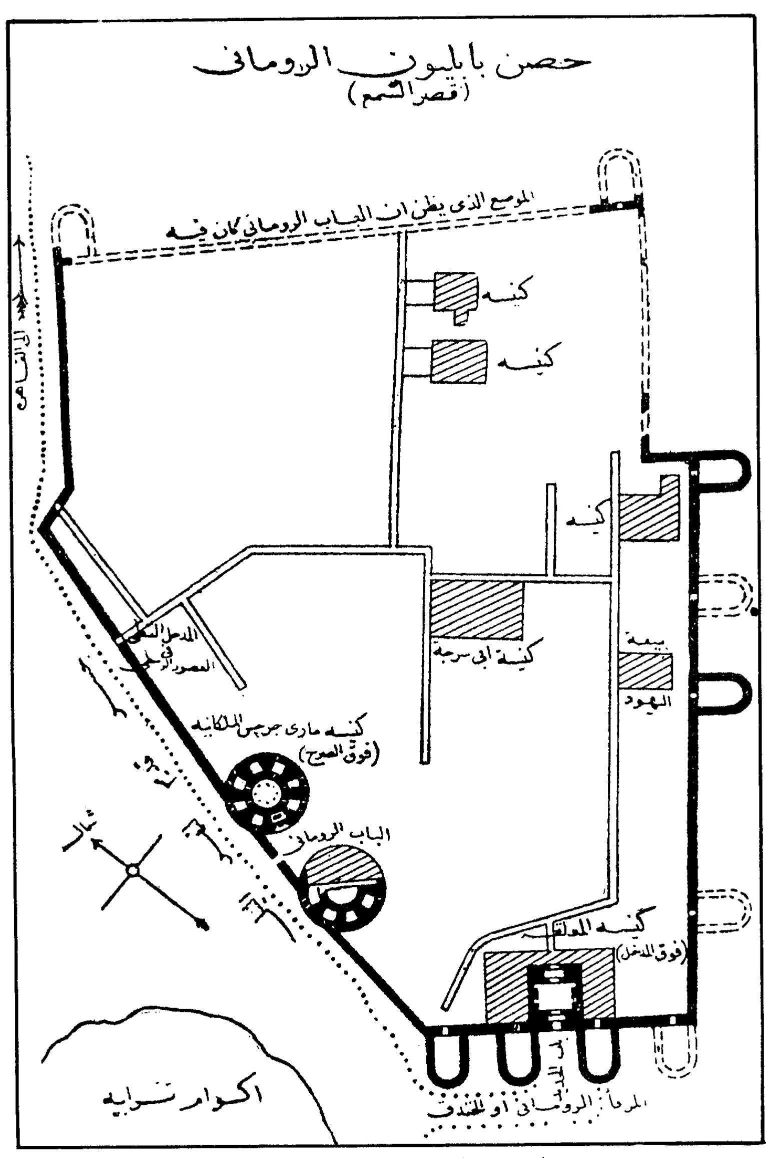
قال لهم.. إن الهزيمة فى الحرب كانت من نصيب الرومان بعد أن استطاعت قوات المسلمين أن تقضى على أكبر جيوشهم فى معركة هليوبوليس، وأن القوات العربية لم تتردد فى حصار حصن بابليون بالرغم من أن المدافعين عنه أكثر عددًا وأشد بأسًا فى الحرب.

وقال لهم أيضًا.. أنه لا يتوقع أن يأتى إليهم مدد يرفع عنهم الحصار قبل مضى عدة أشهر وإن كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر، وهو مما لا شك فيه، إلا أنه يخشى أن تكون نهاية الحرب وبالا عليهم، ولما كان الأمر كذلك فإنه يرى خيراً للقوات الرومانية أن تفدى نفسها بالمال فيعطوا أعداءهم مقداراً منه ليرحلوا عنهم.

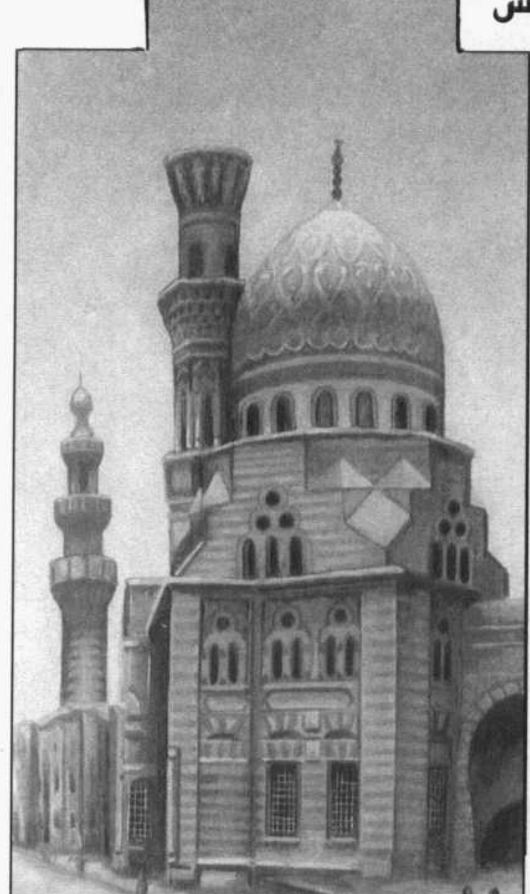
وقال: إن فى تصوره لو أن الرومان استطاعوا ذلك وأمكنهم إبعاد العرب عن البلاد بمبلغ من المال يقدمونه إليهم، كان فى ذلك كل الخير حتى يخلصون مصر فتعود إلى دولة الروم.

ويقول بتلر: إن المقوقس نجح فى إقناع كل من تشاور معهم فى هذا الأمر بتكليفه بإجراء مفاوضات مع عمرو بن العاص فى هذا الشأن على أن تتم الاتصالات مع القائد العربى فى سرية تامة.

وهكذا كان فى تصور المقوقس أن فى وسعه رشوة عمرو بن العاص حتى يوافق على الانسحاب مع قواته من مصر مقابل إعطائه أى مبلغ من المال يتم الاتفاق عليه! ■



رسم كروكي لحصن بابليون عندما قامت قوات عمرو بن العاص بالاستيلاء عليه بلا قتال، وقبل أن تتحطم جدرانه ويتحول إلي أنقاض!

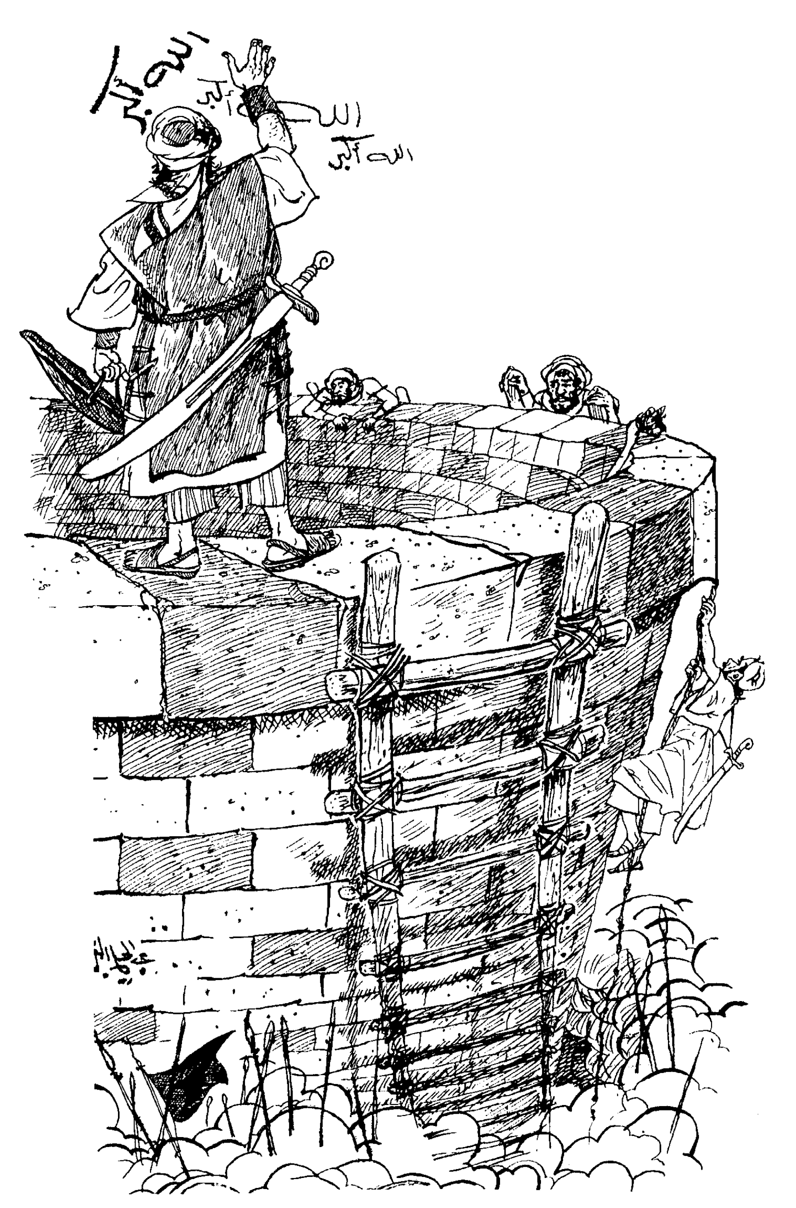


الفصل الخامس

اقترح المقوقس على الرومان الاستسلام للعرب فاتهمه الإمبراطور هرقل بالخيانة وعزله عن حكم مصر!



- شروط عمرو بن العاص الثلاثة.. اعتناق الإسلام... أو دفع الجزية.. وإلا الحرب!
- مفاوضات سرية فى جزيرة الروضة بين المقوقس ووفد يمثل قوات المسلمين برئاسة عبادة بن الصامت
- عندما عرض المقوقس رشوة المقاتل العربى بدينارين.. ومائة دينار لعمرو بن العاص!



صعد الزبير بن العوام فوق أسوار الحصن ثم أخذ يصيح الله أكبر.. الله أكبر ولحق به المقاتلون العرب قبل أن يبدأوا هجومهم علي المدافعين عن الحصن من الرومان الذين بادروا بالاستسلام!

أعدت الخطة بحيث يتسلل المقوقس مع جماعة مع معاونيه تحت ستار الليل وفى سرية تامة إلى جزيرة الروضة على أن يتكتم الأمر عن المدافعين عن حصن بابليون من المقاتلين الرومان.

وتم فتح الباب الحديدى للحصن، وهو الباب الذى يطل على النيل فى مواجهة جزيرة الروضة، ليخرج منه المقوقس مع مجموعة من أصحابه حيث قامت إحدى السفن الصغيرة بنقلهم إلى الجانب الآخر.. أى إلى جزيرة الروضة..

وعرف أن جورج الذى اختاره المقوقس لقيادة قوات المدافعين عن الحصن فى فترة غيابه كان مشتركًا فى الاتفاق، وأنه قام بنفسه بعملية فتح الباب الحديدى حتى يتسلل منه المقوقس مع أصحابه.

وبعث المقوقس من جزيرة الروضة رسالة إلى عمرو بن العاص يدعوه إلى إرسال وقد يمثله للتفاوض معه.

ويقول المقريزى عن هذه الدعوة أن عمرو بن العاص رحب برسل المقوقس الذين حملوا إليه رسالته، وأنه عمل على إكرام وفادتهم، ثم استمع إلى الرسالة وكانت تقول بالحرف الواحد.

- أنتم قوم ولجتم بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم على أرضنا، وأنتم عصبة يسيرة، وقد أظلكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم النيل لتصبحوا أسارى.. «أى أسرى» فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالا منكم لنسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام، ولا نقدر عليه، ولعلكم لن تندموا إذا كان الأمر مخالفًا لطلباتكم!

كانت رسالة غريبة تتضمن معنى التهديد، ولكنها كانت فى نفس الوقت تكشف عن حالة الذعر والهلع التى كانت تسيطر على مشاعر الرومان!

ويقول بعض المؤرخين القدامى إن عمرو بن العاص لم يرد فى بادئ الأمر على رسالة المقوقس بأى جواب، وقام بمنع خروج الرسل الذين حملوا الرسالة إليه من معسكره لمدة يومين حتى يتعرفوا بأنفسهم على مدى تصميم المقاتلين المسلمين على

فتح مصر، وبعدها أطلق سراحهم، ليعودوا إلى المقوقس حاملين الجواب على رسالته، وكان يقول له فيها :

- ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال :

١ - إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم مالنا، وعليكم ما علينا .

٢ - وإن أبيتم فأعطيتم الجزية، وأنتم صاغرين !

٣ - وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا، وهو أحكم الحاكمين . .

وسأل المقوقس رسله بعد أن قرأ رد عمرو بن العاص على رسالته عما شاهدوه في معسكر المسلمين، فقالوا له :

- رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الترفع، وليس لأحد منهم في الدنيا رغبة أو نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم . . ولا يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، وهم يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلواتهم .

* * *

وهكذا كانت شروط عمرو بن العاص صريحة وواضحة، وتعني . . . أنه لا هوادة ولا مفاوضة . .

وكانت مياه النيل قد بدأت في الانخفاض بعد انتهاء موسم الفيضان، فقرر المقوقس أن يبادر بالدخول مع العرب في مفاوضات للصلح قبل أن تهبط مياه النيل، وبالتالي تستطيع قوات المسلمين أن تتحرك بسهولة في أنحاء البلاد .

ولم يتردد المقوقس في معاودة الاتصال بالعرب، وكان أن طلب إلى عمرو بن العاص أن يبعث إليه بجماعة من ذوي الحنكة والرأي للتشاور معهم حول ما عساه كما قال أن يؤدي إلى الصلح بين العرب والرومان .

واختار عمرو بن العاص عشرة من المقاتلين العرب . وكان من بينهم عبادة بن الصامت، وبعث بهم إلى المقوقس في جزيرة الروضة .

وكلف عمرو بن العاص عبادة بأن يكون المتحدث عن بقية زملائه على أن لا يجيب المقوقس فى أى شىء من دعوته إلا فى حدود الشروط الثلاثة التى بعث بها إليه..!

* * *

ونقل صاحب النجوم الزاهرة عن المؤرخ العربى القديم ابن الحكم تفاصيل مثيرة عن المناقشة التى دارت بين بعض أعيان الرومان، وعلى رأسهم المقوقس وبين أعضاء وفد المفاوضات الذى بعث به عمرو بن العاص إلى جزيرة الروضة للتفاوض مع الرومان بناء على طلبهم أثناء حصار حصن بابليون.

قال.. إن عبادة بن الصامت الذى كلفه عمرو بن العاص بأن يكون المتحدث نيابة عن زملائه كان أسود اللون، فلما رآه المقوقس لفت انتباهه شدة سواده، فصاح:

- نحوا عنى هذا الأسود، وقدموا غيره ليكلمنى.. أى ابعدوه عنى!

ورد أعضاء وفد عمرو بن العاص عليه قائلين:

- إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإننا نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره أميرنا - أى عمرو بن العاص - دوننا بما أمره، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله..

واشتدت دهشة المقوقس وقال لهم:

- وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم بينما كان ينبغى أن يكون دونكم؟

ورد عليه وفد معسكر العرب بقولهم:

- إنه وإن كان أسود كما ترى، إلا أنه أفضلنا موضعًا، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأيًا، ولا فرق عندنا بين الأسود والأبيض لأنهما سواء عندنا، ولا يفضل أحدهما عن الآخر إلا بفضله وعقله، وليس بلونه!

ولم يكن أمام المقوقس إلا أن يقول:

- تقدم يا أسود.. وكلمنى، ولكن بربك برفق حتى لا تزعجنى..

وهنا قال عباد بن الصامت للمقوقس:

- لقد سمعت كلامك، وأود أن أقول لك.. أننى خلفت ورائى ألف رجل كلهم

مثلى، وأشد سواداً منى، وهم أفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منى، وأننى بحمد الله لا أهاب مائة رجل من عدوى ولو واجهونى جميعًا، وكذلك أصحابى، وذلك لأننا رغبنا فى الجهاد فى سبيل الله واتباع رضائه، وليس غزو لعدوان، فمن حارب لله لا رغبة فى الدنيا، ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالى أحد إذا كان له قناطير من ذهب أو إن كان لا يملك درهمًا، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعه ليلته أو نهاره وشملة يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك لكفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء فى الآخرة.. بذلك أمرنا الله وأمر به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يسدَ جوعته، ويستر عورته، وأن تكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه.

ولم يتمالك المقوقس نفسه من الدهشة، وهو يستمع إلى كلام عبادة بن الصامت وكان أن التفت ناحية من حوله من أعيان الرومان وقال لهم:

- هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل من قبل.. لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندى من منظره.. إن هذا الرجل وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض!

ثم التفت المقوقس ناحية عبادة بن الصامت وقال له:

- أيها الرجل الصالح، لقد سمعت كلامك.. وإننا نعلم أنكم لن تتفوقوا على الرومان، ولن تتمكنوا منهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بيننا أشهراً، وأنتم فى ضيق وشدة فى معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم ولقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار وخليفتكم ألف دينار فتقبضوها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن نغشاكم بما لا قِبَلَ لكم به.

وهكذا كشف المقوقس عن أوراقه عندما تحدث بصراحة عن محاولته رشوة قوات المسلمين للعودة إلى بلادها مقابل ما قال أنه سوف يدفع إليها من دنانير!

ولم يتمالك عبادة بن الصامت نفسه من الغضب، وهو يقول للمقوقس:

- يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك.. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم

وكثرتهم، وأننا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يثنينا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقًا فذلك والله ما يرغبنا فى قتالكم، ويزيد من حرصنا على ذلك.. وإن قتلنا عن آخرنا.. وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك وأننا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين.. إما أن تعظم لك بذلك غنيمة الدنيا إذا ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه:

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.. والله مع الصابرين ﴾.

ثم استطرد عبادة بن الصامت يقول للمقوقس:

- ما من رجل منا إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساء أن يرزقه الشهادة، وأن لا يرده إلى بلده وإلى أرضه وأهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا أما قولك أننا فى ضيق وشدة فى معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أوردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه. فانظر الذى تريده فبينه لنا.

ثم أخذ عبادة بن الصامت يحدثه عن الخيارات الثلاث التى بعث بها عمرو بن العاص إليه للمصالحة بين العرب والرومان.

وهنا قال المقوقس:

- هذا لا يكون أبداً.. أن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه..

وكان هذا يعنى أنه يرفض شروط الإسلام.

وسأل عبادة: وماذا عن دفع الجزية؟

قال المقوقس: إذا رضخنا لكم ودفعنا الجزية فإن هذا يعنى أن نصبح عبيداً لكم ما كانت الدنيا، والموت لنا خير من ذلك.

قال عبادة: إذن لن يبقى أمامنا إلا الخيار الأخير، وهو أن نقاتلكم بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم.

ورد عليه المقوقس قائلاً:

- أفلا تجيبونا إلى شرط آخر غير الشروط الثلاثة؟

وهنا صاح عبادة بن الصامت فى وجه المقوقس قائلاً:

- لا.. ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض، ورب كل شيء.. ما لكم عندنا من خيار آخر.. إما أن تسلموا.. وإما أن تدفعوا الجزية.. وإما أن نقاتلكم، وليحكم الله بيننا والله خير الحاكمين!

* * *

كان المقوقس على قناعة بأن قوات المسلمين سوف تنتصر فى معركتها ضد قوات الروم..

وكان على يقين بأن كل محاولاته لإثارة الخوف والمتاعب أمام عمرو بن العاص وقواته لن تفيد..

وأثارت اجتماعات التصالح التى عقدها المقوقس مع ممثلى عمرو بن العاص ثائرة المقاتلين الرومان المحاصرين داخل حصن بابليون، وكان أن ثاروا عليه، وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالخروج من الحصن لمقاتلة قوات المسلمين.

ولم يعترض المقوقس، ووافق أن يقوم المقاتلون الرومان بمناوشات مع قوات المسلمين، وكانت النتيجة هزيمة جديدة لقوات الرومان.

وتحرك المقوقس بسرعة لعقد الصلح مع عمرو بن العاص، وكان أن طلب من القوات الإسلامية هدنة حتى يتسنى له استئذان الامبراطور هرقل فى القسطنطينية بعقد الصلح مع العرب..

ووافق عمرو بن العاص على هذه الهدنة..

ولم ينتظر المقوقس، وبادر بالسفر إلى الإسكندرية حيث كتب رسالة بعث بها إلى الامبراطور هرقل فى القسطنطينية يستأذنه فيها بعقد مصالحة مع العرب.

وأصيب الامبراطور بالفزع بمجرد أن قرأ الرسالة، وأرسل إلى المقوقس يستدعيه إلى القسطنطينية على عجل.

وسافر المقوقس إلى القسطنطينية حيث استقبله الامبراطور بثورة عارمة، واتهمه بالخيانة.

قال له: كيف تقبل أن تدفع أموال الرومان للعرب..

وحاول المقوقس أن يدافع عن نفسه قائلاً: إن أى أموال تدفع للعرب يمكن

اسـتـردادها مـن تجـار مـدينـة الاسكندرية ولكـن المهم أن تبـقى مـصـر تحت حكـم الرومان.

وحاول المقوقس أن يقول للامبراطور.. إن المقاتلين العرب لا يشبهون غيرهم من جنود سائر الشعوب، فهم لا يعبأون بأمور الحياة الدنيا ولا متاعها، كما أنهم لا يطلبون من هذه الحياة إلا لقمة يسدون بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم، وأنهم كما يطلق عليهم الكثيرون اسم: «قوم موت»!.. فهم يرون ربحًا فى أن يقتلوا لأنهم يجدون فى ذلك الشهادة التى ينالون بها الجنة فى حين أن الروم يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليها!

واكتفى أن قال للامبراطور: لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون فليس لنا من سبيل آخر غير الصلح مع عمرو بن العاص قبل أن يقوم بفتح حصن بابليون عنوة، وتصبح مصر كلها غنيمة له.

ولم يعجب ذلك الامبراطور، فأمر بعزل المقوقس من منصبه ونفيه، وأكثر من ذلك اتهمه بالخيانة.

وأرسل الامبراطور إلى قواده فى مصر أوامره الامبراطورية بأن يواصلوا القتال.

* * *

ولم يعد المقوقس إلى الاسكندرية، وأدرك عمرو بن العاص أن الامبراطور هرقل لم يوافق على عقد الصلح.

ولم تنتظر قوات المسلمين وبادرت بنقض الهدنة.

وفى يوم ١١ فبراير سنة ٦٤١ ميلادية توفى الامبراطور هرقل فى القسطنطينية..

وعرفت قوات المسلمين التى كانت تحاصر حصن بابليون بالخبر بعد عدة أسابيع من وفاة الامبراطور، وقبل أن يعرف به المقاتلون الرومان المحاصرين داخل حصن بابليون..

وارتفعت أصوات قوات المسلمين، وكان ذلك فى شهر مارس سنة ٦٤١ ميلادية بالتكبير.. الله أكبر.. الله أكبر.. وانهارت أعصاب قوات الرومان داخل الحصن، وكانت تصورها فى بادىء الأمر أن قوات المسلمين قد تلقت إمدادات جديدة من المقاتلين.. ومن المعدات..

وسأل الرومان المحاصرون عن السبب فى التكبير، فلما عرفوا بوفاة الامبراطور هرقل، ارتفعت أصواتهم بالعويل والصراخ، وأخذ بعضهم يبكى بحرقة وحرارة...

وكانت مياه الفيضان قد أخذت فى الانحسار مما أدى إلى تزايد حالة اليأس فى صفوف المدافعين عن الحصن من الرومان.. وأخذت كل الشواهد تؤكد أن الطريق أصبح ممهداً أمام القوات الإسلامية لاقتحام الحصن.

وجاء الزبير بن العوام بسلم، ثم قام بتثبيته على حائط أحد الحصون من ناحية كان يطلق عليها اسم «سوق الحمام» ثم التفت ناحية عمرو بن العاص وقال له: إنى أهب نفسى لله، وأرجو أن يفتح سبحانه وتعالى بما سأفعل على المسلمين.

ولم ينتظر الزبير بن العوام أن يسأله عمرو بن العاص عما سيفعل، فقد كان واضحاً أنه قرر أن يقوم بعملية فدائية فى محاولة لاقتحام الحصن.

وصعد الزبير على السلم، وهو يقول للمقاتلين العرب: عندما تسمعون تكبيرى أجيبونى جميعاً.

وأخذ المقاتلون العرب يراقبونه، وهم يلاحقونه بأنظارهم حتى صعد فوق جدران الحصن.

وفجأة شهر الزبير بن العوام سيفه، ثم أخذ يصيح من فوق أسوار الحصن.. الله أكبر.. الله أكبر.. وارتفعت أصوات المقاتلين العرب فى خارج الحصن، وهم يرددون التكبير من ورائه.

وتسابق بعض هؤلاء المقاتلين بسرعة فى تثبيت عدد من السلالم فوق حائط الحصن، ثم بادروا بتسلقها حتى إذا ما تجمعت مجموعة من هؤلاء المقاتلين حول الزبير بن العوام أخذ يشق معهم طريقه داخل الحصن وهم يطيحون برؤوس المقاتلين الرومان بسيوفهم.

وتصور الرومان أن القوات الإسلامية قد اقتحمت الحصن، فلم يتمالكوا أنفسهم من الفزع والذعر، وألقى الكثيرون منهم بأسلحتهم، وهم يرفعون أيديهم إلى أعلى طالبين الاستسلام!

وبادرت قوات الرومان بطلب تأمينها فى الانسحاب من الحصن والسماح لها بالتوجه إلى الاسكندرية.

ووافق عمرو بن العاص على إجابتهم على طلبهم بالرغم من احتجاج قواده، وعلى رأسهم الزبير بن العوام الذى كان يريد الاستمرار فى القتال، والاستيلاء على الحصن عنوة.. وبمعنى آخر اقتحام الحصن وقتل المدافعين عنه من قوات الرومان بالجملة، وأسر من يبقى حيًا منهم داخل الحصن بعد أن تتم عملية الاستيلاء عليه.

وأعطيت للرومان مهلة لمدة ثلاثة أيام للانسحاب خلالها من الحصن على أن يتركوا وراءهم أسلحتهم وأمتعتهم وكل متعلقاتهم الشخصية.

وفى يوم ٩ أبريل سنة ٦٤١ ميلادية استولت قوات المسلمين على حصن بابليون بدون قتال..

وكان نصرًا جديدًا من الله لعمرو بن العاص فى عملية فتح مصر..

* * *

ويقول الكاتب الصحفى الكبير المرحوم محمد صبيح فى كتابه «عمرو بن العاص» وهو كتاب من ضمن الكتب التى أصدرها منذ حوالى ٤٠ سنة فى سلسلة كان يطلق عليها اسم «كتاب الشهر»:

– إن انسحاب الرومان من حصن بابليون اقترن بجريمة فظيعة ارتكبها هؤلاء الرومان وكانت ضحيتها مجموعة من أسرى القبط المصريين كانوا قد اختلفوا معهم فى مذهبهم الديني، وكانوا مسجونين فى الحصن، وقد أخرجوهم من محابسهم، ثم انهالوا عليهم ضربًا بالسياط، وبعدها قاموا بتقطيع أيديهم بالسيوف!

واستشهد المرحوم محمد صبيح ببعض التفاصيل التى جاءت حول هذه الجريمة البشعة فى ديوان من الشعر للمؤرخ القديم حنا النقيوسى.

وقال: إن ديوان الشعر تضمن اتهامًا صريحًا للرومان بأنهم قد أثبتوا بارتكابهم هذه الجريمة أنهم أعداء المسيح وأنهم قاموا بتدنيس الدين المسيحى برجس بدعهم..

وقال أيضًا: أنهم عصوا المسيح، وأذلوا أتباعه، ولا أظن أنه ظهر بين الناس من أتى بسيئاتهم، ولو كانوا من عبدة الأوثان!

تقول رواية أخرى عن تفاصيل هذه الجريمة البشعة:

– قام الرومان بإخراج المعتقلين من الأقباط المصريين من سجونهم، وكانت غالبيتهم من قساوسة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وكان عددهم يتراوح ما بين

٢٠٠ و٣٠٠ سجين، ثم انهالوا عليهم ضرباً بالسياط وبعدها قاموا بتقطيع أيديهم بالسيوف ثم تركوهم ينزفون دماءهم حتى الموت!!

وكان تصور بعض المؤرخين القدامى أن تقوم القوات الرومانية بإطلاق سراح هؤلاء المساجين عند انسحابهم من الحصن، ولكن كانت المأساة عندما قامت فرقة من المقاتلين الرومان بارتكاب جريمتهم البشعة.

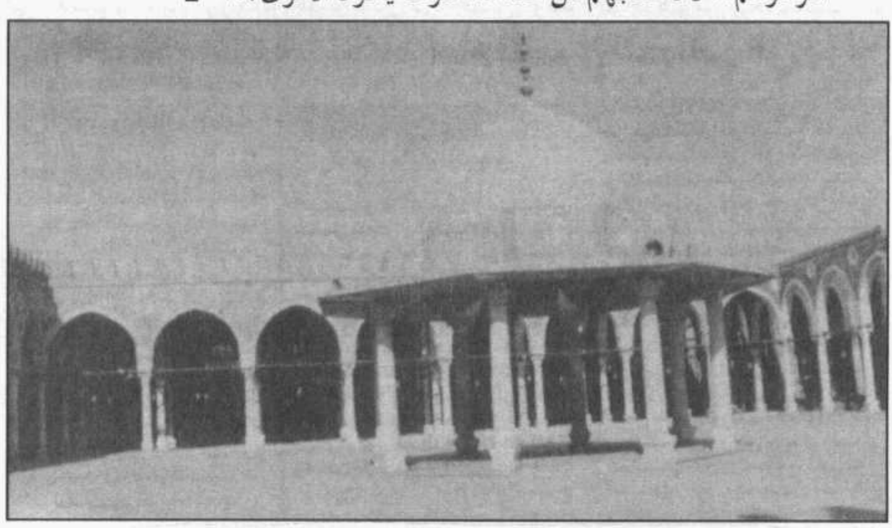
وعندما انتهت فترة الهدنة، وأتم الرومان انسحابهم من الحصن، قامت القوات الإسلامية بالدخول إليه لتفجع بمشهد القتلى من رجال الدين المسيحى من الأقباط المصريين!

وكانت عملية انتقام رهيبة من رجال الدين الذين قالوا لا لأفكار الامبراطور هرقل حول محاولته توحيد الكنسية المسيحية تحت سيطرته.

ولم يتمالك الكثيرون من قوات المسلمين أنفسهم من أثر مشاهدتهم لضحايا المذبحة البشعة فأشهروا أسلحتهم، وهم يطالبون عمرو بن العاص بالسماح لهم بمطاردة جنود الرومان قبل أن تصل قواتهم المنسحبة إلى الإسكندرية لتأديبهم ومعاقبتهم على جريمتهم البشعة التى لم يكن هناك أى مبرر أو سبب لارتكابها.

ولكن عمرو بن العاص لم يوافق، وقال للمقاتلين المسلمين الثائرين:

- **اتركوهم.. لأن عقابهم من عند الله سوف يكون الأقوى!..** ■



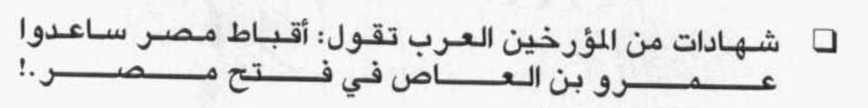
مسجد عمرو بن العاص ثالث مسجد عرفته مصر بعد مسجد العريش ثم مسجد سادات قريش في بلبيس مع دخول الإسلام..

الفصـــل السادس

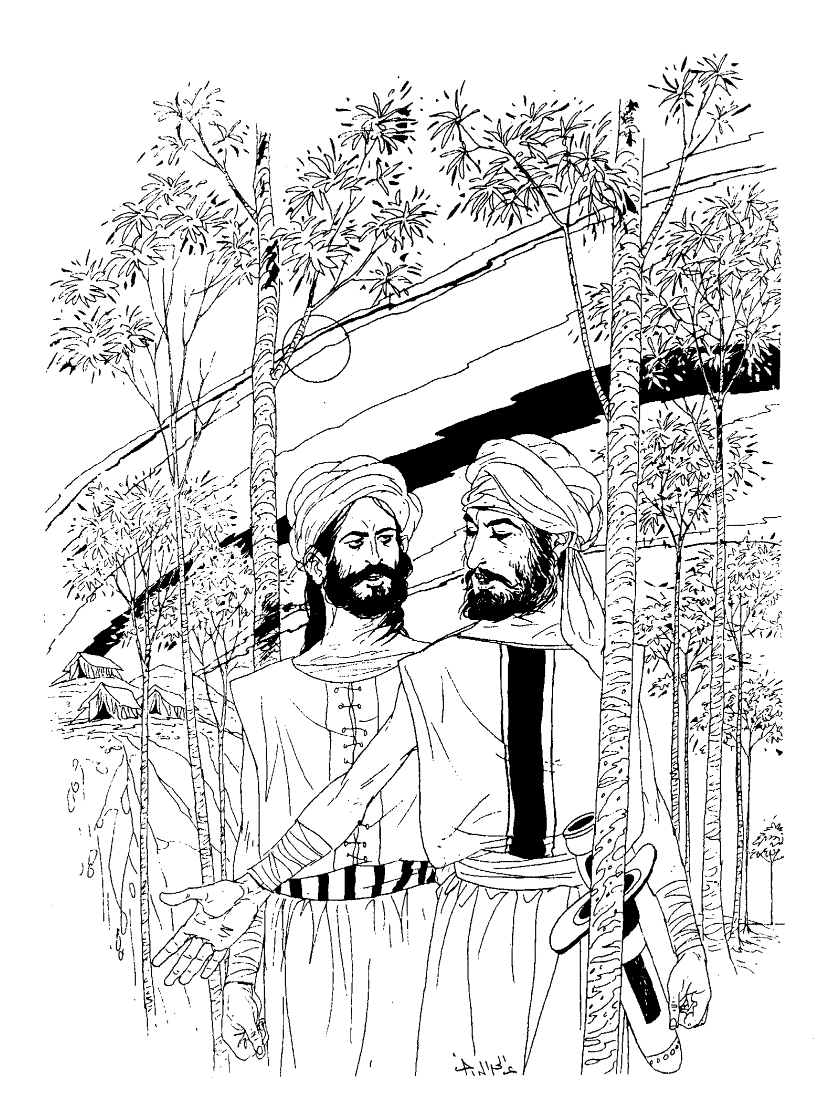


عــقــد الإذعــان لتـــســليــم الإسكندرية إلى عـمـرو بن العـاص بلا قــتــال بأمــر الإمـــبـــراطـور الــرومـــــانى!





- ❑ شـهـادات من المؤرخين العرب تقـول: أقـبـاط مـصـر سـاعـدوا عـــمـــرو بن الـعـــاص في فـــتـح مــــصـــر.!
- ❑ عندما قرر الإمبراطور الروماني الجديد مواصلة الحرب ضد العـــرب.. ومـــات بالـسـم بعـــد ١٠٠ يـوم.!
- ❑ المقوقس يظهر فجأة في حصن بابليون ليعرض علي عمرو بن الـعـــاص انـسـحـــاب الرومـــان من مـــصـــر!



المقاتلون العرب في جولاتهم بين البساتين خارج الأسكندرية قبل أن يتم
الاتفاق على استسلام المدينة وانسحاب الرومان منها بلا قتال!

كان فتح حصن بابليون نصراً جديداً من الله لقوات المسلمين..

ويقول الكاتب الصحفى الكبير المرحوم محمد صبيح فى كتابه الذى نشره فى الأربعينيات عن عمرو بن العاص أن المقوقس كان فى تلك اللحظة عندما استولت قوات المسلمين على حصن بابليون بلا قتال، فى منفاه ينتظر تحديد مصيره بعد وفاة الإمبراطور هرقل، وكانت هناك علامات كثيرة ما تزال تتردد حول موقفه عندما اقترح على الإمبراطور الرومانى محاولة التصالح مع العرب..

وكان فى رأى بعض المؤرخين القدامى من العرب أن تقديره كان سليماً عندما قال إن قوات المسلمين لن تهزم، وأنه وإن كان قد استخدم كل أساليب الإرهاب ضد أقباط مصر إلا أنه كان داهية سياسية، وأنه أراد بنصائحه أن يحافظ على دماء الرومان حتى لا تذهب هدراً فى معارك لا طائل من ورائها..

وترددت أقوال وشائعات كثيرة فى تلك الأيام تقول أن المقوقس قد راودته فكرة الإسلام وأنه كان بقلبه مع قوات المسلمين، وبعقله مع سيده وولى نعمته الإمبراطور هرقل الذى جاء به من القوقاز، وعينه حاكماً على مصر!

وأعود قليلاً إلى الوراء عندما أرسل النبى صلوات الله عليه وسلامه رسالته المشهورة إلى المقوقس التى كانت تقول بالحرف الواحد:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام.. فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين.. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون!

إنها رسالة النبى الكريم، وقد حملها إليه حاطب بن أبى بلتعه.

ويقول المؤرخ العربى القديم ابن الحكم:

- حدثنى فلان.. وفلان.. وفلان إن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضم الكتاب إلى صدره، وقال: هذا زمان يخرج فيه النبى الذى نجد نعته وصفته فى كتاب

الله، وأنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين ولا نكاح، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وأن جلساءه من المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه.

هذا ما قالوه عن المقوقس عظيم القبط عندما تلقى رسالة النبى ﷺ . .

لقد أيقن أنها رسالة من رسول، وقد كشف حديثه مع حاطب بن أبى بلتعه أنه كان على قناعة بأنه كان النبى المنتظر.

وهنا يأتى أكثر من سؤال . . هل اعتنق المقوقس الإسلام سراً وأنه كان يعمل لحساب قوات المسلمين عندما كان يطالب قوات الرومان بالاستسلام وعدم قتال قوات المسلمين؟

وهل كشف الإمبراطور هرقل سره عندما اتهمه بالخيانة، ثم عزله من منصبه، وأمر بنفيه؟

وماذا عن وصيته قبل أن يموت بأن يدفن فى مصر، ولا يدفن فى القسطنطينية، أو فى موطنه الأصلى فى بلاد القوقاز؟

إن أحداً من المؤرخين الأوربيين الذين تخصصوا فى دراسة تلك الفترة من تاريخ الرومان، وبخاصة الفترة التى جاء فيها عمرو بن العاص لفتح مصر، لم يجب على هذه الأسئلة حتى الآن!

كما أن أحداً من المؤرخين العرب القدامى لم يقترب منها أيضاً محاولاً أن يجيب عليها!

* * *

ويلاحظ أن بعض المؤرخين الأوربيين بالذات قد حاولوا إثارة الخلافات حول حقيقة موقف المقوقس ودوره فى عمليات اضطهاده للأقباط المصريين . . وكذلك عن الجرائم البشعة التى ارتكبها ومحاولته الضغط على هؤلاء الأقباط حتى يحقق أحلام الإمبراطور هرقل فى إزالة أسباب الخلافات بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما وكنيسة الأرثوذكس فى مصر تحت غطاء مذهب واحد كان يطلق عليه اسم مذهب وحدة الإرادة.

ومما يذكر أنه فى الوقت الذى أكد فيه الدكتور الفريد بتلر أن المقوقس هو نفسه فيرس البطريرك الرومانى الذى كان يحكم مصر نائباً عن الإمبراطور البيزنطى هرقل،

وكان يجمع فى يده السلطتين الدينية والدنيوية قام مؤرخ غربى آخر اسمه بول لين بمحاولة التشكيك فى شهادة الفريد بتلر فقال: إن فى رأيه أن المقوقس يختلف تماماً عن فيرس، وأنهما شخصان، وليسا شخصاً واحداً..

وقال: إن المقوقس لم يكن قسيساً، وبالتالى لا يمكن أن يكون بطريركاً.

وكان فى رأى هذا المؤرخ أن العرب أطلقوا اسم المقوقس على كل حاكم جاء به الرومان لحكم مصر، وأن بعض المؤرخين العرب درجوا على إطلاق اسم جريج بن مينا، وأحياناً اسم ابن قرقب على بعض حكام الرومان لمصر، وبالتالى فقد أطلقوا على حاكم مصر الرومانى فى أيام النبى ﷺ اسم المقوقس، كما أطلقوا نفس الاسم على حاكمها فى وقت الفتح الإسلامى.

وبالتالى.. أصبح اسم المقوقس فى تلك الأيام صفة أكثر منه اسماً.

وقام بتلر بمناقشة آراء بول لين من خلال دراسة ما جاء فى أقوال بعض المؤرخين العرب متصوراً أنهم كانوا السبب فى الخلاف بينه وبين بول لين.

واسمعوا ما قاله بعض المؤرخين العرب القدامى حول هذا الموضوع:

** فرق الطبرى مثلاً فى إحدى رواياته بين المقوقس وحاكم مصر..

** وقال ابن عبد الحكم «حوالى عام ٨٥٠ ميلادية» بالحرف الواحد:

- عين هرقل ملك الروم المقوقس أميراً على مصر، وجعل إليه حربها وجباية خراجها..

** وقال البلاذرى «حوالى سنة ٨٠٩ ميلادية».. أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على عهد رده هرقل.. أى لم يوافق عليه..

وكان البلاذرى يقصد بذلك عقد الصلح بين المقوقس وعمرو بن العاص للانسحاب من حصن نابليون واستيلاء العرب عليه بلا قتال، وأيضاً اتفاقية إجلاء الرومان عن مدينة الإسكندرية بعد محاصرة قوات المسلمين لها.

واتفق البلاذرى فى ذلك مع نص جاء على لسان المؤرخ القبطى حنا النقيوسى عن أخبار فيرس!

** وقال اليعقوبى «سنة ٨٧٣ ميلادية» وهو لم يكن مصرياً، ولم يكن من أهل

مصر.. أن المقوقس عقد صلحًا مع عمرو بن العاص، وقد رد هرقل هذا الصلح.. أى رفض التصديق عليه!

** وذكر ياقوت «سنة ١١٧٨ - ١٢١٨ ميلادية».. أن المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد بين الرومان والمسلمين وأنه صالح عمرو بن العاص، وكان شرطه قبل تنفيذه أن يبعث بالعهد إلى الإمبراطور هرقل ليقوم بالموافقة عليه..

وكان هذا يعنى كما قال بتلر.. أن ياقوت كان يعتبر المقوقس حاكمًا لمصر..

** وقال المقريزى «سنة ١٣٦٥ - ١٤٤٢ ميلادية».. أن المقوقس الرومى كان واليًا على مصر، وأنه صالح عمرو بن العاص، وأن قائد حصن بابليون من قبل المقوقس كان اسمه الأعيرج.

وكان فى رأيه أن المقوقس كان حاكمًا للبلاد من قبل هرقل، ونائبًا للإمبراطور فى مصر!

وقال بتلر أيضًا نقلاً عن اثنين من المؤرخين الأقباط وأحدهما اسمه أبو صالح أنه كان فى رأى هذا المؤرخ أن المقوقس هو نفسه فيرس الذى ولاه هرقل على مصر، وأن السنوات العشر التى كان البطريرك بنيامين بطريرك الأقباط اليعقوبيين.. أى أقباط مصر فيها طريداً فى منفاه فى أحد كهوف الصحراء، هى نفسها السنوات العشر التى حكم فيها المقوقس مصر!

وبالتالى.. كان هو نفسه البطريرك الملكانى الذى اضطهد الأقباط اليعقوبيين بما فيهم البطريرك بنيامين الذى اضطر لترك مقر كنيسته فى الاسكندرية ليعيش فى منفاه فى قلب الصحراء.

** وكانت الشهادة الأخرى من المؤرخ العربى المسيحى سعيد بن البطريق «سنة ٨٧٦ - ٩٣٩ ميلادية» فقد كتب قبل زميله أبى صالح بثلاثة قرون يقول كلامًا غريبًا وهو أن المقوقس كان العامل على الخراج فى مصر من قبل الإمبراطور هرقل، وأنه كان يعقوبيًا يكره الروم، ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفًا من أن يقتله الروم!

ولم يقل هذا المؤرخ القبطى شيئًا إذا صحت روايته عن السبب فى اضطهاد المقوقس للأقباط المصريين، وهم من اليعقوبيين!

المهم.. كانت كل هذه الروايات هى السلاح الذى استخدمه الدكتور الفريد بتلر فى مواجهة زميله بول لين صاحب الرأى الآخر..

وكانت شجاعة من بول لين عندما اعترف صراحة بأنه كان مخطئًا.

وبالتالى قام بسحب جميع آرائه السابقة وطلب اعتبارها كأنها لم تكن!

* * *

وحقيقة أخرى جاءت فى كتاب الكاتب الصحفى المرحوم محمد صبيح عن عمرو بن العاص.. أنه يقول بالحرف الواحد:

– إن بطريرك الأقباط المصريين الذى هرب من اضطهاد الرومان من الأسكندرية، واختفى ليعيش فى أحد كهوف الصحراء، وقيل أنه كان يعيش فى أحد أديرة وادى النطرون، وكان اسمه بنيامين.. أو أبو ميادين، كما كان العرب يطلقون عليه، كتب إلى أقباط مصر عندما علم بقدوم قوات المسلمين تحت قيادة عمرو بن العاص لفتح مصر يقول لهم:

– إن الروم لن تقوم لهم دولة فقد انقطع ملكهم، وعليكم أن ترحبوا بعمرو بن العاص.

وبمعنى آخر.. أن تساعدوه حتى يتم انتصاره على قوات الروم!

ويقول محمد صبيح فى كتابه:

– أكد بعض المؤرخين العرب أن الأقباط المصريين كانوا فى مدينة الفرما أعوانًا لعمرو بن العاص وقواته الإسلامية، ويمكن القول.. إذا صح ذلك أن هؤلاء الأقباط كانوا أكبر عون فى عملية فتح عمرو بن العاص لمدينة الفرما أحد حصون مصر القوية فى الدفاع عن حدود مصر الشرقية!

ونقل المرحوم محمد صبيح رواية أخرى للطبرى تقول: إن راهبين من أتباع المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط الرومانى، ذهبا إلى عمرو بن العاص أثناء حصار قواته لمدينة بلبيس لمفاوضته باسم المقوقس فقال لهما عمرو:

– إن الله عز وجل بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأمره به، وأمرنا محمد ﷺ وأدى إلينا كل الذى أمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته، وقد قضى الذى عليه وتركنا

على الواضحة، وكان مما أمرنا الأعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضت عليه الجزية، وبدلنا له المتعة، وقد أعلمنا عليه الصلاة والسلام أننا مفتتحوكم، وأوصانا بكم، حفظًا لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا لذلك ذمة إلى ذمة.. ومما عهد إلينا أميرنا.. استوصوا بالقبط خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحما وذمة.

فرد عليه أحد الراهبين قائلاً:

– أنها قرابة بعيدة، ويرجع تاريخها إلى أيام سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء.

وأدرك عمرو بن العاص.. أنهما يقصدان هاجر المصرية التى تزوجها سيدنا إبراهيم، وهى أم سيدنا إسماعيل، ولذلك بادر يذكرهما أيضًا بمارية القبطية التى تزوجها الرسول ﷺ بعد أن أشهرت إسلامها، وأنجب منها ابنه إبراهيم.

وهنا طلب الراهبان من عمرو بن العاص أن يعطيهما الأمان حتى يقوما بمناقشة الموضوع مع قومهم.

ووافق عمرو بن العاص على منحهما ثلاثة أيام، ثم زادهما يومًا رابعًا بناء على طلبهما، وهو يقول لهما:

– لكما ما تريدان حتى ننظر أمركما ولتناظرا قومكما، وإلا ناجزناكم.. أى حاربناكم!

ويقول محمد صبيح فى كتابه.. إن المقوقس الذى كان يعيش داخل حصن بابليون كان على استعداد بعد أن رجع الراهبان إليه ليبلغاه رسالة عمرو بن العاص بالموافقة على التصالح مع القوات الإسلامية، إلا أن القائد الرومانى الذى كان العرب يطلقون عليه اسم «أرطبون» وكانت صحة اسمه «أربطيون»، وهو حاكم مدينة بيت المقدس الذى هرب من مصر قبل أن يقوم المسلمون بفتحها، أصر على أن يقاتل.

وهكذا دارت المعارك الحامية التى وقعت بين قوات المسلمين والرومان حول مدينة بلبيس لمدة شهر كامل، وقد انتهت بأن دارت الدائرة على القائد الرومانى الذى هزم وتمزقت قواته..

وهرب من تبقى من هذه القوات لكى يحتمى من جديد داخل حصن بابليون!

* * *

ومع وفاة الإمبـراطور هرقل الأول فى يوم ١١ فبـراير ٦٤١ ميـلادية، أخـذت الأحداث تتلاحق فى القسطنطينية.

وكما يقول المؤرخون.. تولى حكم الإمبراطورية الرومانية من بعده ثلاثى مكون من ولدين من أولاده.. قسطنطين ابن زوجته أورقية.. وهرقل ابن زوجته الأخرى مرتينيه، وكانوا يطلقون عليه اسم «هرقيناس» تمييزًا له عن اسم والده الإمبراطور هرقل الذى توفى.

وأرادت مرتينيه أو الإمبراطورة مرتينيه أن يكون لها دور إلى جانب قسطنطين وهرقيناس وأن تشاركهما فى الحكم، ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل.

ولعب الصراع على السلطة دورًا مثيرًا بين الثلاثة، وكان المقوقس حاكم مصر وعظيم القبط فيها الذى اتهمه الإمبراطور هرقل بالخيانة، وأمر بعزله من منصبه ونفيه قبل وفاته أحد أوراق اللعب فى هذا الصراع..

وكان قسطنطين قد جاء بالمقوقس من المنفى لاستشارته بشأن موقف الإمبراطورية فى مواجهة الفتح الإسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص.

وقال قسطنطين.. أنه لن يتنازل عن مصر، وأنه فى سبيل إعداد جيش كبير لإرساله إليها واستعادتها، وبمعنى آخر.. طرد القوات الإسلامية منها.

وحاول المقوقس.. أو فيرس «اسمه الأصلى»، إقناع قسطنطين بأن هذا الجيش لن يحقق أى انتصارات للإمبراطورية الرومانية.

وقال له صراحة.. أن العرب الذين حققوا انتصاراتهم على الفرس والرومان فى سوريا وفى فلسطين، وفى بلاد ما بين النهرين لن يهزموا فى مصر!

وأن قسطنطين سوف يلقى بهذا الجيش فى التهلكة!

وفجأة وبينما كانت المناقشات على أشدها بين قسطنطين والمقوقس اعتلت صحة الإمبراطور الرومانى الجديد، وأخذ جسمه فى الضمور ليموت فى يوم ٢٥ مايو سنة ٦٤١ ميلادية.. أى بعد حوالى ١٠٠ يوم من تولية الحكم.

وارتفعت أصوات كثيرة تتهم الإمبراطورة «مرتينيه» زوجة هرقل الثانية بقتل قسطنطين!

وتردد أن وفاته كانت بالسم!

وكان طبيعيًا أن ينفرد «هرقيناس» الابن الثانى للإمبراطور هرقل بحكم الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة أخيه..

وانتهز المقوقس الفرصة فقام بإقناع الإمبراطور الجديد بالموافقة على إخلاء مصر نهائيًا وتسليمها إلى العرب بلا قتال بحجة استحالة مقاومة العرب أو الدفاع عنها!

* * *

وكان عمرو بن العاص قد قام بعد سقوط حصن بابليون على رأس قواته الإسلامية بعملية اجتياح سريعة لمنطقة الوجه البحرى.

ووقع أول صدام بين القوات الإسلامية والرومان عند مدينة كان يطلق عليها اسم «نقيوس» بالقرب من مدينة منوف.

وكانت هذه المدينة من معاقل الرومان الحصينة فى قلب الدلتا، إلا أن القوات الرومانية التى كانت متمركزة فيها لم تصمد طويلاً أمام ضربات قوات المسلمين، واضطرت للفرار من المدينة فى اتجاه الإسكندرية.

وفى الطريق إلى الإسكندرية فتح عمرو بن العاص بلدة طرنوط واسمها الآن الطرانة، ومن هذه البلدة أرسل عمرو أحد قواده وهو شريك بن سمى للقاء الروم عند بلدة الكوم فأحتل حصنها الذى يطلق عليه الآن اسم كوم شريك..

وواصلت قوات عمرو بن العاص تقدمها لتدور معارك ضارية أخرى بين قواته وقوات الرومان أمام أحد الحصون الرومانية القوية، وكانوا يطلقون عليه اسم «الكريون».. واستمر القتال حول هذا الحصن لمدة عشرة أيام كاملة ولقى المقاتلون العرب عناءً كبيرًا حتى تمكنوا من التغلب على قوات الرومان.

ووصلت قوات المسلمين إلى مشارف مدينة الأسكندرية ليضرب عمرو بن العاص حصارًا حول المدينة من ناحية البر، وكان وقت بداية الحصار فى فصل الصيف، ولم يكن فى وسع القائد العربى أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها عنوة، ولذلك قام بتدعيم حلقات حصاره حول المدينة على أمل أن يضعف هذا الحصار من عزائم المدافعين عنها من قوات الرومان.

وكان فى تصور عمرو بن العاص أن قوات الرومان لن يكون أمامها إلا أن تخرج من المدينة لقتال قواته فى السهول التى تمتد أمامها حتى يتسنى له تحقيق الانتصار عليها.

وقام عمرو بن العاص بعد أن أحكم حصاره على المدينة من ناحية البر بإعادة تنظيم قواته بتجميعها فيما يشبه المعسكرات حول القصور الكثيرة التى كانت منتشرة خارج حصون المدينة..

وقام عمرو بن العاص فى نفس الوقت على رأس قوة من فرسانه بالتحرك فى اتجاه جنوب مصر. وكانت حملة ناجحة وسريعة استطاع أثناءها السيطرة على منطقة الصعيد.

واستمر الحصار حول الإسكندرية أربعة أشهر لم تنقطع أثناءها الغارات والمعارك بين المسلمين والرومان حتى قلق الخليفة عمر بن الخطاب وأرسل إلى عمرو بن العاص كتابًا يطلب إليه أن يقوم هو ومن معه بفتح الإسكندرية مهما كان الثمن..

وعاد عمرو بن العاص إلى حصن بابليون من حملته فى جنوب مصر، ليجد فى انتظاره مفاجأة لم يكن يتوقعها، وهى أنه وجد المقوقس الذى كان قد سافر إلى القسطنطينية ثم انقطعت أخباره، قد جاء خصيصًا إلى حصن بابليون لمقابلته.

ويصف الدكتور الفريد بتلر فى كتابه: فتح العرب لمصر.. اللقاء بين عمرو بن العاص والمقوقس بأنه كان مثيرًا للغاية.

وقال عن ذلك اللقاء بالحرف الواحد:

- جاء المقوقس إلى حصن بابليون حاملاً إلى عمرو بن العاص عقد الإذعان والاستسلام!

ومن ناحية أخرى حاول المؤرخ العربى ابن قتيبة أن يحدد تاريخ هذا اللقاء فقال:

- إن عمرو بن العاص عاد من حملته فى مصر السفلى إلى حصن بابليون فى شهر دى القعدة سنة ٢١ هجرية.

ويقع هذا الشهر الهجرى بالضبط بين يومى ١٢ أكتوبر و١٠ نوفمبر سنة ٦٤١ ميلادية!

* * *

وتكلم المقوقس ليقول لعمرو بن العاص.. أنه وصل إلى الإسكندرية بسفينة حملته من القسطنطينية بتكليف من الإمبراطور هرقيناس وأنه أمضى فى المدينة عدة أيام ثم تسلل منها بعيداً عن مراكز مراقبة حصار المدينة بواسطة القوات الإسلامية ليلتقى به فى حصن بابليون.

وقال: أنه جاء بتعليمات صريحة من الإمبراطور الرومانى الجديد ليعرض عليه المصالحة بين العرب والرومان..

ورد عليه عمرو بن العاص قائلاً:

- أحسنت بالشخوص إلينا.. أى التوجه إلينا!

وقام القائد العربى بالترحيب بالرجل وبعد أن أكرم وفادته دار حديث طويل بينهما حول تفاصيل المصالحة التى يريدها الرومان.

ويقول الدكتور الفريد بتلر فى وصفه ذلك اللقاء التاريخى أن المقوقس قال لعمرو ابن العاص:

- إن الله أعطاكم هذه الأرض.. أى أرض مصر فلا تدخلوا بعد اليوم حرباً مع الرومان!

كما قال له: إن الناس وافقوا على دفع الجزية لكم حتى تقف رحى الحرب!

وكانت مناقشات استغرقت عدة أيام، وقد انتهت بالاتفاق فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ٦٤١ ميلادية، ويواكب ذلك التاريخ اليوم قبل الأخير من شهر ذى القعدة سنة ٢١ هجرية على كتابة النص الكامل لاتفاقية المصالحة بين العرب والرومان.

وأطلق على هذه الاتفاقية اسم «صلح الاسكندرية» للتمييز بينها وبين اتفاقية تسليم حصن بابليون التى قام المقوقس بعقدها مع القوات الإسلامية ورفض الإمبراطور هرقل التصديق عليها، وكانت السبب فى اتهام الإمبراطور له بالخيانة، ثم أصدر قراره بعزله من منصبه كحاكم مصر ونفيه.

وأجمع المؤرخون القدامى على أن الاتفاقية الجديدة وهى اتفاقية صلح الاسكندرية، وإن كانت تنص أساساً على انسحاب قوات الرومان من مدينة الاسكندرية والجلاء عنها إلا أن القوات الإسلامية قد أتمت بتنفيذها عملية فتح مصر!

وتقول أهم شروط الاتفاقية الجديدة:

أولاً: تعقد هدنة لمدة ١١ شهراً تنتهى فى أول بابة القبطى الذى يوافق يوم ٢٨ من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية.

ثانيًا: تبقى قوات العرب فى مواقعها خلال فترة الهدنة على أن لا تسعى لقتال القوات الرومانية فى الإسكندرية وعلى هذه القوات من جانبها أن تكف عن القتال.

ثالثًا: ترحل القوات الرومانية المتواجدة فى مدينة الاسكندرية قبل انتهاء مدة الهدنة عن طريق البحر على أن تحمل معها جميع أمتعتها وأموالها ولكل من أراد منها الرحيل عن طريق البر أن يدفع جزءاً من الجزية عما تبقى له فى أرض مصر فى رحلته عن كل شهر.

رابعًا: أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر، أو أن يسعى لاستردادها..

خامسًا: أن يحفظ المسلمون كنائس المسيحيين، وألا يتدخلوا فى أمورها أى تدخل.

سادسًا: أن يسمح لليهود بالإقامة فى الاسكندرية.

سابعًا: أن يسلم الرومان ١٥٠ من جنودهم و١٠٠ من غير الجند كرهائن ضمانًا لنفاذ العقد.

ثامنًا: أن يدفع الجزية كل من له علاقة بالعقد.

ويقول الدكتور الفريد بتلر.. اختلف العرب فى تقدير عدد الذكور من أهل مصر، وبالتالى اختلف تقديرهم حول ما يمكن أن يحصلوا عليه من هذه الجزية، إلا أن اتفاقية المصالحة مع الرومان شملت فيما يتعلق بالجزية كل الضمانات من جانب العرب بالنسبة للأقباط المصريين من أهل البلاد الأصليين فى أنفسهم وبالنسبة لأموالهم وكنائسهم، كما أباحت لهم ممارسة طقوس دياناتهم كما يشاؤون لأن دفع الجزية والأموال جعلت منهم أهل ذمة وبمعنى آخر أن تصبح لهم نفس الحقوق على الفاتحين.

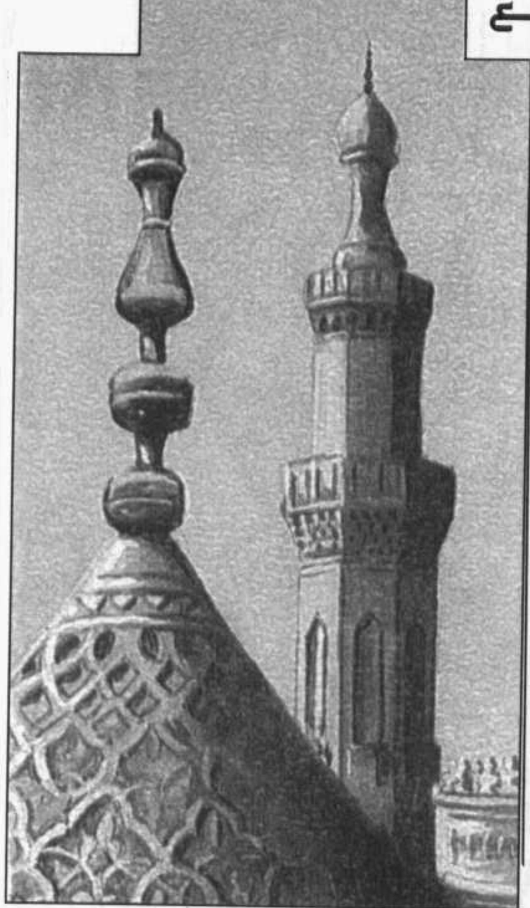
وقدرت الجزية بدينارين عن كل رجل إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير، وبلغت قيمة الجزية التى تم الاتفاق عليها ١٢ ألف دينار! ■



ومع استسلام الاسكندرية أعلن عمرو بن العاص عهد الأمان للأقباط المصريين وأرسل إلي البطريرك بنيامين يدعوه للعودة إلي كنيسته ليباشر مصالح رعاياه فى حرية وأمان..



الفصل السابع



عهد الأمان الذى قطعه عمرو بن العاص على نفسه للأقباط المصريين!

7

- رسول من عمرو بن العاص إلي الخليفة عمر بن الخطاب يبلغه البشري بالاتفاق علي تسليم الإسكندرية بلا قتال!
- كان القواد الرومان يريدون الحرب ضد العرب .. وفجأة قالوا.. نعم للانسحاب من مصر...!!
- المقوقس يبكي أمام المتظاهرين الرومان عندما اتهموه بالخيانة بسبب الاتفاق علي انسحابهم من الاسكندرية!



قال الطبرى . . إن عمرو بن العاص قطع على نفسه فى سنة ٢٠ هجرية عهدا للمصريين . . وكان يعنى الأقباط المصريين قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . . هذاما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وعلى ملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم . . برهم وبحرهم . . لا يدخل عليه شيء فى ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوب «أهل النوبة» . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح . وانتهت زيادة نهرهم أى بعد انتهاء موسم الفيضان خمسين ألف دينار، وعليهم ما جنى لصوصهم . فإن أبى أحد منهم إن يجيب دفع منهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وإن نقص نهرهم من غايته - أى انتهى موسم الفيضان رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب «أهل النوبة»، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . . أى دائرة نفوذنا، عليهم ما عليهم اثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوبة «أهل النوبة» الذين استجابوا أن يبعثوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة .

وتقول الشواهد التاريخية أن هذا العهد كان صحيحا، وقد أعلن فعلا بعد الاتفاق الذى عقده المقوقس مع عمرو بن العاص، وانتهى باستسلام حصن بابليون بلا قتال . .

وكانت قناعة عمرو بن العاص . . إن كلمة مصر التى جاء ذكرها صراحة فى القرآن الكريم عدة مرات، يقصد بهامدينة منف . .

وكان رأيه أن من يسيطر على هذه المدينة فعلا يصبح حاكما و ملكا على مصر . .

وكانت مدينة منف تقع إلى الجنوب من حصن بابليون فى اتجاه الوجه القبلى الذى كان أرضا تابعة لملك مصر، أما الإسكندرية فقد كانت عاصمة رومانية، ولم يكن للمصريين بها أية علاقة أو نصيب!

وقام عمرو بن العاص على أثر عقد الاتفاق الذى اشتهر باسم صلح الاسكندرية بتكليف أحد معاونيه، وكان اسمه معاوية بن خريج الكندى بالسفر إلى المدينة

المنورة لينقل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تفاصيل ما تم الاتفاق عليه فى هذا الصلح..

وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يكتب رسالة إلى أمير المؤمنين يبلغه فيها بنفسه هذه التفاصيل، ولكن عمرو بن العاص لم يرحب باقتراح كتابة هذه الرسالة، وقال للرجل:

- ماذا عساى أن أقول لأمير المؤمنين فى مثل هذه الرسالة؟.. ألست أنت عربيا وواحدا منا، وفى وسعك أن تصف لأمير المؤمنين أمرا شهدته؟..

ولم يقل معاوية بن خريج الكندى شيئا، وقام بركوب دابته التى حملته فى رحلته الطويلة عبر سيناء.. ثم فى أرض مدين حتى وصل إلى المدينة المنورة..

وكان وصول الرجل إلى المدينة بعد انقضاء صلاة الظهر، فنزل من فوق دابته عند مدخل المسجد القريب من بيت أمير المؤمنين، ثم ألقى بنفسه بجوار باب المسجد ليستريح قليلا من عناء السفر قبل أن يطلب مقابلة أمير المؤمنين، وشاهدته فى تلك اللحظة جارية كانت خارجة من بيت أمير المؤمنين، وقد أثار مظهره انتباهها، فقد كان غريبا عن المدينة، وكان منهوك القوى من آثار رحلته فى الصحراء، فما كان منها إلا أن اقتربت منه، ثم سألته بدافع الفضول عن حالته، ولما عرف أنها جارية أمير المؤمنين طلب إليها إبلاغه بأنه قادم من مصر، وأنه مبعوث إليه من عمرو بن العاص..

وعادت الجارية إلى الدار، وما لبثت أن رجعت بسرعة، وكانت تهرول، وهى تطلب إلى معاوية أن يتبعها إلى داخل الدار لمقابلة أمير المؤمنين..

والتفت عمر بن الخطاب إلى معاوية بعد أن رحب به وهو يقول له: ماذا حملت معك إلينا من أخبار؟...

ورد معاوية على أمير المؤمنين قائلا:

- هنيئا يا أمير المؤمنين.. فتح الله علينا الإسكندرية..

وأخذ أمير المؤمنين يحمد الله على هذا الانتصار الجديد لقوات المسلمين، وبعدها أخذ يسأل مبعوث عمرو بن العاص عن تفاصيل إتفاق صلح الاسكندرية. وبعدها قام من مكانه، وهو يردد كلمات الشكر والحمد لله، ثم اصطحب الكندى إلى المسجد حيث طلب إلى المؤذن أن يدعو الناس للصلاة جامعة.

وتوافد المسلمون على المسجد، ولما احتشدت جموعهم طلب أمير المؤمنين إلى الكندى أن يبشرهم باتفاقية صلح الاسكندرية، وبعدها ألقى أمير المؤمنين خطبة فى المسجد قال فيها : إنها البشرى لأن استسلام الاسكندرية يعنى أن عملية فتح مصر قد أوشكت على الانتهاء وعندها يكون النصر الكبير من الله للمسلمين..

وأنقل عن مقال نشره شيخ العروبة أحمد زكى باشا فى جريدة الأهرام فى العشرينات من القرن العشرين أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اصطحب معاوية الكندى بعد أن بشر المسلمين بفتح مصر إلى بيته حيث طلب إلى جاريته أن تقدم الطعام إلى رسول عمرو بن العاص.

قال إن الجارية غابت قليلا، ثم جاءت بالطعام وكان عبارة عن خبز وزيت..

وأخذ أمير المؤمنين يقدم بنفسه الطعام إلى ضيفه وهو يقول له:

- أظن.. أن هذا هو كل ما عندنا فى الدار..

وأمسك معاوية، وهو فى أشد حالات الاستحياء كسرة من الخبز ثم غمسها فى الزيت وأكلها، وعاد أمير المؤمنين يقول لمعاوية:

- عليك أن تأكل لأن المسافر يحب الطعام، ولولا أننى سبقتك فى تناول طعامى لأكلت معك.

واستأنف معاوية غمس الخبز فى الزيت ثم أخذ يأكل فى حياء..

وسأل أمير المؤمنين الجارية، هل عندك تمر؟

واختفت الجارية لعدة دقائق، ثم جاءت بصحن به عدة تمرات، ثم قدمتها إلى معاوية وتناول الرجل تمرتين، وأكلهما فى صمت..

وقال شيخ العروبة أحمد زكى باشا فى مقاله.. إن هذا الطعام كان أطيب وأشهى ما فى بيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من مأكولات.

وقال.. إن فى رأيه.. أن هذا الطعام الذى كان يتكون من الخبز و الزيت والتمر، كان أول سماط فى الإسلام..

ويقول بعض المؤرخين القدامى.. إن رسول عمرو بن العاص حاول أن يعتذر لأمير المؤمنين لأنه لم يبادر بإبلاغه بالأنباء الطيبة التى جاء بها عن اتفاقية صلح الاسكندرية، بمجرد وصوله إلى المدينة المنورة، وكان أن قال له: إنه وصل المدينة فى

وقت القيلولة، وكان فى تصوره أن أمير المؤمنين يستجم فى ذلك الوقت ورد عليه عمر بن الخطاب قائلا:

- بئس ما قلت، وبئس ما ظننت، لأننى إذا نمت النهار ضيعت الرعية، وإذا نمت الليل ضيعت نفسى، فكيف يكون النوم لى فى الحالتين.

وهكذا عرفت المدينة المنورة بتفاصيل اتفاقية صلح الاسكندرية، وكيف تلقى أمير المؤمنين هذه التفاصيل بدون ضجة، وبغير ضوضاء.

* * *

ونقول.. وماذا عندما عرف الرومان فى الاسكندرية بتفاصيل المصالحة التى عقدها المقوقس مع عمرو بن العاص؟

والجواب على ذلك كما قال بعض المؤرخين القدامى.. إن هذه المصالحة عقدت داخل حصن بابليون وكان لابد أن يتم التصديق عليها من كل من أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ومن الأمبراطور «هرقليناس» ملك الروم الجديد..

وكانت مدة الهدنة وهى ١١ شهرا كافية، كما كان فيها متسع من الوقت لكى يتم خلالها الموافقة على الاتفاقية والتصديق عليها من الطرفين..!

وكما أوفد عمرو بن العاص معاوية الكندى إلى المدينة المنورة لابلاغ أمير المؤمنين بتفاصيل ما تم الاتفاق عليه، توجه الطرف الآخر. وهو المقوقس بنفسه إلى الاسكندرية حاملا نسخة من اتفاقية المصالحة وكان أول ما فعله هو إرسالها الى الامبراطور هر قليناس ملك الروم فى القسطنطينية للتصديق عليها.

وقام المقوقس فى نفس الوقت بإبلاغ هذه التفاصيل الى تيودور الذى كان الأمبراطور الرومانى هرقل قد عينه قائدا للقوات الرومانية فى مصر بعد أن اتهم المقوقس بالخيانة، وأمر بعزله من منصب الحاكم العام لمصر ونفيه..

وكان تيودور هو نفسه قائد حامية بيت المقدس الذى هرب إلى مصر بعد أن استسلمت المدينة المقدسة وقيام قوات المسلمين بالاستيلاء عليها بدون قتال..

وهو الذى كان قائدا لقوات الرومان فى حصن بابليون، وهزمته قوات عمرو بن العاص فى معركة هليوبوليس.. مما أدى إلى تشريد قواته.

وكانت أخبار تيودور قد انقطعت أثناء المعركة ولم يعرف أحد بمصيره بعد المعركة.. وقام المقوقس بإبلاغ شروط الاتفاقية أيضا إلى قسطنطين قائد الحرس الرومانى فى الاسكندرية، وكان هذا القائد هو المسئول المباشر عن الدفاع عن المدينة..

وكانت المفاجأة عندما وجد أن الاثنين وكانا على جانب كبير من الحماس لاستمرار الحرب بين العرب والرومان، على قناعة بما جاء فى شروط اتفاقية المصالحة بين العرب والرومان..

ويقول بعض المؤرخين العرب، إن المقوقس قام بدعوة كبار قواد الجيش الرومانى وكبار الشخصيات العامة فى الاسكندرية إلى اجتماع تحدث فيه طويلا عن أهمية هذه الخطوة بعد أن تأكد للجميع بما فيهم الامبراطور هرقليناس نفسه بأنه لا جدوى من القتال..

وكان طبيعيا أن تنتشر تفاصيل الشروط التى تضمنتها اتفاقية المصالحة بين جماهير الرومان فى الاسكندرية.

وأثارت هذه الشروط فى بادئ الأمر غضب الجماهير، فقامت بمحاصرة قصر المقوقس فى الاسكندرية ثم أخذت تهتف بسقوطه وتتهمه بالخيانة ..

وارتفعت الاصوات التى كانت تطالبه بالتراجع عن موقفه..

وأصبحت حياة المقوقس فى خطر..

ويقول الدكتور الفريد بتلر:

- ارتفعت الأصوات تتهم المقوقس بالخيانة، والتآمر ضد الشعب الرومانى فى الاسكندرية، ولكنه استطاع بسبب علو قدره ومكانته بين الناس بالإضافة إلى كبر سنه أن يهدئ من ثورة الجماهير ضده ولم يكن غريبا عندما أطل الرجل على الجماهير من شرفة قصره، ثم إشار إليها بيده، أن أخذت الأصوات الصاخبة فى الصمت والهدوء..

وتكلم المقوقس، وقد استطاع بالمنطق، وبما أوتى به من بلاغه وفصاحة تخفيف حدة الاتهامات التى كانت الجماهير توجهها إليه..

وأخذ المقوقس يبرر موقفه قائلاً:

- لقد اضطررت لركوب الصعب اضطرارا وما قصدت إلا مصلحة الشعب الرومانى، وفائدة أبنائه..

وقال لهم.. إن العرب لم يقم فى وجههم أحد إلا انتصروا عليه وقد أراد الله ان يملكوا مصر.. وبالتالى لم يكن أمام الروم إلا أن يصالحوهم، فإن لم يفعلوا جرت الدماء فى طرقات مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقى حيا خسر ما كان يملك وضاع أمره، وقد جاء الصلح ليحفظ دماء جماهير الشعب الرومانى، ويحقق أمنها على نفسها وأموالها وأديانها..

وقال لهم: إن من أراد أن يعيش على أرض مسيحية له الخيار فى ترك الاسكندرية.

وهكذا تكلم الرجل بصراحة ووضوح، وكان واقعيا فى ظل ما تحدث به إلى جماهير الشعب الرومانى.. ويقول بتلر: لم يتمالك المقوقس نفسه فأخذ يبكى أمام جماهير الشعب الرومانى، وهو يقول، لم يكن الخيار بين الهجرة من مصر و بين الأذعان للمسلمين بالأمر الهين، ولذلك أريدكم أن تصدقونى.. وأن تثقوا بى..

ولم يتمالك المقوقس السيطرة على أعصابه، فأخذ يبكى بصوت مرتفع، وكان واضحا أنه كان يتظاهر بأنه لم يعد مالكا السيطرة على نفسه من شدة التأثر بالموقف..

وهتفت جماهير الشعب الرومانى فى الاسكندرية تؤيد المقوقس بعد أن كادت تطالبه بالاستقالة وتهدد حياته بالخطر..

وهكذا استطاع الرجل أن يكسب هذه الجماهير إلى جانبه.. وكانت المفاجأة الكبرى عندما جاء الموعد الذى كان محددا لدفع القسط الأول من الجزية ، وهو اليوم الأول من المحرم سنة ٢١ هـ، وكان يوافق يوم ١٠ ديسمبر من عام ٦٤١م، عندما تسابق أهل الاسكندرية من الرومان فى جمع قسط الجزية التى فرضت عليهم، وقد زادوا عليها مقداراً كبيراً من الذهب، وبعدها قاموا بوضعها فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى للمدينة، وقد استقلها المقوقس بنفسه ليقوم بتسليم الجزية إلى عمرو ابن العاص..

ووافق الامبراطور الرومانى هرقليناس فى أثناء فترة الهدنة على اتفاقية المصالحة بين العرب والرمان..

وكانت موافقته على هذه الاتفاقية هي آخر قرار اتخذه في حياته فقد توفى في شهر نوفمبر من نفس السنة الميلادية . .

ومات المقوقس أيضا بعد عدة أشهر . . أى قبل انقضاء مدة الهدنة التى كان محددا لها ١١ شهرا، وبالتالى لم يشهد فتح العرب لمدينة الاسكندرية ودخولهم فيها بلا قتال وهم يكبرون ويتصايحون . . الله أكبر . . الله أكبر . .

ويقول بتلر عن وفاة المقوقس بالحرف الواحد !

- استولى الغم على المقوقس وغرق فى الحزن ، إذ كانت الاخبار تتلاحق عليه فى القسطنطينية بأن حملة عنيفة اشتدت ضده مما أدى إلى تزايد مخاوفه من أن يأمر الامبراطور الجديد بنفيه أو قتله ، وكان أمره فى ذلك الوقت نافذا فى الاسكندرية ، ثم رأى نفسه ، وقد عجز عن محو أثر اضطهاده من نفوس القبط المصريين أو محاولة استمالتهم إليه ، وأصبح فى تصوره أن سياسته فى أمور الدنيا قد أصابها العار بالرغم من انتصاره فيها فأثقل على ذلك نفسه ، وأخذ ضميره يؤنبه على تفريطه فى أمر مصر ، وبكى على تضييعه لها بالدمع وأخذت الهموم تحيط به حتى أصيب بداء الدوسنتاريا فى يوم أحد السعف ومات بعد أن تدهورت صحته بعد أن اشتدت حالة المرض عليه فى يوم الخميس الموافق الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ٦٤٢م .

وكان أمير المؤمنين قد بعث برسالة إلى عمرو بن العاص يبلغه فيها موافقته على اتفاقية التصالح بين العرب والرومان، وأجاب فى هذه الرسالة على اقتراح للزبير بن العوام باعتبار كل ما وجد داخل الاسكندرية غنيمة يجب تقسيمها بين المقاتلين المسلمين . .

وكان فى رأى الزبير بن العوام أن تقوم القوات الإسلامية باقتحام المدينة عنوة باعتبارها لن تستلم بدون قتال ، وبالتالى اقترح أن يتم توزيع كل ما سوف يوجد فيها من كنوز وآثار وأملاك وآدميين كغنائم حرب !

وكان عمرو بن العاص قد رفض الموافقة على ذلك على أساس أن الإسكندرية لم تفتح عنوة . . أى بعد قتال وفقا لاتفاقية التصالح التى نصت على استسلامها بدون قتال !

وطلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين أن يقول رأيه فى اقتراح الزبير بن العوام .

وقال عمر بن الخطاب فى رسالة إلى عمرو بن العاص بالحرف الواحد :

- لعمرى قائمة أحب إلينا من غنيمة تقسم، ثم كأنها لم تكن، وأما السبى فإن أعطاك ملكهم الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم منهم بين الإسلام فهو من المسلمين، ومن اختار دين قومه فرضت عليه الجزية.. وما من تفرق فى البلدان فإنا لا قدر على ردهم فافعل...

وكان هذا يعنى.. أنه لم يوافق على تحويل كل ما عثر عليه فى الإسكندرية الى غنائم..

* * *

وكان عمرو بن العاص موجودا داخل حصن بابليون..

ويروون أنه وقف فوق أسوار الحصن العتيد، وكان فى أعلى ذروة من انتصاراته، وأخذ يردد بصوت مسموع:

- الحمد لله.. الحمد لله..

كان تصوره أن الدنيا كانت فى تلك اللحظة تشخص إليه بأبصارها..

وكان النيل الهادى العميق يجرى من تحت أسوار حصن بابليون ليبدو أنه السيد الحقيقى الذى تغلبت على يديه أحداث تلك الأيام.

ونظر عمرو بن العاص إلى النيل، ومد بصره معه يتابع حركة مياهه، و فجأة تحولت رؤياه قليلا فإذا هو تائه فى المساحات الخضراء من الأراضى الزراعية الخضراء الشاسعة.. وهذه الحياة، وإذا الريح تهمس فى أذنيه بألحان خالدة تقول له.. أيها الأمير.. إنه أحد أسرار مصر..

وينتقل عمرو بن العاص ببصره ليشاهد الصحراء تجاوره، وإذا هى فى رهبتها وصمتها وقسوتها التى كابدت قواته الإسلامية أياما وأسابيع وشهورا طويلة فى اقتحامها..

ولعل سؤالاً راود عمرو بن العاص فى لحظة انتصاراته.. يقول له:

- أيها الأمير، ماذا أنت صانع بعد أن دانت لك هذه الأرض التى عزت لدى الله ولدى أنبيائه، وكانت وماتزال محور التاريخ كله.. هل ستعمل كما فعل من قبلك من الغزاة فتسومها وتسوم أهلها سوء العذاب وقد باد هؤلاء الغزاة، وبقيت مصر؟

وكان جواب عمر بن العاص على السؤال.. لا.. وألف لا.. فقد جئت إلى مصر

التى استقبلتنى وفى يدى شفيع.. وهو الإسلام الذى ارتضيناه دينا لنقفز بحاضرها إلى ذروة المجد الذى كان لها منذ قدم الزمان!

وهبط عمرو بن العاص من فوق أسوار الحصن ثم استدعى كاتبه وكان اسمه وردان، و أملاه رسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له فيها بالحرف الواحد:

- يا أمير المؤمنين.. اعلم إن مصر قرية غبراءوشجرة خضراء طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر وأمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات.. ميمون الروحات، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان يدر حلابة، ويكثر فيه ذابه تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخامل.. ورق الأصائل، فإذا تكامل فى زيادته فكفى على عقبيه كأول ما بدا فى حريته، وطلما فى درته، فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطن الأرض، ويبذرون بهاالحب.. يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم فنالوا منهم بغير جهدهم، فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغداه من تحته الثرى.. فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء، فإذا هى ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء.. الذى يصلح هذه البلاد وينميها، ويعز قاطنيها، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، ولا يستأذى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعفت ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمال.

* * *

ونعود مرة أخرى إلى مدينة الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص على ضفاف النيل فى المنطقة المعروفة الآن باسم مصر القديمة..

إن بعض المؤرخين العرب القدامى يقول.... كان عمرو بن العاص عندما قرر التحرك إلى الاسكندرية لقتال الرومان الذى كانوا يتحصنون بها بعد استسلام حصن بابليون واحتلال قوات المسلمين له بلا قتال، قد أمر بفك فسطاطه..

والفسطاط.. اسم كان العرب يطلقونه على الخيمة المصنوعة من شعر الإبل، وكان مقصودا بفسطاط عمرو بن العاص هو الخيمةالتى كانت مخصصة لإقامته، وكان يتخذها مقرا لقيادته. ■





الفصل الثامن

بأمر أمير المؤمنين: مرتب عمرو بن العاص ١٦,٥ دينار شهريًا أثناء عملية فتح مصر!

8

- حكاية اليمامة التي كانت السبب في اختيار موقع مدينة الفسطاط أول عاصمة للحكم الإسلامي في مصر!
- ما هي القواعد المتشددة التي التزم بها أقباط مصر في تعاملهم مع المسلمين بعد فتح مصر؟.
- عمر بن الخطاب يطلب من عمرو بن العاص التشاور مع بطريرك الأقباط حول مشاكله في حكم مصر



جاء فى النظام المالى الذى وضعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للحكم الإسلامى فى مصر تحديد راتب عمرو بن العاص بمبلغ مائتى دينار فى السنة طالما بقى قائداً للقوات الإسلامية وواليا على مصر.. أى حوالى ١٦,٥ دينار فى كل شهر..

ويروى بعض المؤرخين العرب القدامى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوصى عمرو بن العاص عندما أبلغه قرار تحديد راتبه بقوله:

- اعلم يا عمرو أن الله يراك، ويرى عملك، فقد قال الله تبارك فى كتابه: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وكتب عمر بن الخطاب مرة إلى عمرو بن العاص يقول له:

- يريد أن يفتدى به، وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم. وأوصى بالقبط، فقال: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً.. ومن ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه حتى يوم القيامة».

ثم استطرد أمير المؤمنين يقول لعمرو:

- احذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصماً لك، فإن من خاصمه صار خصمه!

وقال أمير المؤمنين له أيضاً:

- والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة، وأنست من نفسى ضعفاً، وانتشرت رعيتى، ودق عظمى، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً، أن أسأل عنه!

وبمعنى آخر أراد أمير المؤمنين أن يقول لعمرو:

- إذا تسببت أنت فى موت جمل بسبب إرهاقك له فى العمل، فإنى سوف اعتبر نفسى مسئولاً أمام الله عن موت هذا الجمل.. وبالتالى.. ماذا ستكون مسئوليتك أمام الله!

وقال المرحوم الكاتب الصحفى محمد صبيح فى كتابه عن عمرو بن العاص بالحرف الواحد:

- بالرغم من كل هذا الرفق بأهل الذمة. فقد كانت هناك قواعد وشروط للتعامل معهم، ويمكن تلخيصها فيما يلى:

١ - أن لا يتزوج مسيحى من مسلمة..

٢ - ألا يضر مسيحى بمسلم أو يغريه على أن يرتد عن الإسلام، وألا يؤذى مسلمًا فى ماله ولا فى نفسه..

٣ - ألا يوالوا أعداء الإسلام، ولا ينصروهم أو أن يقوموا بتكريم أغنيائهم.

٤ - ألا يلبس أهل الذمة لباسا يميزهم، أو يعقدوا الزنانير فى أوساطهم..

٥ - ألا يعلو فى بنيانهم على مبانى المسلمين.

٦ - ألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم، ولا بترتيلهم فى صلواتهم، ولا بما يروون فى عقائدهم سواء فى ذلك اليهود أو النصارى..

٧ - ألا يظهروا صلبانهم، ولا أن يشربوا الخمر جهارا، ولا يظهروا خنازيرهم..

٨ - ألا يعتدى على القرآن الكريم ولا تحرق مصاحفه.

٩ - ألا يقال إن النبى عليه الصلاة والسلام كذاب.

أو أن يحقر عند الحديث عنه!

١٠ - ألا يسب الدين الإسلامى..

ويروى المؤرخ العربى القديم ابن عبد الحكم.. إن الخليفة عمر بن الخطاب اقترح على عمرو بن العاص أن يستشير البطريك بنيامين بطريرك الأقباط فى تلك الأيام فى خير وسيلة لحكم البلاد وجباية الأموال..

وقال.. إن البطريرك بنيامين لم يتردد فى أن يقدم إلى عمرو بن العاص عدة مقترحات ليختار منها ما يراه مناسباً.. وكان من أهم هذه المقترحات:

١ - أن يستخرج خراج مصر أى الجزية فى أوان واحد عند فراغ الناس من حصد محاصيلهم الزراعية.

٢ - أن يرفع الخراج.. أى الجزية فى أوان واحد عند فراغ أهل البلاد من عصر كرومهم لاستخدام عصيرها فى صناعة الخمور..

٣ - أن تحفر الخلجان ويجرى تطهيرها مرة كل عام..

٤ - أن تجرى عملية إصلاح الجسور سنوياً..

٥ - ألا يختار عامل ظالم لتولى أمور الناس.

ويقول المؤرخون القدامى أن حصيلة الجزية التى كان عمرو بن العاص يبعث بها إلى المدينة المنورة.. أى لبيت المال كانت السبب فى إثارة الكثير من الخلافات بينه وبين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ومما يروونه أن أمير المؤمنين كتب أكثر من مرة رسائل كلها تأنيب وعتاب لعمرو ابن العاص حول هذا الموضوع..

وأنه كتب إليه فى واحدة من هذه الرسائل يقول له بالحرف الواحد:

- إنى فكرت فى أمرك والذى أنت فيه، وأنى أرى أرض مصر أرضا واسعة عريضة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر، وقد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكمًا مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك، وأعجب مما عجبت أنها أصبحت لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك من غير قحوط ولا جدب، وقد أكثرت من مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نذر ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتينى بمعارض تعبأنها لا توافق الذى فى نفسى، وأنا لست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك، فلئن كنت مجدبًا كافيًا صحيحًا فإن البراءة لنافعه، وإن كنت مضيعًا فإن الأمر غير ما تحدث به نفسك، وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك.. عمال السوء، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبد الله أن يأخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهر قد يخرج الدر والحق أبلج، وما عنه تلجلج، فإنه قد برح الخفاء والسلام.

وبمعنى آخر.. اتهم أمير المؤمنين عمرو بن العاص فى رسالته، بالتقصير فى جلب الخراج.. أى الجزية.. ثم أخذ يهدده فى نفس الوقت بأن عنده الحل، وهو تكليف أحد غيره بالعمل على جمع هذه الجزية وإرسالها إلى المدينة المنورة!

وكان طبيعيًا أن لا يعجب ذلك عمرو بن العاص، ولذلك بادر بالرد على أمير المؤمنين يقول له:

– أن الخراج كان من قبله أوفر وأكثر، والأرض أعمر لأن الفراعنة على كفرهم كانوا أرغب فى عمارة أرضهم من العرب منذ كان الإسلام!

ومما يرويه المؤرخون القدامى.. إن اقتراحات كثيرة ترددت لزيادة الجزية، ولكن عمرو بن العاص لم يوافق عليها، وقال إنه اتفق على أن لا تزيد الجزية على دينارين عن كل رجل، ولا تحصل الجزية عن الأطفال أو النساء أو الرجال العاجزين وأيضًا المجانين.. وأنه لن يتراجع أو يعدل عما سبق أن أعلنه أو اتفق عليه.

ولم يعجب أمير المؤمنين نظام جباية الجزية فأرسل محمد بن مسلمة إلى مصر، وأمره بأن يختص بجباية الجزية، وأن يقوم بجمع كل ما يمكن أن يتسنى له لزيادة الحصيلة التى يتم إرسالها إلى المدينة المنورة سنويًا.

ويقول المقريزى.. إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اتخذ هذا القرار لشدة حرصه على أن يحصل على الجزية كاملة لحساب بيت المال.

وتقول إحصائية مثيرة.. أن الثابت أن حصيلة الجزية كانت تتناقص سنة بعد الأخرى بعد تزايد عدد الذين كانوا يعتنقون الإسلام.

وكانت حصيلة الجزية فى أيام عمرو بن العاص تتراوح ما بين ١٢ ألف ألف دينار و١٤ ألف ألف دينار سنويًا أى ١٤ مليون دينار فى كل سنة، وقد بلغت جملتها فى أيام خلف عمرو بن العاص، وهو عبد الله بن سعد الذى عين حاكمًا على مصر بعد عزله فى أيام عثمان بن عفان ١٤ ألف ألف دينار.

وفجأة انخفضت حصيلة الجزية فى أيام الأمويين إلى خمسة آلاف ألف دينار..

وكان السبب هو زيادة عدد الذين اشهروا إسلامهم من المصريين فى تلك الأيام.

وفى أواخر القرن العاشر الميلادى بلغت قيمة الجزية ثلاثة ألف ألف دينار فقط..

وكان هذا يعنى تحول مصر بسرعة لأن تصبح دولة إسلامية!

* * *

وكانت قد راودت عمرو بن العاص بعد أن تم بنصر من الله فتح مدينة الاسكندرية بلا قتال، فكرة أن يجعل منها عاصمة الحكم الإسلامى فى مصر.

وكان أن بادر بالكتابة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستأذن فى أن تصبح الاسكندرية العاصمة السابقة للحكم الرومانى عاصمة للحكم الإسلامى فى مصر.

وسأل أمير المؤمنين من حوله: هل يحول بين الاسكندرية والمدينة المنورة ماء..؟

ولما قيل له: يوجد نهر النيل الذى يعتبر عائقًا مائيًا كبيرًا، قال.. أنه لا يوافق على أن تصبح الأسكندرية عاصمة للحكم الإسلامى فى مصر..

وكان رد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على اقتراح عمرو بن العاص أن قام بالكتابة إلى كل من سعد بن أبى وقاص وكان مقيمًا فى مدائن كسرى، وإلى عامله فى البصرة، وإلى عمرو بن العاص نفسه يقول لهم فيها:

- لا تجعلوا بينى وبينكم ماء حتى إذا أردت أن أركب راحلتى.. أى دابتى.. أن أقدم إليكم..

وبمعنى آخر.. أراد أمير المؤمنين أن يقول لهم.. أنه يريد أن يسير بدابته فوق أرض صلبة، دون أن تعترض طريقه أية موانع مائية مثل البحار أو الأنهار وغيرها.

وكانت النتيجة أن انتقل سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة ليتخذ منها عاصمة للحكم الإسلامى، وتحول عامل البصرة إلى مدينة البصرة...

أما عمرو بن العاص فكان عليه أن يبحث عن مكان آخر غير الأسكندرية بحيث يكون كما أراد أمير المؤمنين لا تفصل بين المدينة المنورة وعاصمة الحكم فى مصر.. ماء..!

ووقع اختيار عمرو بن العاص على السهل الذى كان ممتدًا فى الشمال من حصن بابليون، ويحده جبل المقطم من ناحية الشرق، ونهر النيل من ناحية الجنوب، وهو موقع كان قد سبق أن اختاره بنفسه لتعسكر فيه قواته الإسلامية أثناء حصارها لحصن بابليون.

قال.. إن موقع هذا السهل مناسبًا للغاية ليبنى فيه عاصمة لإمارته فى حكم مصر..

وتقول رواية لبعض المؤرخين العرب.. أنها نفس المكان التى كانت تعسكر فيها القوات الإسلامية قبل أن يتحرك على رأسها لحصار الأسكندرية.

وأن عمرو بن العاص، كان قد أمر بترك فسطاطه.. أى خيمته المصنوعة من الشعر فى مكانها وراءه عندما شاهد بداخلها يمامة، وهى ترقد فوق مجموعة من البيض..

قال: أراد الله أن تحتمى بنا، ونحن لن نبخل عليها بالحماية، والله حافظها هى وفقسها..

وعاد عمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية إلى حصن بابليون، ولما شاهد المكان الذى كانت تعسكر فيه قواته لمح الفسطاط الذى كان قد تركه وراءه..

وأشار عمرو بن العاص إلى الفسطاط، ثم أمر بأن يبنى مسجداً فى المكان حوله؛ وكان ذلك فى سنة ٦٤١ ميلادية..

وجرت بسرعة عملية بناء المسجد الذى كان فى بادئ الأمر بسيطًا. ولم تكن مساحته تزيد على ٥٠×٣٠ ذراعًا، وقد سمى عند إنشائه باسم مسجد الراية، ثم أطلق عليه اسم: المسجد الجامع، وبعدها أصبح اسمه: مسجد عمرو بن العاص..

وأقام عمرو بن العاص مبنى بجوار المسجد، وجعل منه داراً للإمارة.. أى مقرا للحكم..

وكانت بداية نشأة مدينة الفسطاط عندما جاء قادة القوات الإسلامية وزعماء القبائل والفرسان العرب من المجاهدين الذين شاركوا مع عمرو بن العاص فى فتح مصر، وأخذ كل واحد منهم يختار لنفسه موقعًا، ثم قام ببناء بيت له فى المنطقة حول المسجد..

ويقول المؤرخ ابن عبد الحكم عن نشأة مدينة الفسطاط:

– عندما رجع عمرو بن العاص من الأسكندرية تنافس زعماء القبائل فى اختيار المواقع التى أقاموا فيها المنازل، فقام عمر باختيار أربعة من مساعديه، وكلفهم بالعمل على التوفيق بين رغبات هؤلاء الزعماء، وكان ذلك فى عام ٢١ هجرية.. أى فى عام ٦٤٢ ميلادية..

ومما يؤكد مصداقية ذلك أن المؤرخ ابن عبد الحكم ولد فى مدينة الفسطاط وعاش فيها، وشاهد بنفسه الكثير من معالمها وآثارها القديمة، وكانت أسرته.. من سادة عائلات المدينة التى ازدهرت واتسعت رقعتها خلال القرن الثانى الهجرى، ولذلك يرى أغلب المؤرخين القدامى أن روايات ابن عبد الحكم أقرب إلى الحقيقة..

وبمعنى آخر.. يمكن أن نقول إن ابن عبد الحكم كان شاهداً على التاريخ بعد أن ترعرع وكبر وعاش فى مدينة الفسطاط.

والثابت.. أنه بعد الانتهاء من تخطيط مدينة الفسطاط أن عملية أخرى قد جرت لتخطيط مدينة أخرى على الشاطئ المقابل للنيل، وهى مدينة الجيزة وكان بعض زعماء القبائل قد اختارها للإقامة في منطقتها وقاموا بإنشاء حصن قوى فيها فى عام ٢١ هجرية لحراستها وحمايتها خوفًا من المفاجآت!.

وهكذا ارتبطت مدينة الجيزة بتاريخ نشأة مدينة الفسطاط أى فى عام ٢١ هجرية!.

ومع بناء مدينتى الفسطاط والجيزة أخذ العرب فى الاستقرار على ضفتى النيل وأصبحت مدينة الفسطاط هى العاصمة الأولى لمصر الإسلامية.

ويقول ابن عبد الحكم الذى ولد فى عام ١٧٨ هجرية فى وصف مدينة الفسطاط القديمة أنها كانت تشغل مسطحًا مساحته حوالى خمسة آلاف متر مربع وكان يحدها من الشمال جبل اسمه يشكر وهو الجبل الذى يقع عنده الآن مسجد ابن طولون وكان يقع فى الجنوب من المدينة دير ماريو يوحنا وكان معروفًا باسم دير الطينى وكان مسجد عمرو بن العاص يقع فى وسط هذا المسطح ممتدًا على طول ضفاف النيل فى مواجهة الجزيرة التى تعرف الآن باسم جزيرة الروضة.

ولم يكن عرض مسطح المدينة يزيد على ١٠٠٠ متر مربع وكان النيل يجرى على امتداد شاطئ المدينة من ناحية الجنوب.

وتراجعت أرض المدينة عن شاطئ النيل لمسافة تبلغ الآن نحو ٥٠٠ متر بعد أن جرت عملية ردم مساحات كبيرة من الأراضى التى تطل على النيل وتحولت إلى مناطق عمرانية تفصل الآن بين مدينة الفسطاط وشاطئ النيل.

ومع بناء المسجد احتشد المسلمون للاستماع لأول مرة لعمرو بن العاص وهو يخطب فيه.

وكما يقول المؤرخون القدامى.. وقف عمرو بن العاص على منبر كان قد أمر بصناعته ثم قال:

- يا معشر الناس أنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى، واقلعت السماء، وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعى بحسن رعيته حسن المنظر. فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده. وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من

عدوكم. وبها مغانمكم وأنفالكم. واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيراً. وإياكم والحسومات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم.

واستطرد عمرو بن العاص يقول فى أول خطبة له من فوق منبر المسجد: حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن الله سيفتح عليكم من بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ولا اعلمن ما أتى رجل قد اسمن جسمه واهزل فرسه واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة حططنا من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية.

ومضى عمرو بن العاص فى أول خطبة له بالمسجد يقول:

- وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الله فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم فإذا يبس الزرع وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحى إلى فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسره. أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم.

وقال المرحوم الكاتب الكبير محمد صبيح فى كتاب عمرو بن العاص تعليقاً على هذه الخطبة قائلاً:

- كان عمرو بن العاص يهدف بإلقائه مثل هذه الخطبة إلى معانى غير مطروقة فى نظائر مثل هذه الخطبة لغيره من الخلفاء وأمراء المسلمين فهو:

أولاً: يتحدث عن الخيل دابة الحرب والجهاد ويلح فى حفظها والعناية بها ويهدد من يهملها بنقص عطائه وغضب الأمير عليه.

ثانياً: يوصى بقبط مصر، وينقل عن الرسول أقوالاً تحض على الرفق بهم.

ثالثاً: يتحدث عن ريف مصر وأهمية زراعاته وحاصلاته حديث خبير بصير.

ويقول المؤرخون القدامى.. إن المسجد تحول مع مرور الأيام إلى مركز إشعاع

إسلامى وقد شارك فى إلقاء الدروس الدينية فيه علماء من الصحابة ومن التابعين وتابعى التابعين وكان أبرز أساتذة هذا المسجد هو الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص وهو ابن عمرو بن العاص فقد كان متفقها فى الدين وينسب إليه إنه كان أول . . إن لم يكن الوحيد الذى سجل الكثير من أحاديث رسول الله كتابة . .

وكان الدكتور جمال الدين الشيال قد اعترض فى كتابه : تاريخ مصر الإسلامية على الرواية التى أجمع عليها هؤلاء المؤرخون حول تسمية مدينة الفسطاط باسم الخيمة المصنوعة من الشعر التى خلفها عمرو بن العاص وراءه عندما تحرك على رأس قواته إلى الأسكندرية ، عندما شاهد اليمامة وهى ترقد فوق البيض بداخلها ، وقال الدكتور الشيال إنه يستبعد عقلانيًا أن تكون هذه الرواية صحيحة . .

وقال إن فى تصوره . . أن الصحيح هو ما يقوله بعض المؤرخين من الفرنجة . . أى الأجانب من أن اسم الفسطاط أخذ من كلمة إغريقية هى « فوستون » Fossotun .

. . أى المدينة . . وقال إن المعاجم العربية تقول إن كلمة الفسطاط تعنى المدينة . . أى أن الكلمة عربية .

وقال إن هناك من يقول ردًا على هؤلاء المؤرخين إن هذا لا يمنع فى أن تكون الكلمة نفسها مأخوذه عن اليونانية !

* * *

المهم – انتهت المهلة التى كانت محددة لانسحاب الرومان من الأسكندرية كما كان مقررًا فى اتفاقية المصالحة بين العرب والرومان ، وهى ١١ شهرًا ، وبدأ الجلاء عن المدينة يتم بسرعة بواسطة السفن الرومانية التى تجمعت أمام بوغاز ميناء الأسكندرية ، وقامت بنقلهم على أفواج إلى قبرص . .

وكان آخر من غادر المدينة تيودور الذى عينه الإمبراطور حاكمًا على مصر بعد وفاة المقوقس ، فقد استقل الرجل آخر سفينة حملت المهاجرين من المدينة . .

وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية دخلت القوات الإسلامية إلى الأسكندرية ، وهى تهلل ، وتكبر . . الله أكبر . . الله أكبر .

وكان نصرًا جديدًا من الله عندما فتحت المدينة أبوابها للمقاتلين العرب ليدخلوها آمنين ، ومن دون قتال . .

ويعبر الفريد بتلر عن حسرته لسقوط الأسكندرية فى أيدى المقاتلين العرب، وقد أخذ فى كتابه: فتح العرب لمصر.. يصور بعينى الخيال، ما كانت المدينة الخالدة عليه من عظمة وأبهة عندما دخلها هؤلاء المقاتلون الأعراب الشعث الوجوه النحيلو الأجسام والقليلو العدد - كما قال - وعندما أخذ هؤلاء المقاتلون يتجولون بعد استيلائهم على المدينة، وسط الحدائق وبساتين الكروم والأديرة والكنائس التى كانت منتشرة فى أرجائها..

ويقول بتلر فى عنصرية وتعصب واضح: كانت الأسكندرية حتى ذلك الوقت أجمل مدن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلا ولا بعدها شيئًا يعادلها اللهم إلا فى روما وقرطاجنة القديمتين.

وقال: كان من الممكن أن تقف قوات المسلمين على أبواب الأسكندرية إلى ما شاء الله دون أن يتمكنوا من اقتحامها عنوة، فقد كانت شواطئها مفتوحة على البحر الذى لم تكن توجد للمسلمين فيه أية سفينة لمنع وصول الإمدادات إليها.. وبالتالى. كان استكمال حصارها مستحيلاً، وكان ماء المدينة موفوراً، كما كانت ثرواتها بلا حدود.

وكان من الصعب على قوات المسلمين اقتحام أسوارها أو حتى الاقتراب منها، وقد ثبت ذلك بعد أن انهالت عليهم أكثر من مرة أجهزة المنجنيق بالحجارة والسهام لتبعدهم عنها..

وكانت المدينة تغص بآلاف المقاتلين الرومان: وبالتالى لم يكن ممكنًا فتحها لولا ما وصف بأنه كان خيانة فى جانب المقوقس الذى عاد من القسطنطينية ليعقد مع العرب اتفاقية تسليم المدينة إليهم بلا قتال..

وعندما عاد عمرو بن العاص إلى مصر بعد زيارته الثانية للمدينة المنورة.. استقر رأيه على العمل على تطهير قناة كانت تربط النيل بالبحر الأحمر لاستخدامها فى نقل الغلال والحاصلات الزراعية إلى المدينة المنورة.

وكان الإمبراطور الرومانى تراجان أول من حفر هذه القناة لذلك اشتهرت باسمه فكان يطلق عليه اسم ترعة تراجان وكانت هذه القناة يجرى تطهيرها ونظافتها كلما صلحت الأحوال فى مصر وكانت تردم عندما تتدهور الأحوال فيها..

واطلق عمرو بن العاص على القناة بعد تطهيرها اسم قناة أمير المؤمنين.

ويقول هؤلاء المؤرخون إن العمل فى إعادة حفر هذا الخليج القديم بدأ فى شتاء سنة ٦٤٢ ميلادية وقد تم فى أقل من عام.

وفى رأيهم أن آثار الخليج القديم كانت موجودة مما ساعد كثيراً على ربط الفسطاط بالبحر الأحمر.

وأخذت السفن تبحر من تحت أسوار حصن بابليون لتصل إلى الحجاز وهى محملة بالقمح والكثير من خيرات مصر.

وراودت عمرو بن العاص فى تلك الأيام فكرة حفر قناة أخرى لتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط أى أن تفكيره راوده لتنفيذ مشروع يشبه مشروع قناة السويس ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اعترض على تنفيذ المشروع حتى لا يستغله الرومان فى الوصول إلى البحر الأحمر.

وفى الاسكندرية أصدر عمرو بن العاص كتاب الأمان الذى سبق الإشارة إليه للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الذى كان مختبئًا فى أحد أديرة الصحراء حتى يشعر الأقباط المصريين بروح التسامح الإسلامى واحترامه لمختلف العقائد والأديان..

ويقول نص هذا الكتاب:

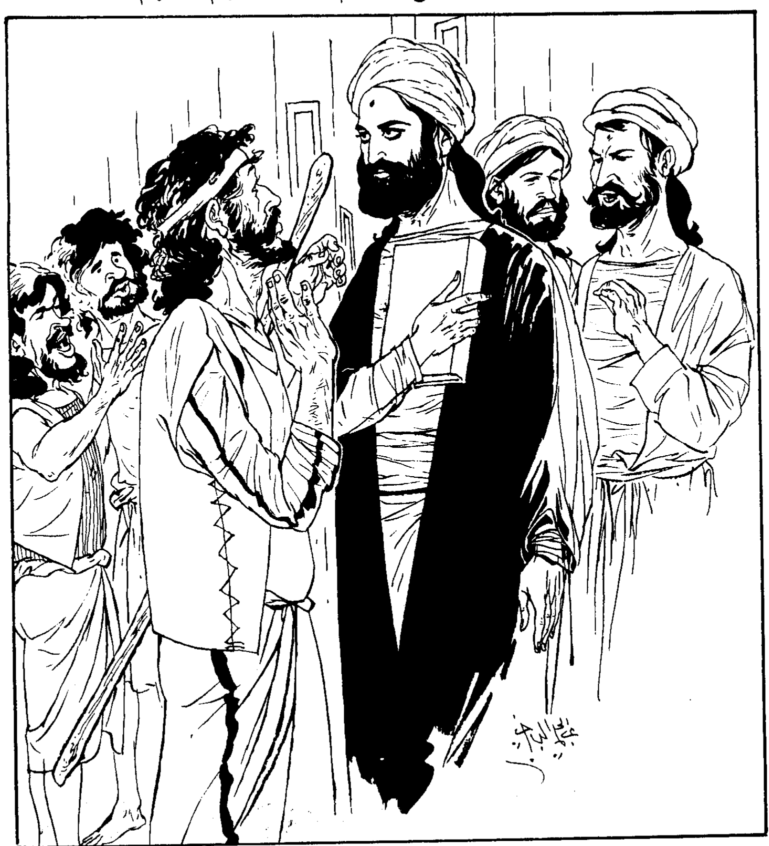
- إننا نعد بطريرك الأقباط بنيامين أينما كان بالحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريرك ها هنا فى أمان واطمئنان ليتولى أمر ديانته ويرعى أهل ملته.

وكان هذا العهد كافيا لأن يخرج البطريرك بنيامين من مخبئة ولأن يعود إلى الأسكندرية ويدخلها قى موكب دينى رهيب وقد احتفل به شعب الأقباط المصريين احتفالاً رائعًا بعد غيبة لمدة ١٣ سنة متواصلة!!

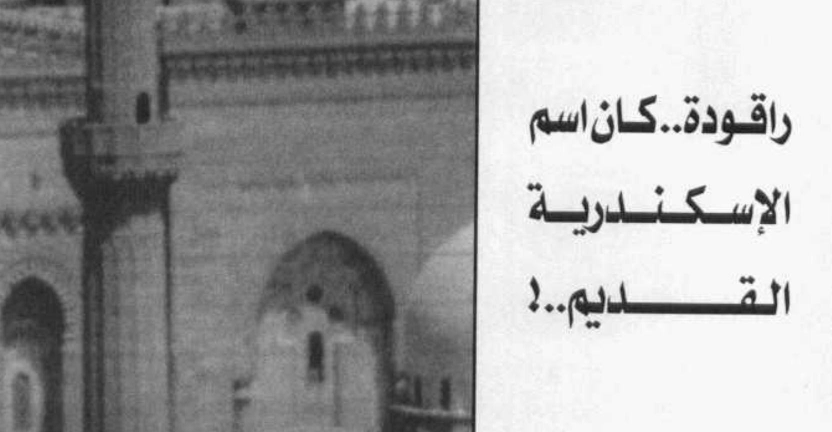
وفى رأى الكثيرين من المؤرخين القدامى أن سياسة عمرو بن العاص التى انتهجها فى تعامله مع أقباط مصر بوحى من تقاليد الديانة الإسلامية وتقاليد الإسلام كان لها أثرها فى تحسن نفسية المصريين ورفع معنوياتهم وكان أن تدفق الكثيرون منهم على الدين الحنيف فأخذوا يعتنقونه بأعداد كبيرة وخصوصاً بعد أن تأكدوا أن الدخول فى الإسلام يعفيهم من دفع الجزية ويرفع بعضهم أحيانًا إلى مرتبة الحاكمين.

ووصف المقريزى شعب مصر فى تلك الأيام قائلاً:

- أعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على قسمين متباينين فى أجناسهم وفى عقائدهم أحدهما أهل الدولة وكلهم من الروم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ورأيهم ودياناتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكانية كانت عدتهم تزيد على ٣٠٠ ألف رومى والقسم الآخر وكان عامة أهل مصر وقد اشتهروا باسم القبط وأجناسهم مختلفة يكاد لا يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل من غيره وكلهم يعاقبة أى من بنى يعقوب وكان منهم كتاب المملكة ومنهم أهل العلافة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكانيين أهل الدولة من العداوة ما يمنع زواجهم ويوجب قتلهم بعضهم بعضاً.. ■



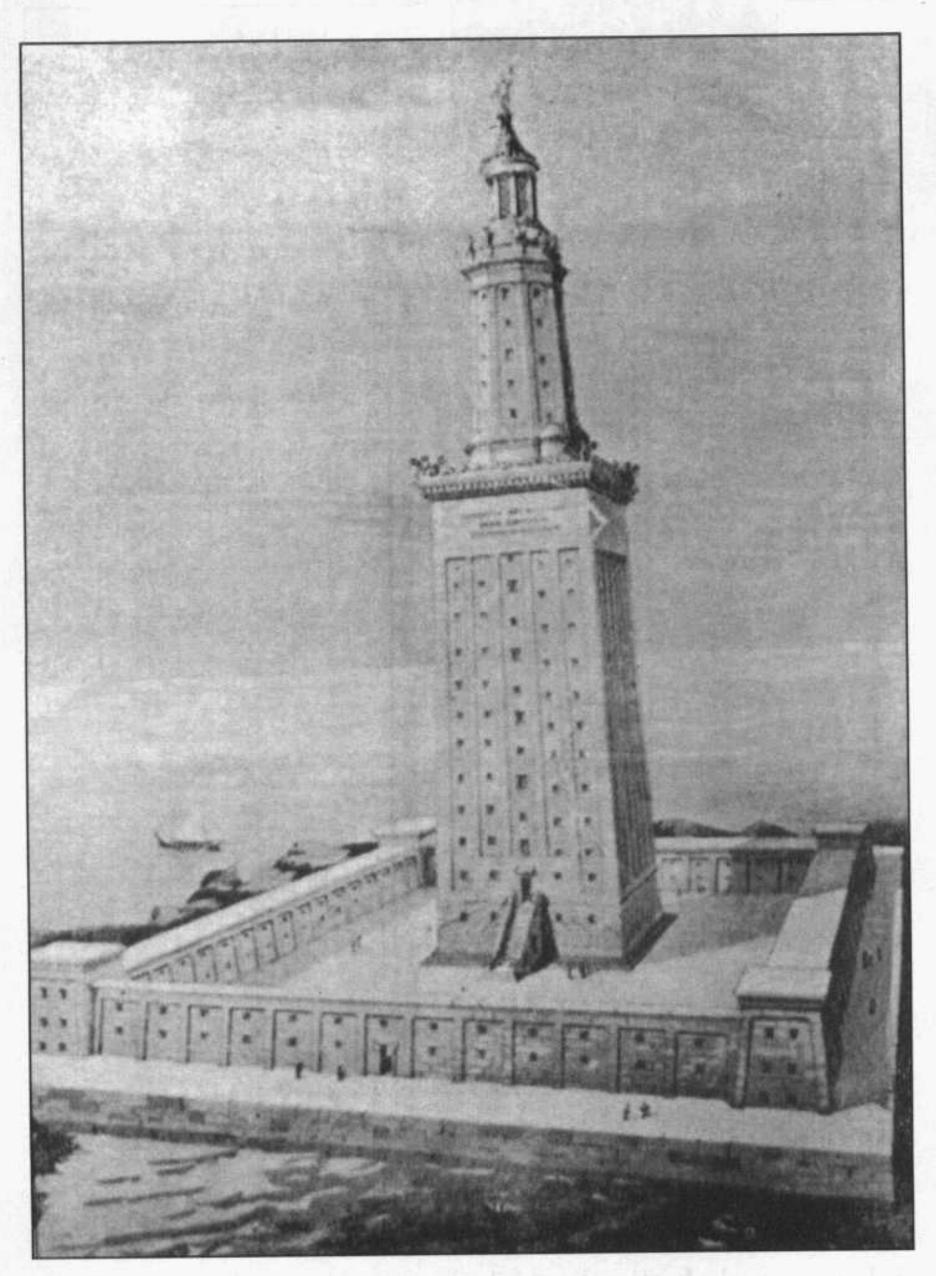




راقودة..كان اسم الإسكندرية القديم..!

9

- كيف شاهد الفرسان العرب مدينة الاسكندرية يوم الفتح..! وماذا حدث عندما تعرضت المدينة للزلازل في سنة ٩٥٥م؟
- الرومان كانوا يعتبرون الاسكندرية أرضًا أجنبية .. وليست جزءا من أرض مصر..!
- عميل روماني يغرر بالخليفة المسلم ليهدم منارة الاسكندرية بحثا عن كنز من الذهب!



هكذا كانت منارة الإسكندرية عندما قام العرب بفتح مصر وقبل أن يتآمر الرومان علي تخريبها

كان أقباط مصر يذكرون اسم الاسكندرية فى أحاديثهم الخاصة، وفيما كان يدور بينهم من همس قبل الفتح الإسلامى لمصر باسم: باكدتيس.. أو راقودة، وهو الاسم القديم الذى اشتهرت به قرية صغيرة للصيادين كانت تقع فى نفس الموقع الذى اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الاسكندرية التى أصبحت تحمل اسمه..

وبمعنى آخر.. بنى الاسكندر الأكبر مدينة الاسكندرية على أنقاض قرية الصيادين الصغيرة..

ويقول بعض المتخصصين فى دراسة الآثار اليونانية والرومانية القديمة.. إن اسم راقودة فى الحقيقة كان اسما يطلق على مجموعة من القرى الصغيرة كانت تحيط بقرية رئيسية كبيرة، وقد اشتهرت مجموعة هذه القرى، وكان عددها ١٦ قرية صغيرة باسم راقودة.. وبالتالى يمكن القول إن مدينة الاسكندرية قد بنيت فوق أنقاض مجموعة هذه القرى. وليس على أنقاض قرية واحدة.

ويقول المؤرخون القدامى.. إن أقباط مصر لم يكن يعجبهم أن تصبح الإسكندرية مدينة مستقلة وأن يجعل منها الرومان أشبه بالدولة خارج الدولة..

وكان ان رفض هؤلاء الأقباط المصريين كل المحاولات لتحويل الاسكندرية إلى ما يشبه المستعمرة الإغريقية داخل الاراضى المصرية . وبالتالى فشلت كل المحاولات الرومانية لفصلها عن أرض مصر!

وكان فى رأيهم.. أن استمرار الإغريق فى مثل هذه المحاولات مرفوض .. ولا يمكن الاعتداد أو الاعتراف به.

وكان الإسكندر الأكبر قد أمر مع بداية العمل فى بناء المدينة بربطها مع جزيرة فاروس التى تقع فى الشمال الشرقى منها بواسطة طريق طوله حوالى ١٢٠٠ متر، وقد اشتهر هذا الطريق باسم .. «الهبتا ستاديوم».

وأقيمت منارة الاسكندرية التى أثارت إعجاب العرب الذين توافدوا لزيارة المدينة بعد الفتح الاسلامى بحيث تظهر فوق سطح هذه الجزيرة. وقد شاهد العرب مرسى السفن الذى كان يحيط بالجزيرة، وأثار انتباههم الأبنية الكثيرة التى كانت منتشرة فى أرجائها، وكان من بينها كنيستان إحداهما كانت كنيسة للقديس مرقص. والأخرى للقديس فورستوس..

وكان يوجد بين الكنيستين مبنى كان يستخدم كفندق صغير لإقامة الأغراب من زوار الجزيرة.

وكانت المنارة تبدو عملاقة كما قال الذين شاهدوها وأعجبوا بها من زوار الجزيرة وكان استرابو أول من وصف هذه المنارة فقال.. إنها تبدو كبرج مرتفع، وقد بنيت بأسلوب هندسى عجيب من الحجر الأبيض، وكانت تتكون من ثلاث طوابق..

ويرجع تاريخ هذه المنارة إلى أيام الامبراطور بطليموس فلادلفوس الذى جاء بمهندس اسمه كيندوس من مدينة فى مقدونيا اسمها سوستراتوس، وكلفه بتصميم وبناء هذه المنارة، وقد شاهد العرب الذين جاءوا لزيارة الاسكندرية بعد الفتح الإسلامى الكثير من التلفيات، وأعمال التخريب التى كانت قد أصابت المنارة من تأثير العوامل الجوية ومياه البحر عليها.

ويؤكد المؤرخون القدامى فى شهادة للتاريخ.. أن عمليات الترميم كانت تجرى فى المنارة دائما، وإنها كانت تعمل بكفاءة قبل الفتح الإسلامى فى هداية السفن عند اقترابها من مدينة الاسكندرية، وإنها كانت فى حالة جيدة..

وقال بعضهم فى وصفها إنها كانت تلمع فى ضوء الشمس فى النهار وإن أنوارها كانت تضىء أثناء الليل لتشاهد أضواؤها على مسافات بعيدة من الاسكندرية.

وقال الاصطخرى، وهو واحد من هؤلاء المؤرخين القدامى.. إن المنارة كانت مبنية فوق صخرة كانت تبرز على سطح الجزيرة من تحت مياه البحر، وإنه كان يوجد بالجزيرة حوالى ٣٠٠٠ حجرة بحيث لم يكن فى وسع أى زائر أن يتجول فى أرجائها بدون دليل..

وقال مؤرخ آخر، وهو ابن حوقل.. إن المنارة كانت مبنية من صخور منحوته.. وقد شدت هذه الصخور بعضها إلى جوار البعض لتصبح كتلة واحدة يصب الرصاص المنصهر بينها.

ووصف الإدريسى المنارة بقوله.. إن ارتفاعها كان يزيد على ارتفاع ١٠٠ رجل عندما يقف كل رجل فوق كتف الآخر!

■ ■ ■

وأجمع المؤرخون القدامى على أن المنارة كانت مبنية على شكل برج يتكون من ثلاث طبقات، وكان الطابق الثالث يحمل فوقه مصباحا يرتفع فوق ثمانية أعمدة ترتكز عليها قبوة كانت النيران تشعل تحتها بإحراق الخشب الراتنجى..

وقالوا.. إنه كان يوجد فى أعلى الطبقة السفلى مرآة مقعرة. وكان يتم الصعود إلى مكان هذه المرآة بواسطة سلم مبنى بالحجارة.

وكانت هذه المرآة تستخدم فى الكشف عن سفن الأعداء عند اقترابها من ميناء الأسكندرية من مسافات بعيدة.!

ووصف المسمورى هذه المرآة بأنها كانت مصنوعة من الحجر الشفاف.. وقال إنها كانت تستخدم فى متابعة حركة السفن القادمة من بلاد الروم إلى الاسكندرية!.

واختلف المؤرخون فى تحديد المادة التى صنعت منها المرآة، وكان أن قال بعضهم إنها كانت مصنوعة من زجاج محكم الصقل.. بينما قال آخرون إنها كانت مصنوعة من نوع من الحديد اشتهر باسم الحديد الصينى.. أو الحديد الثقيل..

والثابت أن منارةالاسكندرية تعرضت للكثير من عمليات الهدم والتخريب خلال المائة عام التى أعقبت الفتح الإسلامى للاسكندرية ومما يروونه أن الرومان تآمروا فى القرن الثامن الميلادى من أجل تخريبها، وبالضبط فى أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك، حتى لا تبقى سلاحا فى أيدى العرب لمتابعة تحركات سفنهم فى البحر المتوسط. وكانت تراودهم فى تلك الأيام الكثير من الأفكار لإعادة احتلال مصر، والعمل على طرد القوات الإسلامية منها وكان تخوفهم من أن يقوم العرب باستخدام المرآة العجيبة فى الكشف عن تحركات سفنهم عندما يحركونها لغزو مصر ومما يرويه بعض المؤرخين القدامى أن الرومان أوعزوا إلى أحد اتباعهم أن يطلب إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك مساعدته على اعتناق الدين الإسلامى..

وذهب الرجل إلى الخليفة ليقول له.. إن حياته سوف تصبح فى خطر إذا ما أعلن إسلامه، وطلب إلى الوليد بن عبدالملك حمايته..

وصدق الخليفة الرجل، وأمر بإبقاء الرجل فى بلاطه حتى يتسنى له أن يفرض عليه حمايته..

وأخذ الرجل تنفيذا للخطة الرومانية فى التقرب إلى الخليفة حتى أصبح موضع ثقته، وكاتمًا للكثير من أسراره..

وتقول الرواية . . إن الرجل استطاع ان يدخل فى روع الخليفة أن لديه معلومات تؤكد بوجود كنوز فرعونية ضخمة من الذهب والمجوهرات مدفونة تحت أرض مبنى منارة الاسكندرية.

وصدق الخليفة الرجل. وبادر بتكليف قوة من جنوده بالتوجه إلى الاسكندرية، وطلب إليها استخراج هذه الكنوز الفرعونية . .

واستخدم الجنود المعاول، وباشروا عملية هدم المنارة حتى أتموا تدمير نصف مبانيها دون أن يجدو تحتها شيئاً من هذه الكنوز المزعومة . . .

وأثار ما حدث غضب المسلمين العرب فى الاسكندرية وبادروا بالاستغاثة بالخليفة، وقد تمكنوا فى إقناعه بأنه كان ضحية مؤامرة رومانية تخريبية . .

وقام الخليفة بإصدار أوامره بوقف عمليات هدم المنارة، وللأسف الشديد وصلت هذه الأوامر متأخرة إلى الجنود بحيث لم يتوقفوا عن عمليات الهدم إلا بعد أن كان قد تم تدمير وهدم نصف المنارة، وإزالة المرآة من مكانها . .

وأمر الخليفة بالقبض على الرجل الذى كان يستضيفه بعد تظاهره باعتناق الإسلام ولكن الرجل كان قد تمكن من الهرب أثناء الليل، واستطاع أن يلتحق بأحد معسكرات الرومان!

وكانت هناك محاولات لإصلاح المنارة. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل، وبالتالى لم تعد المنارة كما كانت . . أى أنها لم تعد إلى حالتها الأصلية . .

كما فشل العرب فى تشغيل المرآة التى لم تعد هذه الأخرى كما كانت ، وتبين أنها فقدت الكثير من بريقها، وأصبحت معتمة، وبالتالى لم تعد لها أية قيمة أو فائدة فى الكشف عن السفن الرومانية عندما تقترب من شواطئ مدينة الاسكندرية.

■ ■ ■

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول . . عندما دخلت القوات الإسلامية مدينة الاسكندرية بعد انسحاب قوات الرومان منها فى اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢م « ٢٢ هـ» وكان ذلك تنفيذا لاتفاقية صلح الاسكندرية التى عقدها المقوقس مع عمرو بن العاص فى شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م، أخذ الفرسان

العرب الذين كانوا يحاصرون المدينة من الخارج يهللون عند دخولهم إلى المدينة، وهم يصيحون الله أكبر.. الله أكبر.

وكان فتح الاسكندرية بلا قتال.. نصرا جديدا من الله للمسلمين، وكان يعنى انتهاء عمرو بن العاص من تنفيذ المهمة التى كلفه بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهى فتح مصر..

وأرسل عمرو بن العاص كتابه المشهور إلى أمير المؤمنين يبشره بنصر الله على المسلمين بفتح الأسكندرية بلا قتال، قال له فيه:

- فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، و اثنى عشر ألف بائع خضر، و أربعين ألفا من اليهود أهل الذمة!.

وأثار الانتباه.. إن فتح الاسكندرية قد أصاب غالبية المؤرخين الأجانب بالكثير من الألم والحسرة، ومن هؤلاء الدكتور الفريد بتلر نفسه فقد صور بعين الخيال فى كتابه: فتح العرب لمصر.. ما كانت عليه المدينة من العظمة فى مواجهة الفاتحين الذين وصفهم بالأعراب الشعث الوجوه والنحيلى الأجسام والقليل العدد بمقارنتهم بعدد الذين كانوا يعيشون فى المدينة من الرومان..

وقال بتلر فى كتابه: إن العرب أصيبوا بالدهشة والانبهار، وهم يتجولون وسط الحدائق وبساتين الكروم والأديرة الكثيرة التى كانت منتشرة فى أرجاء المدينة.

وقال.. إن المدينة كانت تعتبر يوم فتح العرب لها من أجمل مدن العالم وأروعها، ولم يكن يماثلها فى عظمة مبانيها إلا ما كانت عليه عظمة مدينتى روما وقرطاجنة القديمتين..!

وعلى العكس.. وصف المؤرخون العرب القدامى المدينة يوم فتح العرب لها بصورة أكثر واقعية، وكان إجماعهم على أنها بقيت على عظمتها وجمال مبانيها قرونا بعد الفتح. وأنها كانت مثار إعجاب من زارها من أهل الأسفار وكان من أبرز بدائعها ما كان منتشرا بها من قباب وأعمدة بعضها إسطوانى الشكل، والبعض الآخر مربع.. وكانت هذه القباب والأعمدة ترتفع شامخة فوق قواعدها داخل المدينة لتشاهد من خارجها، وهى تطل من وراء أسوارها وحصونها. وكان يوجد بها عدد هائل من التماثيل والمعابد والقصور التى كانت تتلألأ وتتألق تحت ضوء القمر.

وكان معبد السيرابيوم بسقفه المذهب يقع إلى اليسار من المدينة، وكانت توجد إلى جواره القلعة التى كانت تطل على عمود، « دقلديانوس » وهو العمود الذى أطلق عليه العرب اسم عمود السوارى..

وكانت الكنيسة العظمى، وهى كنيسة القديس مرقص تقع فى أقصى اليمين من المدينة، وكانت ترتفع إلى جوارها أعمدة مربعة الشكل. كانوا يطلقون عليها اسم مسلات كليوباترا..

وكانت منارة جزيرة فاروس الرائعة التى يعتبرونها من عجائب الدنيا السبع تقع بين اليمين واليسار من المدينة!.

■ ■ ■

وقال الفريد بتلر فى وصفه للاسكندرية يوم قام العرب بفتحها:

– بهرت المدينة الفاتحين العرب الذين أدهشتهم عظمتها وفخامتها بحيث وصفها أحدهم بأنها مدينة يكثر المرمر فى أرصفتها ومبانيها وأعمدتها وقال آخر: إنها تبدو مربعة بيضاء لامعة فى النهار، وفى الليل أيضا..

وكان من أبرز ما لفت انتباه العرب هو أن أهل المدينة كانوا يلبسون ملابس تتميز باللونين الأسود والأبيض حتى تتناسب ألوانها مع الاشعاع الذى كان ينبعث من أرضية المدينة ومبانيها المبنية من المرمر الأبيض...

وكانت الراهبات ترتدى الملابس السوداء حتى لا يتألق انعكاس ألوانها على الرخام.

وقال بتلر: وكان مما لاحظه الفاتحون العرب أن أهل الاسكندرية لم يكن فى وسعهم السير فى الليالى التى كان يكتمل فيها ضوء القمر لأن الأضواء التى كانت تنبعث منه كانت تنعكس على الرخام الأبيض مما كان يجعله يشع نوراً كان يكفى كما كان يقال لأن يقوم حائك الملابس مثلا بوضع الخيط فى ثقب الإبرة بغير الاستعانة بضوء أحد المصابيح القريبة منه. ولم يكن فى و سع أحد أن يدخل الاسكندرية إلا إذا ما وضع غطاء على عينيه لوقايتها من انعكاس الأضواء التى كانت تنبعث من الرخام والمرمر!

■ ■ ■

وفى القرن العاشر الميلادى . وبالضبط بعد حوالى ٣٥٠ سنة من فتح العرب للاسكندرية وصف المؤرخ المسمورى المدينة فقال: كان الناس يغطون شوارعها بالحرير الأخضر حتى يتقون وهج انعكاس الضوء على الرخام..

وقال.. إن المدينة كان يخترقها شارعان رئيسيان، وكان أحدهما يبدأ من عند باب الشمس عند مدخل المدينة من ناحية الشرق، وكان هذا الشارع يمتد حتى باب القمر على امتداد المدينة من ناحية الغرب، وكان الشارع الآخر يخترق المدينة من أقصى الشمال إلى جنوبها، و كانت الأعمدة والتماثيل تزين الشارعين على امتدادهما من الجانبين..

وكان الشارعان يلتقيان عند منتصف كل منهما فى ميدان فسيح تحيط به القصور والحدائق الجميلة.

أما المؤرخ العربى القديم أبى القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم الذى يعتبرونه أول مؤرخ لمصر الإسلامية فهو مولود فى مدينة الفسطاط فى عام ١٨٧ هـ «٨٠٣م» وكانت وفاته فى شهر المحرم سنة ٢٥٧ هـ «٨٧١م» فهو يقول فى كتابه: فتوح مصر وأخبارها وأقاليمها من قديم الزمان: إن الاسكندرية كانت تضم ثلاث مدن ملتصقة بعضها البعض ، وكان يحيط بكل مدينة سور يطوقها، وفى نفس الوقت كان يلتف حول المدن الثلاثة سور آخر يجمعها كلها بحيث كانت تبدو وكأنها مدينة واحدة!.

وكان الرومان يعيشون فى واحدة من المدن الثلاث بينما كان الأقباط المصريون يعيشون فى المدينة الثانية، أما المدينة الثالثة فكان غالبية سكانها من اليهود!

■ ■ ■

وتقول رواية أخرى لبعض المؤرخين العرب.. إن دهشة القوات الإسلامية عندما دخلت إلى مدينة الاسكندرية كانت لما شاهدته فى المدينة من مبان كانت تحتوى بداخلها على صهاريج عجيبة، وكانت بعض هذه الصهاريج التى كانت مبنية تحت الأرض تتكون من عدة طبقات يعلو بعضها البعض، و كانت بعض هذه الصهاريج تتكون من الأربع والخمس طبقات، وكان كل طابق يستند على عدد من الأعمدة، وينقسم إلى عدد من الحجرات.

وكانت كل هذه الحجرات تستخدم كصهاريج لتخزين المياه.

وكانت هذه المبانى متعددة الطوابق والصهاريج هى التى جعلت المؤرخ العربى السيوفى يصف الاسكندرية فى تلك الأيام بأنها تبدو كمدينة مبنية فوق مدينة أخرى . . .

وقال إنها لذلك كانت مدينة لا يوجد لها مثيل بين مدن العالم! .

ويقول بعض المؤرخين العرب . . أن الحجرات داخل المبانى متعددة الطوابق والمبنية تحت الأرض كانت تستخدم فى تخزين المياه التى كانت تصل إليها بواسطة ترعة كانت تخترق المدينة من ناحية حى الأقباط المصريين.

وكانت الحجرات تمتلئ بالمياه العذبة الصالحة للشرب فى أيام فيضان النيل، وكانوا يطلقون على أفخم أحياء الاسكندرية عندما قام العرب بفتحها اسم : حى البروكيون .

وكان ميناء الاسكندرية يقع فى الشمال من هذا الحى ، بينما كان الشارع الأعظم الذى كان يخترق المدينة من ناحية باب الشمس يقع فى الجنوب . .

وكانت كنيسة القديس مرقص تقع فى غرب المدينة بالقرب من شاطئ البحر.

وتقول روايات أخرى كثيرة نقلا عن بعض هؤلاء المؤرخين القدامى . . إن بعض الشواهد تؤكد إن جثمان القديس مرقص الإنجيلى دفن فى قبر كان إلى الجانب الشرقى من محراب الكنيسة، وإنه كان يوجد بجوار القبر شاهد من المرمر يشير إلى اسم القديس المدفون فى القبر! .

ومما يروونه أيضا . . إنه كانت توجد كنيسة أخرى يطلقون عليها اسم كنيسة «القيصرون» . . وكانت واحدة من أفخم وأضخم كنائس المدينة، وكان موقع هذه الكنيسة بالضبط على مسافة ليست بعيدة من كنيسة القديس مرقص . .

وكانت كليوباترا قد باشرت عملية بناء هذه الكنيسة لتكون معبدا تعظيما لقيصر، ولكن بناء الكنيسة لم يكتمل إلا فى أيام الأمبراطور الرومانى أغسطس أى بعد موت وانتحار كليوباترا . . !

■ ■ ■

وتقول وقائع تلك الأيام إن عمرو بن العاص بادر على أثر فتح الأسكندرية بإشعار أقباط مصر بروح التسامح الإسلامى، وكان أن أصدر كما سبق أن أشرنا كتاب الأمان

للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين الذى كان يعيش مختفيا فى أحد كهوف منطقة الصحراء الغربية لمدة ١٣ سنة.

ويقول نص هذا الكتاب:

- وأينما كان بطريرك الأقباط بنيامين نعده بالحماية، والأمان، وعهد الله، فليأت ها هنا فى أمان. واطمئنان ليتولى أمر ديانته ويرعى أهل ملته.

ولم يكن الأنبا بنيامين الذى كان أول من تنبأ بانتصار العرب على الرومان يريد أكثر من ذلك، ولذلك بادر بالخروج من مخبئه، ودخل الاسكندرية فى موكب مهيب من أتباعه حيث احتفل به الشعب القبطى احتفالاً رائعًا بعد غيبته الطويلة..

هذا وقد أجمع المؤرخون العرب على أن السياسة التى انتهجها عمرو بن العاص بوحى من روح وتقاليد الإسلام، وتنفيذاً لتوجيهات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان لها أثر كبير فى نفوس الأقباط المصريين، ولذلك لم تكن مفاجأة عندما أقبل الكثيرون من هؤلاء الأقباط على اعتناق الدين الإسلامى!.

وعلى العكس من ذلك يقول الفريد بتلر الذى كانت نفسه تمتلىء بالحقد، كما كانت بعض آرائه تتسم بعدم الإنصاف، وأحيانًا عدم الموضوعية.. أن تزايد عدد الذين اعتنقوا الإسلام من المصريين كان يرجع لرغبتهم فى الحصول على الإعفاء من دفع الجزية بعد أن يصبحوا مسلمين، وحتى يتسنى لبعضهم أن يدخل فى زمام الساسة والحكام!.

وكتب المقريزى فى وصف شعب مصر عند الفتح الإسلامى قائلاً:

- كانت أرض مصر عندما دخلها الإسلام مشحونة بالنصارى الذين كانوا منقسمين إلى شقين مختلفين فى أجناسهم، وفى عقائدهم، وكان أحدهما أصل الدولة، وكلهم من الروم من جنود صاحب القسطنطينية.. أى إمبراطور الروم. وكان رأيهم وديانتهم هى ديانة المسيحية الملكانية، وكان تعدادهم يقدر بحوالى ٣٠٠ ألف رومانى.. أما القسم الآخر، فكان يضم غالبية أهل مصر، وكان يقال عنهم أنهم القبط، فقد كانت أجناسهم مختلفة، ولا يكاد يتميز منهم القبطى عن الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل من غيره، وكلهم من اليعاقبة، وكان من هؤلاء الملكانيين، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وكانت بينهم وبين الملكانيين أهل الدولة من العداوة ما كان يمنع زواجهم من بعض، ويوجب أحيانًا قتل بعضهم بعضاً..!

■ ■ ■

وفى رواية أخرى.. أن الموقع الذى يقوم فيه عمود دقلديانوس.. أى عمود السوارى، وهو الاسم الذى أطلقة عليه العرب لم يكن يبعد كثيراً عن الباب الجنوبى للمدينة. وكان هذا الباب قد اشتهر بعد فتح العرب للمدينة باسم باب الشجرة!.

وكان يطلق على المنطقة كلها حول عمود السوارى اسم: الحى المصرى..

وتتكلم وقائع التاريخ أيضًا لتقول.. إن الإسكندرية تعرضت فى أيام أحمد بن طولون، وبالضبط فى اليوم العاشر من رمضان لعام ٣٤٤ هجرية، وهو يوافق يوم ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥ ميلادية، لزلزال شديد أحس به الناس فى بلاد الشام، وفى فلسطين وفى شمال أفريقيا.

وفى تلك الأيام لم تكن مقاييس، ريختر لقياس درجات قوة الزلازل قد اكتشفت، ولكن المؤكد أن الزلزال كان من القوة بحيث عمل على تدمير جانب كبير من المدينة، وهو الجانب المتاخم لشاطىء البحر، فقد اختفى هذا الجانب بما فيه من مبان وقصور وبساتين تحت مياه البحر..

وكانت هزات توابع الزلزال من العنف والشدة بحيث أخذت تتوالى كل نصف ساعة..

وتهدمت مع هزات الأرض تحت وطأة الزلزال نحو ثلاثين ذراعًا من الجزء العلوى لمنارة الأسكندرية..

لقد تهاوت لتسقط فى أعماق البحر!

وأرادت الأقدار أن تتعرض منطقة الإسكندرية مرة أخرى لسلسلة من الزلازل فى عام ١٣٧٥ ميلادية.. أى بعد حوالى ٣٠٠ سنة من تعرضها للزلزال الأول لتتساقط الأجزاء الباقية من المنارة بحيث لم يبق منها سوى الطبقة السفلى من برجها، وهى الطبقة الملتصقة بالأرض.

وهكذا دُمِّرَتْ منارة جزيرة الفاروس التى يعتبرونها واحدة من عجائب العالم!

■ ■ ■

وغرق قصر كليوباترا تحت مياه البحر تحت وطأة الهزات الأرضية العنيفة التى سببتها الزلازل.

وغرقت أيضًا كنيسة القيصرية التى أثارت إعجاب العرب عند فتح الأسكندرية، وكان الرومان يطلقون عليها اسم كنيسة القيصرون.

كما تساقطت فى قاع البحر مئات الأعمدة والمسلات، وكذلك الكثير من التماثيل التى كانت تمتلأ بها شوارع المدينة.

ويروون أن أحد وزراء صلاح الدين الأيوبى وكان اسمه «خراج» أمر بهدم الكثير من الأعمدة، ثم ألقى بها فى البحر ليجعل منها حاجزًا يحول بين الرومان ومحاولة النزول من سفنهم عند شواطىء الأسكندرية.

وتحاول أن تتابع الاكتشافات الأثرية للتماثيل والأحجار التى غرقت تحت مياه البحر لتقول:

- عندما قام عمرو بن العاص بفتح الاسكندرية على رأس قواته الإسلامية ترك وراءه فى المدينة آثار إسلامية كثيرة، وقد غرقت بعض هذه الآثار تحت مياه البحر أيضًا مع التماثيل والأحجار التى كانت قصور الرومان تمتلئ بها..

ولذلك فإن من المتوقع أن تعثر بعثات التنقيب عن آثار الأسكندرية الغارقة على الكثير من الآثار الإسلامية إلى جانب الآثار الرومانية التى تم العثور عليها حتى الآن!

ولا أستطيع إلا أن أقول.. إن تاريخ مدينة الأسكندرية الحقيقى لم يكتب حتى الآن، وأظن أن الوقت قد حان فعلاً مع الاحتفال بافتتاح مكتبة الاسكندرية القديمة لإعداد دراسات جادة عن تاريخ المدينة التى كان الرومان يعتبرونها واحدة من أهم عواصم العالم، وأجملها أيضًا.

■ ■ ■

وأقول أيضًا.. صحيح الاسكندر الأكبر كان قد وضع حجر الأساس لمدينة الاسكندرية، ولكن الثابت والمؤكد هو أن أجله لم يمهله لإكمال بناء المدينة، وكان بطليموس الأول الذى جاء بعد الاسكندر الأكبر هو الذى قام بإتمام عملية إنشاء المدينة.

وفى تصورى أن بطليموس الأول هو الذى يرجع إليه الفضل فى أن يجعل من الاسكندرية عروس البحر المتوسط، وقد استطاع أن يجعلها مدينة تتميز كثيراً عن غيرها من مدن مصر حتى أصبحت تعرف باسم المدينة تمامًا كما اشتهرت مدينة طيبة

فى عهد الفراعنة، فقد كانت تعرف باسم «نو» ومعناها باللغة الفرعونية القديمة.. المدينة!

وعلى سبيل المثال - أيضًا - كانت المدينة المنورة تعرف باسم «يثرب» وقد اشتهرت بعد هجرة الرسول الكريم إليها باسم المدينة المنورة!

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول.. أن الاسكندر الأكبر هو الذى اختار بنفسه الموقع الذى أنشئت فيه مدينة الاسكندرية فوق أنقاض قرية الصيادين راقودة.. أما المهندس الذى قام بتصميمها فهو المهندس المقدونى دينوكرايتس، وكان الاسكندر الأكبر قد استدعاه خصيصًا من مقدونيا، وكلفه بوضع تصميم للمدينة.

وقام هذا المهندس بتصميم المدينة على شكل مستطيل يمتد على طول شاطىء البحر، وكان تصميمه فى بادىء الأمر عاديًا، ولا يختلف كثيرًا عن تصميم المدن المقدونية، ولكن سرعان ما اتسعت رقعة المدينة لتمتد خارج أسوارها، وكان أن أقيم الحى الذى اشتهر باسم الحى الوطنى المصرى على امتداد الغرب من المدينة، أما فى الناحية الشرقية فقد انتشرت فيها الحدائق والبساتين على امتداد ضاحية اشتهرت باسم اليوزيس لتصل إلى منطقة كانويس التى تعرف الآن باسم أبو قير.. وكانوا يطلقون على هذه المنطقة بمزارعها وبساتينها اسم «ملعب الاسكندرية»!

وتعددت اللغات واللهجات التى كان يتكلمها سكان الاسكندرية منذ إنشائها بحيث لم يحل عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد حتى أصبحت المدينة الثانية فى منطقة البحر المتوسط بعد روما، وبلغ عدد سكانها ما يقرب من المليون نسمة.

ومما يرويه بعض المؤرخين القدامى أن الإسكندر الأكبر شجع اليهود بوجه خاص على سكنى الاسكندرية، وقام بإعطائهم حقوق المواطن الإسكندرى.. وجاء وقت تبين فيه أن الإسكندرية كانت تضم أكبر عدد من اليهود فى مختلف بلاد العالم!

وتكشف بعض أوراق البردى القديمة على أن الإغريق، ومن بعدهم الرومان لم يعتبروا الاسكندرية والأراضى المحيطة بها فى أية لحظة جزءًا من أرض مصر، وأنهم كانوا يعتبرونها أرضًا مجاورة لها.

وتضمنت بعض أوراق البردى القديمة حقيقة على جانب كبير من الأهمية، فقد كانوا يتحدثون فيها عن القيام برحلات سياحية من الاسكندرية إلى أرض مصر.

وبمعنى آخر.. كان الأغريق والرومان يعتبرون الاسكندرية أرضًا غير مصرية.. أى أجنبية! ■

الفصل العاشر

أهالى برقة اعتنقوا الإسلام قبل أن تتحرك قوات المسلمين لفتح طرابلس..!

10

- عندما رفض عمرو بن العاص أن يكون بسبب الخراج كماسك قرني البقرة.. وآخر يقوم بحلبها..!
- مذبحة رهيبة يقتل فيها الرومان ١٠٠٠ فارس مسلم من المدافعين عن مدينة الإسكندرية!
- عثمان بن عفان يستنجد بعمرو بن العاص بعد عزله لطرد قوات الرومان التي عادت إلي الاسكندرية!



في عام ٢٣ هجرية، التى تواكب سنة ٦٤٣ ميلادية تحرك عمرو بن العاص تنفيذا لتعليمات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على رأس قواته الإسلامية فى اتجاه ليبيا وكانت معروفة فى تلك الأيام باسم الأراضى اللوبية، أو أرض الساحل كما كان العرب يطلقون عليها..

أما الرومان فقد كانوا يطلقون على الأراضى الليبية اسم: «بنطابوليس»..

وكان عمرو بن العاص قد انتهى فى إقامة نظام الحكم فى مصر أثناء فترة الهدنة لمدة ١١ شهراً التى طلبها الرومان لإتمام جلائهم عن مدينة الأسكندرية..

ولم تلق القوات العربية أية مقاومة على امتداد الطريق الساحلى حتى وصلت إلى مدينة برقة التى تم فتحها صلحا أى بدون قتال..

وبمقتضى هذا الصلح وافقت برقة على أن تدفع جزية قدرت بملغ ١٣ ألف دينار عن كل سنة!

وتضمن اتفاق استسلام المدينة نصين عجيبين:

الأول: السماح لأهل برقة ببيع أبنائهم حتى يتسنى لهم جمع الجزية المفروضة عليهم..

الثانى: أن يسمح لأهل برقة بحمل الجزية المقررة عليهم إلى مصر وذلك حتى لا يدخل جباة الجزية إلى بلادهم..

وقال ياقوت، وهو مؤرخ عربى قديم.. أن ٩٠٪ من أهالى برقة اعتنقوا الدين الإسلامى قبل أن تتحرك قوات عمرو بن العاص غرباً فى طريقها إلى مدينة طرابلس..!

وكانت مدينة طرابلس مفتوحة.. أى تطل على البحر كمدينة الأسكندرية، لذلك لم يكن الحصار البرى للمدينة يفيد كثيراً..

واستمر حصار المدينة لمدة ثلاث اشهر حتى استطاع المقاتلون العرب أن ينفذوا إلى داخل المدينة من ثغرة اقتحموها بين البحر واسوار المدينة..

وارتفعت أصوات التهليل والتكبير.. الله أكبر.. الله أكبر.. مرة أخرى، ولكن

داخل حصون المدينة التى كانت قوية وأكثر تسليحاً من أية مدينة أخرى على امتداد الطريق الساحلى.. وكان هجوم القوات الإسلامية مفاجئاً مما أدى إلى ارتباك قوات المدافعين الرومان عن المدينة، وكان أن انهارت قواهم، وبادرت غالبيتهم بالاستسلام.. بينما هرب الباقون عن طريق البحر.

ولم يتوقف عمرو بن العاص عن التحرك غرباً بعد أن استولت قواته على مدينة طرابلس عنوة، حتى وصل إلى مدينة سبراطة، وكان اسمها القديم «سيرة» وقد قامت قواته بمهاجمة المدينة عند تباشير الفجر.

ودار قتال فى شوارع المدينة، لم يستغرق أكثر من يوم واحد، وبعدها استسلمت قوات الرومان فى المدينة.

وكان عمرو بن العاص يزمع مواصلة زحفه نحو الغرب لكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعث إليه بتعليمات يأمره فيها بالتوقف عند هذا الحد فى زحفه على امتداد شاطئ الشمال الأفريقى، والعودة إلى مصر.

وعاد عمرو بن العاص بعد أن دخلت الأراضى الليبية تحت ولايته.. أى تحت مظلة الحكم الإسلامى.

وحمل عمرو بن العاص معه مقداراً كبيراً من الغنائم، كما ساق أمامه عدة مئات من الأسرى الرومانيين!

* * *

ولم يعش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد أن تم فتح الأسكندرية أكثر من ثلاث سنوات، فقد قام أبو لؤلؤة فيروز المجوسى، وهو من أصل فارسى بطعنه عدة طعنات قاتلة بينما كان يؤدى صلاة الفجر فى المسجد.. وكان ذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة فى عام ٢٣ هجرية «عام ٦٤٤ ميلادية».

وتقول السيرة النبوية لابن هشام.. إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاح عندما تلقى طعنات القاتل:

- قتلنى الخبيث:

وقالت أيضاً.. أن أمير المؤمنين تماسك على نفسه بالرغم من الطعنات القاتلة التى

أصيب بها حتى استطاع إتمام صلاته، ولما فرغ من الصلاة أخذ يوصى بالمسلمين خيراً. وهو يقول:

- **إنى نظرت فى الناس فلم أجد عندهم شقاقاً إلا أن يكون فيهم، وإن الأمر إلى السنة!**

وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يتوفاه الله!

وكانت مدة خلافة عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام بالضبط.

وكان عمره فى يوم وفاته حوالى ٦٠ عاماً.

ودفن أمير المؤمنين إلى جوار النبى ﷺ وأبو بكر الصديق بعد موافقة السيدة عائشة!

وصدر منذ وفاة أمير المؤمنين الفاروق حتى سنة ٢٠٠٠، وبالضبط على مدى ١٤ قرناً هجرياً مئات المؤلفات والكتب عن زهده، وعدله، وعن حزمه وتقشفه..

ولا شك أن تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان حافلاً فى خدمة الإسلام، فقد كان أول من نقل الدعوة الإسلامية من السر إلى العلن، ولذلك أطلق عليه اسم الفاروق، وهو أول من تسمى باسم أمير المؤمنين وأول من سن للمسلمين العمل بالتاريخ الهجرى..

وكان هو أيضاً الذى وضع نظام الخراج أو الفدية بدلاً من الأنظمة الأخرى السابقة التى كانت متبعة، وكانت كثيراً ما تقضى بنزع الأرض من يد المنتفعين الأصليين بها.

وكان أول من أمر ببناء عواصم الحكم فى البلاد التى فتحتها القوات الإسلامية فى أيامه، ومنها مدينتى الكوفة فى العراق والفسطاط فى مصر!

وكان أول من أقام نظاماً صالحاً للقضاء، ونظم الدواوين.. أى المصالح الحكومية.

ومع وفاة أمير المؤمنين الفاروق تشاور كبار الصحابة فيما بينهم عن أصلح القادة المسلمين ليكون الخليفة الثالث.

ودارت المشاورات بينهم لمدة ثلاثة أيام، ثم أعلن أنه وقع اختيارهم على عثمان ابن عفان ليكون الخليفة الجديد.

وكان أول ما فعله عثمان بن عفان هو أنه أصدر قراراً بعزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر وتعيين عبد الله بن سعد بن أبى سرح خلفاً له!

* * *

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أصدر فى أواخر أيامه قراراً بتولية عبد الله ابن سعد بن أبى سرح، وهو أخ لعثمان بن عفان من والدته.. أى أخ غير شقيق، وفى رواية أخرى أنه أخ فى الرضاعة، حكم صعيد مصر والفيوم، وأبقى عمرو بن العاص أميراً للفسطاط والوجه البحرى بما فيه الأسكندرية.

وقام عمرو بن العاص بعد وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالسفر إلى المدينة المنورة متصوراً أن فى وسعه اقناع عثمان بن عفان بعزل عبد الله بن سعد عن صعيد مصر والفيوم ليصبح وحده أميراً على مصر.

ويقول المؤرخ القديم ابن عبد الحكم:

– هكذا كانت مصر فى أواخر أيام عمر بن الخطاب – رحمه الله عليه – يحكمها أميرين.. عمرو بن العاص على شمال البلاد. وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد!

وجاء عمرو بن العاص إلى المدينة المنورة ليطلب إلى عثمان بن عفان أن يعزل عبد الله بن سعد عن الصعيد حتى يبقى وحده أميراً على مصر.. أى حاكماً عليها.

ورفض عثمان بن عفان بشدة وقال لعمرو:

– ولاه عمر بن الخطاب على الصعيد، وأنت تعلم أنه أخى، فكيف أعزله عما ولاه غيرى؟

فغضب عمرو بن العاص، وقال لعثمان:

– لست راجعاً إلى مصر إلا على ذلك.. أى بعد أن تصدر قراراً بعزل عبد الله بن سعد.

وكان رد عثمان بن عفان أن بادر بإصدار قراره بعزل عمرو بن العاص، وتعيين عبد الله بن سعد حاكماً على مصر كلها!.

* * *

ويقول الفريد بتلر: اختلفت الآراء حول هذا الوالى الجديد فقال عنه النواوى أنه كان من عقلاء قريش وأشرافها وليس كما وصفه عمرو بن العاص بالضعف وقلة الكفاءة فى حكم البلاد، وفى قيادة الجيوش.

وقال الطبرى عنه.. أنه لم يكن من الولاة الذين عينهم عثمان بن عفان أسوأ من عبد الله بن سعد والى مصر.

ومما يروونه أن عمرو بن العاص كان قد أناب عنه ابنه عبد الله بن عمرو لتولى شئون إمارة مصر أثناء فترة غيابه عندما سافر إلى المدينة المنورة لمحاولة اقناع عثمان بن عفان بعزل عبد الله بن سعد، وحدث أن نزل عبد الله بن عمرو من بيته ليصلى بالناس، ولم يكن قد عرف بعزل والده، وقد فوجىء بعبد الله بن سعد، وهو يخطب فى المصلين بعد أن أصبح الحاكم الوحيد فى مصر.

وكان عزل عمرو بن العاص فى عام ٢٥ هجرية.

ويقول المؤرخون القدامى أن قرار عزل عمرو بن العاص أثار الدهشة فى مختلف أنحاء البلاد.

وأرسل بعض زعماء الرومان الذين كانوا قد فضلوا البقاء فى الأسكندرية بعد انسحاب قواتهم منها رسالة إلى الإمبراطور قسطانز الذى أصبح الأمبراطور بعد وفاة الأمبراطور هرقليناس يطلون إليه أن يخلصهم ممن وصفوه بظلم المسلمين.

قالوا له.. إن الفرصة أصبحت سانحة بعد عزل عمرو بن العاص وعدم وجود حامية إسلامية كبيرة فى الإسكندرية لتدافع عها ضد أى جيش رومانى يكلف باسترداد المدينة.

وأسالت هذه الرسالة لعاب الإمبراطور الذى تصور أن فى وسعه فعلاً العودة بقواته لاحتلال المدينة.. ومصر أيضاً.

وتناسى الامبراطور العهد الذى كانت الأمبراطورية الرومانية قد قطعته على نفسها فى اتفاقية التصالح بين العرب والرومان وهى الاتفاقية التى عرفت باسم صلح الاسكندرية، وقد تعهد الرومان فيها صراحة، بعدم محاولة العودة لقتال العرب مرة أخرى فى مصر، وكان أن أخذ فى سرية تامة فى إعداد جيش كبير من الرومان لاستخدامه فى إعادة الاستيلاء على مدينة الاسكندرية.

وكانت الامبراطورية الرومانية ما تزال تملك أسطولاً بحرياً كبيراً يضم عدة مئات من السفن مما كان يفرض سيطرتها على البحر المتوسط.

وفجأة تحركت ٣٠٠ سفينة من القسطنطينية وهى تحمل القوات الرومانية، ثم أخذت تتجه بسرعة ناحية الشواطئ المصرية.

ولم يكن العرب يملكون فى تلك الأيام سفينة واحدة لمواجهة تحركات الأسطول الرومانى.

وكانت المفاجأة عندما أخذت السفن الرومانية تلقى مراسيها أمام شواطئ الأسكندرية لتفرغ حمولتها من المقاتلين الرومان.

ولم يكن فى المدينة أكثر من ١٠٠٠ مقاتل من العرب للدفاع عنها.

وكانت مذبحة رهيبة عندما قتل الرومان غالبية المقاتلين العرب بحيث لم يفلت منهم من الموت إلا عدد قليل منهم وهم الذين تمكنوا من الهرب والنجاة بأنفسهم.

وعادت الأسكندرية مرة أخرى إلى حكم الرومان!

وكان استرداد الرومان للمدينة فى أوائل السنة الخامسة والعشرين هجرية.. أى فى حوالى سنة ٦٤٥ ميلادية.

* * *

وأخذ عثمان بن عفان عندما بلغته تفاصيل المذبحة التى ذهبت ضحيتها القوات الإسلامية فى الأسكندرية، وعودة الرومان إليها، يفتش عن عمرو بن العاص حتى عرف أنه كان يعيش فى بيت بمكة منذ أن صدر قرار عزله عن حكم مصر.

وأرسل عثمان بن عفان إلى عمرو بن العاص من استدعاه لمقابلته فى المدينة.

وجاء عمرو ليطلب إليه عثمان أن يعود فوراً إلى مصر لتولى قيادة الجيوش الإسلامية.

قال له: إن الروم تفضوا العهد الذى كان ينص على عدم معاودتهم غزو مصر.

ولم يتردد عمرو بن العاص لحظة واحدة فى تولى مسئولية إخراج الرومان مرة أخرى من الأسكندرية.

قال: إنها مهمة مقدسة. وسأقوم بتنفيذها فوراً!

ووصل عمرو بن العاص إلى مصر ليسمع أن قوات الرومان، وكانت تحت قيادة قائد رومانى اسمه منويل قد تحركت من الإسكندرية بعد احتلالها، وأنها أخذت تعربد فُى تحركاتها فى محاولة لاسترداد مواقع جديدة فى مختلف أنحاء البلاد.

وسمع حكايات كثيرة عن جرائم السلب والنهب التى ارتكبها الجنود الرومان فى قصور وبيوت الأقباط المصريين.

وتألم عمرو بن العاص عندما تذكر أنه قد وقع فى خطأ كبير عندما لم يهدم أسوار وتحصينات مدينة الإسكندرية عندما قام بفتحها لأول مرة بدون قتال.

وازداد ألمه عندما اكتشف أن قوات الرومان قد عادت إلى البلاد بمساعدة بعض الخونة الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية، وكانت غالبيتهم من الرومان الذين فضلوا البقاء فى المدينة وكان ترحيبهم شديداً بدفع الجزية التى كانت مقررة عليهم.

وعرف أن الرومان قد تلقوا مساعدات أخرى من بعض الذين كانت تربطهم علاقات ومصالح خاصة مع الرومان من سكان بعض القرى فى بلاد مصر الوسطى.

ولكن الشيء المؤكد أن أقباط مصر قد انتابتهم حالة من اليأس المقرون بالخوف بعد عودة الرومان، ولم يكن أمامهم إلا أن يندفعوا بكل إمكانياتهم فى تقديم المساعدات لقوات عمرو بن العاص.

واعترف الفريد بتلر فى كتابه عن «فتح مصر» بالرغم من عنصريته بأن أقباط مصر كانوا سعداء، وقد تزايد اطمئنانهم على دينهم ودنياهم فى ظل الحكم الإسلامى، بينما كان شعورهم بالاستقرار والأمن يتضاءل فى ظل حكم الرومان!

وفى بادئ الأمر لم يعرف مصير البطريرك بنيامين الذى كان يباشر مهامه الدينية فى إحدى كنائس الإسكندرية، وكان الاحتمال كبيراً فى أن يكون قد غادر مقره فى الاسكندرية عندما عرف بالخطر الذى كان يتهدده عندما قام الرومان بهجومهم المفاجئ على المدينة لإعادة الاستيلاء عليها.

والشيء المؤكد أن أقباط مصر حافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم بعد عودة الأنبا بنيامين إلى الاسكندرية وأكثر من ذلك فقد كان البطريرك بنيامين يعمل على شد أزر القوات الإسلامية كما كان يقدم إليها الكثير من المساعدات وكان أقباط مصر يظهرون الود لهذه القوات الإسلامية، بينما نقض الرومان، وهم من أبناء

الكنيسة الكاثوليكية الأخرى فى روما العهد الذى قطعوه على أنفسهم فُى صلح الإسكندرية الذى كان ينص صراحة فى أحد بنوده على عدم عودة الرومان إلى مصر.. أو أن يسعوا مرة أخرى لحرب المسلمين!

ووقع هؤلاء الرومان فى خطأ كبير وهو أنهم اتجهوا للاستيلاء على مصر السفلى.. أى الصعيد، ولم يراودهم التفكير فى التركيز على الاستيلاء على حصن بابليون باعتباره مركز الثقل فى الدفاع عن مصر كلها.

وأضاع الرومان بذلك الفرصة حتى عاد عمرو بن العاص لقيادة الجيش الإسلامى، وكان أول ما فعله هو إعادة تنظيم قواته ودعم الدفاع عن حصن بابليون.

واستطاع عمرو بن العاص أن يستدرج قوات الرومان حتى وصلت إلى مدينة كان يطلق عليها اسم نقيوس.

ووقع حول هذه المدينة قتال شديد، وكانت قوات المسلمين تقدر بحوالى ١٥ ألف مقاتل.. وحارب عمرو بن العاص بنفسه فى هذه المعركة بين مقاتليه، وانتهت المعركة بهزيمة جيش «منويل» القائد الرومانى الذى ولى هارباً ليتحصن وراء أسوار مدينة الإسكندرية.

ومرة أخرى يعترف ألفريد بتلر فى كتابه فيقول بالحرف الواحد.

- أقفل الرومان أبواب الإسكندرية عليهم واستعدوا للحصار، وكان عمرو يلقى أثناء تحركه فى بلاد مصر السفلى مساعدة الأقباط المصريين الذين كانوا يأتون إليه بمن يقيم له الجسور، ويقدمون إليه ما كان فى استطاعتهم تقديمه بعدما تعرضوا له من عمليات نهب الرومان لممتلكاتهم..

واستطاع عمرو بن العاص بعد أن بلغت قواته أسوار الاسكندرية أن يقتحم المدينة عنوة بمساعدة بواب كان مسئولاً عن أحد أبواب المدينة، وكان اسمه ابن بسامة وكان قد طلب إلى عمرو أن يؤمنه على حياته مقابل أن يفتح له الباب الذى كان مسئولاً عنه.

ووافق عمرو بن العاص ليقوم الرجل بفتح الباب لتدخل منه القوات الإسلامية إلى داخل المدينة.

وكان اقتحام المدينة عنوة فى هذه المرة.. أى بقوة السلاح، ومع دخول القوات

الإسلامية إلى المدينة اشتعلت النيران فى المنطقة لتلتهم الحرائق كل ما كان باقياً على الأرض من مبان وآثار بالقرب من باب الحى الشرقى، كما اشتعلت النيران فى كنيسة القديس مرقص التى كانت تقع فى هذه الناحية واستمر القتال حتي بلغ المقاتلون العرب وسط المدينة وارتفعت صرخات الرومان، وهم يطلبون الرحمة مما اضطر عمرو ابن العاص إلى أن يأمر مقاتليه بالكف عن القتال.

وتم فى هذه المنطقة بناء المسجد الذى أطلق عليه اسم مسجد الرحمة، وهو ما يزال موجوداً فى مكانه حتى الآن بالاسكندرية ويحمل نفس الاسم!

وقتل منويل قائد الرومان.. فى هذه المعركة بينما هرب من تبقى من جنوده بواسطة بعض السفن التى وجدوها فى ناحية بوغاز الإسكندرية.

وقام عمرو بن العاص بمجرد أن انتهت المعارك بهدم الأسوار الشرقية للمدينة، وقد عمل على تسويتها بالأرض حتى لا تعود مرة أخرى عقبة فى حالة أى حصار للمدينة.

وتقول رواية لابن عبد الحكم.. إن بنيامين بطريرك الأقباط المصريين ظهر فجأة على أثر عودة عمرو بن العاص إلى مصر، فقد ذهب إليه فى حصن بابليون قبل أن يتحرك على رأس القوات الإسلامية لتحرير الأسكندرية وقال له:

أولاً: لا تبذل للروم أى شروط للصلح مثلما فعلت من قبل، لأنه سبق لك أن نصحتهم وتعاهدت معهم ولكنهم نقضوا عهدك.

ثانياً: ألا يسيىء المسلمون للأقباط المصريين لأن نقض العهد لم يأت من جانبهم.

وأدرك عمرو بن العاص ما كان البطريرك يعنيه، فقد كان واضحاً أنه أراد أن يؤكد له أن الأقباط المصريين بالرغم من رابطة الدين المسيحى التى كانت تربطهم بالرومان ليسوا معهم، وأنهم بكل عواطفهم ومشاعرهم مع العرب.

وأخذ عمرو بن العاص يطمئن البطريرك على إدراكه لسلامة موقف الأقباط المصريين!

وفجأة قال البطريرك لعمرو بن العاص:

– وصيتى أن توافق عندما أموت أن يتم دفنى فى كنيسة «يحنس» فى الاسكندرية!

ثم قام البطريرك بمباركة عمرو بن العاص، وهو يدعو له بالنصر فى معركته لطرد الرومان من الاسكندرية فقد كان انتصار قوات المسلمين عليهم يعنى بالنسبة له وللأقباط المصريين أن يعود إلى كنيسته فى المدينة حتى يباشر فيها رعايته لشئون رعيته من الأقباط المصريين.

* * *

وفى محاولة ألفريد بتلر لتحليل تطورات الأحداث فى تلك الأيام قال:

- إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان شديد القسوة فى معاملته لعماله وولاته على الأقاليم المختلفة، ومنهم عمرو بن العاص.. وكان يبدو أنه كان يسئ الظن بهم جميعاً بالدرجة التى جعلت بعضهم يتوقع منه العزل والمحاسبة فى أية لحظة.. وكان يطلب منهم دائماً موافاة بيت المال فى المدينة المنورة بكل ما كان يتجمع لديهم من أموال الجزية، ولم يكن يسمح لأى واحد بأن يحتفظ لديه بأية أموال لاستخدامها فُى تعمير البلاد التى كانت تحت امرته.

واغتيل عمر بن الخطاب فى أواخر شهر ذى الحجة من عام ٢٣ هجرية ودفن فى غرة شهر المحرم من عام ٢٤ للهجرية وبالضبط فى يوم ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ ميلادية، وقد تم اختيار عثمان بن عفان خليفة له، إلا أن دولة المسلمين لم تتحمس كثيرا لمقتل عمر بن الخطاب وولاية عثمان بن عفان، فقد كان عمر بن الخطاب يضايق خير ولاته، وكان يسئ إليهم ثم جاء عثمان بن عفان من بعده ليعزلهم، وكان من أبرز قرارات عمر بن الخطاب فى أواخر أيامه، وقبل وفاته هو عمله للتقليل من سلطان عمرو بن العاص بأن قام بتولية عبد الله بن سعد بن أبى سرح حكم الصعيد والفيوم، وكلفه بجباية الجزية، ومما قيل أنه كان يباشر عمله واليا على صعيد مصر فى قرية فى الفيوم اسمها دموشة وإنه تلقى قرار تعيينه حاكما على مصر كلها بعد أن قام عثمان ابن عفان بعزل عمرو بن العاص فى هذه القرية!.

وعمل الوالى الجديد على زيادة الجزية على أهل الاسكندرية، وكان من أثر زيادة هذا العبء الثقيل عليهم أن بعث زعماؤهم برسائلهم إلى الإمبراطور قسطانز إمبراطور الرومان فى القسطنطينية يطالبونه بالعمل على إنقاذهم من حكم المسلمين.

* * *

ومما يروونه عن تلك الأيام أيضاً أن أقباط مصر من سكان بعض القرى فى مصر السفلى جاءوا إلى عمرو بن العاص بعد أن أعاد فتح الأسكندرية يشكون إليه من عمليات السلب والنهب التى قام بها جنود الرومان فى بلادهم..

وبادر عمرو بن العاص بتعويض الأقباط المصريين عن خسائرهم.

ويقول بعض المؤرخين القدامى.. إن عثمان بن عفان أراد مكافأة عمرو بن العاص على انتصاراته على الرومان واسترجاع الأسكندرية من أياديهم فعرض عليه أن يبقى قائداً للقوات الإسلامية فى مصر على أن يكون عبد الله بن سعد حاكمها وعاملاً على ولاية خراجها، ورفض عمرو بن العاص قبول ذلك وكان رده:

- هذا يعنى أن أصبح كماسك البقرة من قرنيها وآخر يحلبها!

ولم يبق عمرو بن العاص أكثر من شهر واحد فى مصر بعد أن أتم مهمته، ثم عاد إلى مكة مرة أخرى ليعيش فيها كما كانوا يقولون فى الظل وبعيداً عن الأضواء.

وتلاحقت بعض ذلك أحداث كثيرة وفى مقدمتها تفكير العرب فى أن يكون لهم أساطيل بحرية بعد أن خرجت دولتهم من الصحراء، وأصبحت تطل على شواطئ البحر المتوسط.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شديد التخوف على المسلمين فى أن يكون لهم سفن بحرية حيث لم يكن لهم عهد بها. وكان معاوية بن أبى سفيان والياً على الشام قد اقترح عليه أن يكون للعرب أساطيل بحرية فى مواجهة تهديدات الرومان التى كانت تسيطر على مياه البحر الأبيض، ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لم يوافق واعترض بشدة على تنفيذ هذا الاقتراح وعلى العكس صرح أمير المؤمنين عثمان بن عفان له بإنشاء أول أسطول بحرى عرفه العرب.

وفى أيام عثمان بن عفان قام عبد الله بن سعد حاكم مصر بفتح شمال أفريقيا التى كانت معروفة باسم قرطاجنة القديمة، وقد دارت بين قوات المسلمين معارك ضارية مع جرجير ملك البربر كما كان يطلق عليه العرب.

إنه هو نفسه جريجورى بطريرك أفريقيا الرومانى الذى كان قد أعلن استقلاله عن بيزنطه، وأصبح يطلق على نفسه اسم: ملك البربر.. وقال بعض المؤرخين القدامى إن قوات جيشه كانت تقدر بحوالى مائة ألف مقاتل وأن كان فى رأى الآخرين أن هذا الرقم كان مبالغاً فيه.

المهم.. خرجت قوات جريجورى لمواجهة القوات الإسلامية.

وكان نصر من الله وفتح جديد للمسلمين بانتصار قوات العرب على قوات جريجورى.

وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب حتى المحيط الاطلنطى.

وفى سنة ٢٨ هجرية «٦٤٩ ميلادية» استخدم معاوية بن أبى سفيان الشام لأول مرة سفناً تم تصنيعها فى الإسكندرية، وفى بعض موانىء بلاد الشام فى فتح جزيرة قبرص.

وكانت أول غزوة بحرية لقوات المسلمين.

وفى سنة ٣١ هجرية «٦٥١ ميلادية» أغتيل كسرى يزدجرد ملك الفرس لتتم بموته تصفية الأسرة الساسانية التى رفعت من شأن الفرس لسنوات طويلة.

وكانت وفاة يزدجرد تعنى نهاية فارس عابدة النار وبداية عهد جديد لفارس الإسلامية التى لعبت دوراً كبيرا فى تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.

وفى أواخر نفس السنة.. أى فى سنة ٣١ هجرية «٦٥٢ ميلادية» قام حاكم مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بفتح بلاد النوبة، وقد وصلت قواته الإسلامية حتى مدينة دنقلة فى شمال السودان، وقد بادر النوبيون بطلب الصلح.. وعقد المسلمون مع بلاد النوبة معاهدة على غرار المعاهدات التى اعتاد المسلمون أن يبرموها مع أهل الذمة إلا أنها تضمنت شرطاً، وهو أن يدفع النوبيون الجزية فى صورة عدد من العبيد فى كل سنة!

وفى سنة ٣٤ هجرية.. أى فى سنة «٦٥٥ ميلادية» راودت قسطانز امبراطور بيزنطة فكرة إعادة فتح الاسكندرية مرة أخرى.

وكان أن أعد أسطولاً ضخماً، يتراوح عدد سفنه ما بين ٧٠٠ وألف سفينة، وقد تحرك على رأس هذا الأسطول متجها ناحية الأسكندرية لإعادة احتلالها.

وكان عبد الله بن أبى سرح قد أدرك بدوره أهمية الأسطول البحرى فقام بتصنيع أسطول يتكون من مائتى سفينة فى ميناء الأسكندرية، وقام بتزويدها بقوات مدربة على القتال.

وتصدى حاكم مصر بأسطوله الوليد للسفن البيزنطية، واقتربت السفن من

بعضها البعض وكانت معركة ضارية بين المسلمين والبيزنطيين، وكان نصرا جديداً من الله لقوات المسلمين على الرومان وقد نجا الأمبراطور قسطانز من الموت فى هذه المعركة بصعوبة عندما قام بالهرب على ظهر سفينة سريعة عائدة إلى القسطنطينية.

وكانت المعركة البحرية واحدة من أكبر معارك التاريخ فى تلك الأيام، وقد اشتهرت باسم معركة « ذات الصوارى » بسبب كثرة صوارى السفن التى شاركت فى المعركة.

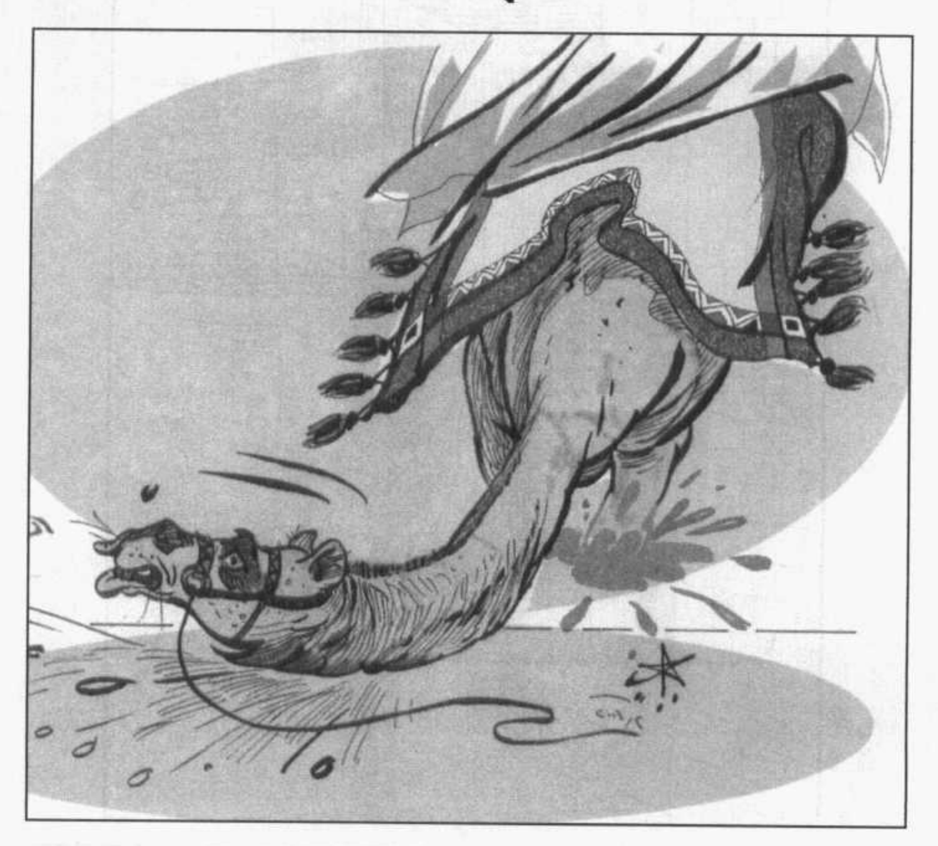
وكان من نتيجة هذه المعركة أن استسلمت بيزنطة للأمر الواقع وكفت عن محاولاتها لإعادة غزو الأسكندرية لسنوات طويلة! ■

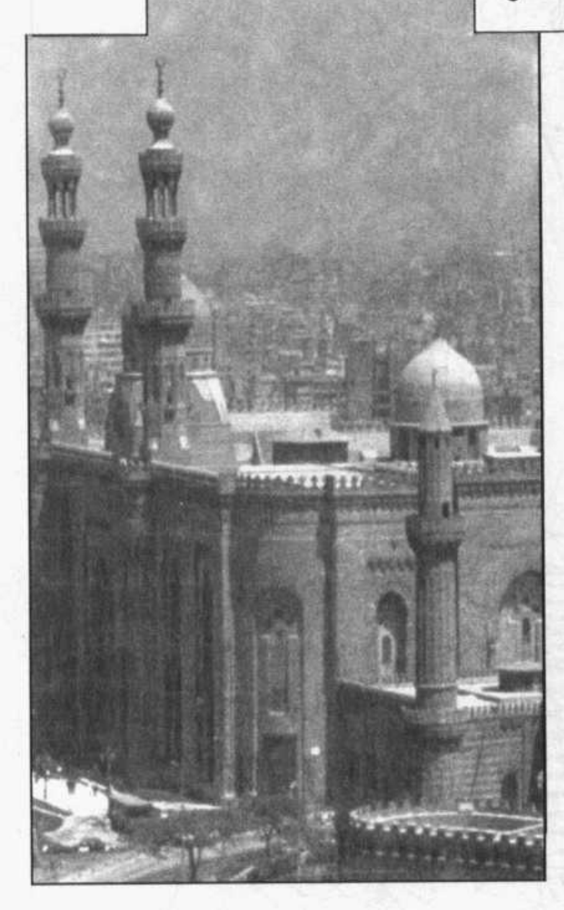




• أخذ يهودي اسمه عبدالله بن سبأ يتنقل بين البلاد الإسلامية لينشر الفتنة ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان..

• اشتهرت المعركة بين قوات سيدنا علي بن أبي طالب والمطالبين بالانتقام لقتل عثمان بن عفان باسم «معركة الجمل»..





الفصل الحادى عشر

الانقلاب على الخليفة الثالث عثمان بن عفان بدأت تحركاته من مصر..!

11

- قتل الخوارج علي بن أبي طالب لينتهي عهد الخلفاء الراشدين.. وليبدأ عهد الملكية الإسلامية.
- عندما اشترط عمرو بن العاص علي معاوية بن أبي سفيان أن يعود من جديد واليا علي مصر..!
- بايعوا الحسن بن علي بن أبي طالب أميرا للمؤمنين.. ولكنه تنازل لمعاوية حفاظا علي وحدة المسلمين!



وقعت فى المدينة المنورة فى سنة ٣٥ هجرية التى تواكب سنة ٦٥٥ ميلادية أحداث مؤسفة كادت أن تهدد العالم الإسلامى بالتصدع والانقسام.

وكانت بعض الأصوات قد ارتفعت فى صفوف المسلمين تتهم الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالانحراف عن خط العدالة التى عرفها المسلمون فى عهد الاثنين اللذين سبقاه من الخلفاء الراشدين وهما أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب.

وترددت اتهامات كثيرة تقول إنه يقوم بمحاباة أقاربه من الأمويين، وكان معروفًا عن هؤلاء الأمويين أنهم قد تأخروا كثيراً قبل اعتناق الإسلام مما كان يثير علامات استفهام كثيرة حول الكثير من تصرفاتهم.

واشترك عدد من صحابة رسول الله فى حملات النقد والثورة على عثمان بن عفان، وكان المسلمون ينظرون إلى هؤلاء الصحابة باعتبارهم من الأمناء على الدين وعلى دستور الحكم الإسلامى.

وعرف أن يهوديا من اليمن اسمه عبدالله بن سبأ كان يعمل فى الخفاء على نشر الشائعات ضد عثمان بن عفان وكان هذا اليهودى قد اعتنق الإسلام ثم أخذ يقوم بجولات فى بعض الأقطار الإسلامية لإثارة الفتنة ضد عثمان.

وكان فى رأى بعض المسلمين.. أن هذا اليهودى أراد بإسلامه أن يعمل على تخريب الدعوة الإسلامية من داخلها!

وأكد بعض المؤرخين العرب القدامى اتهام هذا اليهودى وقالوا إنه لعب دورا كبيرا أثناء رحلاته التى كان يقوم بها متنقلا بين عواصم العالم الإسلامى فى إثارة الفتنة بما كان يروجه من اتهامات ونقد لتصرفات عثمان بن عفان وخصوصا فيما يتعلق بتولية أقاربه وعزل الأكفاء من كبار رجال الصحابة من مناصبهم.

واضطرت جماعات من المسلمين لطرد الرجل من مجالسها فى الكوفة وبلاد الشام، وفى كل العواصم التى قام بزيارتها حتى وصل إلى مصر.

والثابت أن دعوة الرجل اليهودى صادفت هوى فى نفوس بعض المسلمين المصريين، والأقباط أيضا لاختلافهم مع عثمان بن عفان حول قراره بعزل عمرو بن العاص من حكم مصر.

وكان فى رأى الأقباط المصريين أن عمرو بن العاص الذى فتح مصر وجاء إليها بالإسلام كان عاشقا حقيقيًا لها، وأنهم لم يشهدوا الأمان والاستقرار إلا فى عهده.

وكان المسلمون المصريون ينقمون على عبد الله بن أبى سرح الذى عينه عثمان بن عفان حاكما على مصر، ويتهمونه بأنه كان قد سبق له أن أرتد عن الإسلام فى أيام الرسول صلوات الله عليه وسلامه مما أدى إلى هدر دمه، ولم ينقذه من الموت إلا عثمان ابن عفان الذى تشفع له عند الرسول الكريم فى يوم الفتح!

وكان الأقباط المصريون ينقمون على الرجل أيضا لتعسفه فى جباية الجزية - أى الضرائب.

وتقول إحصائية أن جملة حصيلة الجباية على مدى سنوات حكم عمرو بن العاص كانت ١٢ مليون دينار، وأن جانبًا كبيراً من هذه الحصيلة أنفق فى إصلاح أحوال البلاد وتمويل وتنفيذ الكثير من المشاريع فيها.

وقد ارتفعت الجباية فى أيام عبد الله بن أبى سرح لتصل خلال فترة لم تتجاوز سنة واحدة إلى ٤٠ مليون دينار دون أن يخصص منها ما كان عمرو بن العاص يقتطعه لإصلاح أحوال البلاد.

بالإضافة إلى ذلك كان عبد الله بن أبى سرح مشغولا بعمليات الفتح والغزو فى بلاد شمال أفريقيا وفى بلاد النوبة، وبالتالى لم يكن لديه من الوقت للعناية ورعاية شئون البلاد.

وهكذا اشتعلت نيران الفتنة فى مصر ضد عثمان بن عفان والوالى الجديد الذى عينه حاكما على مصر!

وعرف عثمان بن عفان باشتداد حملات النقد ضده فى مصر فبادر باستدعاء عبد الله بن أبى سرح إلى المدينة المنورة للتشاور معه حول تطورات الموقف فى مصر.

وفى رواية أخرى أن عبد الله بن أبى سرح هو الذى توجه بنفسه إلى المدينة المنورة، وأنه أناب عنه فى حكم مصر أثناء فترة غيابه - عقبة بن عامر الجهنى.

وانتهز أحد قادة الجيش الإسلامى فى مصر، واسمه محمد بن أبى حذيفة الفرصة بمجرد أن غادر عبد الله بن أبى سرح الأراضى المصرية، وقام بجمع عدد من المقاتلين العرب من الساخطين على نظام الحكم فى مصر ثم بادر بمهاجمة عقبة بن عامر وهزمه، وأخرجه من مدينة الفسطاط.

وشهد المسجد الجامع الذى أصبح اسمه الآن مسجد عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط لأول مرة خطابا دعا فيه قائد العملية إلى خلع عثمان بن عفان من الخلافة! .

وكان هذا التحرك من جانب ابن حذيفة أشبه بانقلاب عسكرى ضد حكم عثمان ابن عفان !

وكما وصفه أحدهم : كان أول انقلاب عسكرى بعد قيام الدولة الإسلامية !

ووصلت أنباء ما حدث إلى عبد الله بن أبى سرح، وهو فى طريقه إلى المدينة المنورة، فبادر بالعودة إلى مصر، ولكن قوات محمد بن أبى حذيفة تصدت له وقامت بمنعه من الوصول إلى الأراضى المصرية .

وكانت معركة سريعة انتهت بفراره إلى فلسطين . . وقيل إنه قتل بالقرب من مدينة الرملة!

وكانت هذه التطورات هى بداية الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان، ومبايعة على بن أبى طالب ليكون الخليفة الرابع للمسلمين!

• • •

وفى اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة من عام ٣٥ هجرية « ٦٥٦ ميلادية » قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان بعد حصار لبيته دام أربعين يوما!

وكان جيش يتكون من ٦٠٠ مقاتل عربى قد تحرك من مصر بعد الانقلاب الذى قام به محمد بن أبى حذيفة، وهو من قادة المجاهدين المسلمين الذين شاركوا فى فتح مصر، لتنضم إليه قوات إسلامية أخرى جاءت من الكوفة والبصرة .

وقامت هذه القوات بمحاصرة عثمان بن عفان فى بيته . . وتولى قيادة هذه القوات محمد بن أبى بكر الصديق . . وسأل عثمان بن عفان عن السبب فى محاصرة بيته . . وكان الرد عليه : أن المطلوب هو خلعك من منصبك كأمير للمؤمنين!

وتقول رواية أخرى . . إن كبار رجال الصحابة فى المدينة المنورة، وكان على رأسهم سيدنا على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – قد وقفوا موقفًا سلبيًا إزاء هذا الحصار، وإن كان بعض هؤلاء الصحابة قد أرسلوا عددا من أولادهم للمشاركة فى الدفاع عن عثمان بن عفان، وليمنعوا الثائرين من اقتحام بيته واغتياله .

وتقول الرواية.. إن الثائرين خشوا أن يصل جيش من الشام قيل إن معاوية بن أبى سفيان، وكان يعمل واليا على الشام سوف يبعث به لنصرة عثمان بن عفان، وكان أن قرروا حسم الموقف بقتل عثمان الذى رفض فى كبرياء وإصرار أن يتنازل عن الخلافة.

وفشلت محاولات الثائرين فى اقتحام بيت عثمان فقاموا بالتسلل إلى البيت من سطح أحد البيوت المجاورة وتمكنوا من الوصول إلى الحجرة التى كان عثمان يحتمى فيها.

كان يقرأ فى كتاب الله، ولم يمنعهم ذلك من مهاجمته والانقضاض عليه.

وقيل إنهم ضربوه ثم طعنوه ثم قاموا بقتله بالسيف بينما وقفت إلى جواره زوجته نائلة وهى تدافع عنه باستماتة فقطعت أصابع يديها وسالت دماؤها إلى جوار دم زوجها الشهيد عثمان بن عفان على صفحات المصحف الشريف.

وقتل عثمان بن عفان وحسبنا أن نقول إنه كان من أول خمسة سبقوا إلى الإسلام، وأنه تزوج رقية ابنة رسول الله ﷺ فلما توفيت زوجه الرسول أختها أم كلثوم، ولذلك كان يطلق عليه اسم «ذو النورين».. وفى أيامه اتسعت فتوحات المسلمين لتتضاعف عدة مرات، وركب المقاتلون البحر، وخاضوا المعارك البحرية ضد الرومان بعد أن كان عمر بن الخطاب يحظر المخاطرة بركوب البحر عليهم، ويرجع إليه الفضل فى نسخ القرآن وتوزيعه ونشره فى الأمصار المختلفة محققا بذلك معجزة القرآن من قيامه بنص واحد عبر أربعة عشر قرنا من الزمان حتى الآن، وإلى ما شاء الله.

وكان عثمان بن عفان فى يوم مقتله شيخا تجاوز الثمانين من عمره، وكانت مدة خلافته ١٢ عاما إلا عدة أيام.

• • •

وهكذا تمت المأساة أو الكارثة كما وصفها بعض المؤرخين القدامى.. وكانت هذه المأساة بداية أحداث مفجعة أغرقت الأمة الإسلامية فى طوفان من الدم على مدى خمس سنوات كاملة.

وكما يقول هؤلاء المؤرخون.. كانت قوة الدين الإسلامى وعمق ما ينطوى عليه من حق وصدق كافية لتخرج الأمة الإسلامية من الفتنة التى كانت تهددها، كما خرجت دائما من كل فتنة تعرضت لها، وهى أشد قوة وحيوية وإشراقا.

المهم . . أقبل الثائرون الوافدون من مصر والبصرة والكوفة عقب مقتل عثمان بن عفان يطالبون بمبايعة على بن أبى طالب، ولكنه رفض دعوتهم لبيعته، وقال لهم: إن البيعة لا تتم هكذا، ولكنها للصحابة الذين حضروا بدرا.

والثابت أن سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - كان مصراً على رفض الخلافة بعد التطورات المروعة التى انتهت بقتل عثمان بن عفان، وأنه قام بالاختباء فى أحد المنازل . . وأخذ الثائرون يفتشون عنه حتى عثروا على مكانه فطرقوا باب البيت الذى كان يختفى بداخله.

قالوا له، وكان بصحبته طلحة والزبير . . إن الموقف لا يمكن بقاؤه بلا أمير . . وألحوا على سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - حتى أجابهم قائلا:

- لا مانع عندى، ولكن بشرط أن تتم البيعة فى المسجد.

وفى اليوم التاسع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هجرية « ٦٥٦ ميلادية » تم لعلى بن أبى طالب ما أراد فقد بايعه كافة المسلمين فى المسجد، وإن كان بعضهم قد تحفظ على هذه البيعة فلم يشارك فيها!

وهنا تسمع من يقول . . إن على بن أبى طالب كان يرى نفسه أحق بتولى الخلافة ليس بعد مقتل عثمان، ولكن قبل ذلك بسنوات طويلة باعتباره كان زوجا لفاطمة ابنة رسول الله ﷺ، ووالد السبطين الحسن والحسين قرة عين رسول الله، ولأنه كان قبل ذلك ربيب رسول الله الذى تعهده بالرعاية منذ صباه المبكر، وكان أول من أسلم من الصبيان.

وهو أيضا الذى افتدى رسول الله بنفسه ليلة الهجرة عندما أوى إلى فراش الرسول ليوهم المشركين المتربصين لقتل الرسول إنه لا يزال نائما فى فراشه معرضا نفسه بذلك للقتل.

وكان على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أيضا مستودعا للعلم الإسلامى وإمامه، كما كان المستشار والمرجع لأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ولفترة من الوقت أيضا أيام خلافة عثمان بن عفان.

وبالتالى كان فى رأيه أن توليه الخلافة بعد الظروف العصيبة التى كانت الأمة الإسلامية تجتازها ليس انتهازية أو وصولا إلى ما ليس من حقه أو ما هو جدير به!

ولم ينتظر على بن أبى طالب أن تتم البيعة له على مستوى العالم الإسلامى، وبادر بعزل جميع الولاة الذين عينهم عثمان بن عفان على الأمصار المختلفة، واعترض على ذلك معاوية بن أبى سفيان، وكان واليا للشام وأعلن أنه لن يهدأ له بال حتى يتم له الانتقام لمقتل عثمان بن عفان.

وكان عمر بن الخطاب هو الذى عين معاوية ابن أبى سفيان واليا على الشام، وقد استمر فى منصبه أيام عثمان مما أدى إلى تدعيم نفوذه وسلطانه ولم يعد أهل الشام يعرفون لهم قائداً غيره.

وكان موقف معاوية بن أبى سفيان هو بداية التصدع والفرقة فى صفوف المسلمين!

• • •

وفى سنة ٣٦ هجرية التى تواكب سنة «٦٥٦ ميلادية» أخذ الصراع يأخذ صورة القتال الدموى على أثر إعلان الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وكانا أول من بايعا سيدنا على بن أبى طالب أنهما قد وافقا على هذه البيعة مكرهين، وكان الاثنان قد خرجا من المدينة المنورة إلى مكة حيث التقيا فيها بالسيدة عائشة أم المؤمنين التى روعت بما سمعته عن مقتل عثمان بن عفان على الرغم من أنها كانت تعمل على إثارة المسلمين ضده.. وقرر الثلاثة، ومن انضم إليهم، المطالبة بالانتقام من قتلة عثمان.. وتحرك الثلاثة نحو العراق حيث قاموا بطرد والى البصرة واعتدوا عليه.

وعرف على بن أبى طالب بما حدث، فتوجه إلى العراق حيث حاول اقناع جماعات المسلمين بالكف عن الخلاف والمنازعات، ودارت بين الجانبين معركة اشتهرت باسم موقعة «الجمل».. والسبب فى هذه التسمية أن السيدة عائشة أم المؤمنين كانت تركب جملا، وكانت تبدو فى المعركة كالعلم الذى يحمله الجيش، واستمر القتال حول الجمل حتى أصيب وخر على الأرض.

وكانت الغلبة فى الموقعة لسيدنا على بن أبى طالب الذى أعاد السيدة عائشة أم المؤمنين إلى المدينة المنورة معززة مكرمة، وإن كان قد عاتبها على موقفها منه.

وكان انتصارا قاسيا، فقد مات فى الموقعة الزبير بن العوام الذى اقتحم أسوار حصن بابليون وكان سببا فى استسلامه بلا قتال.

وعرف أن اسم قاتل الزبير بن العوام اسمه ابن جرموز . !

وقتل أيضا طلحة بن عبيد الله، وكان هو والزبير بن العوام من المبشرين بالجنة!

وللأسف الشديد . . كان عدد المسلمين والصحابة الذين قتلوا فى هذه الموقعة أكثر بكثير من أى عدد قتل من المسلمين وهؤلاء الصحابة فى أية معركة من المعارك !

وكان مصرعهم فى هذه المرة بأيدى إخوانهم وأصحابهم فى الدين . . !

• • •

وتلاحقت بعد ذلك الأحداث فى مصر عندما لم يوافق على بن أبى طالب على ما قام به محمد بن أبى حذيفة باغتصابه إمارة مصر بالقوة . .

وكان أن أصدر قرارا بتعيين قيس بن عبادة حاكما على مصر وأميرا لها، وكان ذلك فى مستهل شهر ربيع الأول من سنة ٣٦ هجرية . . ووصل قيس إلى الفسطاط ليصعد على المنبر فى الجامع الكبير، ثم قرأ على المصلين كتاب أمير المؤمنين إلى مسلمى مصر، وكان يقول بالحرف الواحد :

– بسم الله الرحمن الرحيم . . من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين . . إلى من بلغه كتابى من المسلمين والمؤمنين سلام الله عليكم، أما بعد فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على رسوله ﷺ ، وقد توفى رسول الله، واستخلف من بعده خليفتين صالحين عملا بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ثم توفاهما الله تعالى ، ثم ولى بعدهما والٍ أحدث أحداثا فوجدت عليه الأمة مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه وغيروه، ثم جاءونى وبايعونى، والله على العمل بكتابه وسنة رسوله والنصح للرعية ما بقيت والله المستعان .

وقد بعثت إليكم بقيس بن سعد بن عبادة أميرا فوازروه وعاشروه وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصيحته، وأسأل الله لنا ولكم عملا صالحا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة . . والسلام عليكم.

وانقل عن صاحب النجوم الزاهرة قوله :

– بعد ذلك تلا قيس الكتاب قال : أيها الناس قد جاء الحق وزهق الباطل، ما بايعنا

إلا من هو خير من نعلم بعد نبينا ﷺ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فإن نحن لم نعمل بها فلا بيعة لنا عليكم.

• • •

فقام الناس، وبايعوا، واستقامت أحوال مصر..

وتلاحقت أحداث أخرى بعد ذلك عندما عمل معاوية بن أبى سفيان على الايقاع بين على بن أبى طالب وقيس بن سعد.

كان يعرف قوة مراس قيس، وبأنه كفيل بتحويل مصر إلى قاعدة قوية لمساندة على ابن أبى طالب، وكان أن اصطنع رسائل مزورة بينه وبين قيس بن سعد توهم بأنه يجرى مفاوضات معه.

وعمل معاوية بن أبى سفيان على أن تقع هذه الرسائل فى أيدى على بن أبى طالب الذى لم يحقق فى حقيقتها، كما أنه لم يسأل عن صحتها، وبادر بعزل قيس ابن أبى سعد عن ولاية مصر.

ولم تدم إمارته أكثر من أربعة أشهر وخمسة أيام بالضبط!

وقام أمير المؤمنين على بن أبى طالب بتعيين الأشتر النخعى وهو أحد رجاله الأقوياء، واليا على مصر.

• • •

وفى شهر ذى الحجة من نفس السنة، وهى سنة ٢٧ هجرية «٦٥٧ ميلادية» تقابلت جيوش الشام وعلى رأسها معاوية مطالبة بالثأر لدم عثمان بن عفان مع جيوش العراق، وكان على رأسها أمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وكان هذا اللقاء عند بلدة صفين على شاطئ نهر الفرات.

ودارت معارك استغرقت عدة أسابيع.. وفى رواية أخرى.. أنها استمرت عدة أشهر.

ودارت مفاوضات بين الطرفين انتهت بالفشل.. وعادت الحرب بين القوات المتصارعة، وأوشكت الدائرة أن تدور على جيش معاوية بن أبى سفيان لولا أن عمرو

ابن العاص أشار على معاوية أن يتوجه إلى جيش على بن أبى طالب، وذلك برفع المصاحف فوق أسنة السيوف بدعوى الاحتكام إلى كتاب الله وحقن دماء المسلمين.

وأدرك أمير المؤمنين على بن أبى طالب ما فى هذا العمل من خدعة أراد بها شق جنوده، فأبى إلا أن تستمر المعركة، إلا أن الخدعة نفسها كان تأثيرها على جنود على ابن أبى طالب بالذات، وكان من بينهم عدد كبير من رجال التقوى والدين فقالوا.. كيف يدعونا لكتاب الله ونأبى عليه، وكان رده عليهم بكلمته المشهورة التى قال فيها لجنوده:

- **إنما هى كلمة حق أريد بها باطل.**

ولكن غالبية قوات على بن أبى طالب أصرت على وقف القتال وقبول التحكيم بالنزول لما يقضى به القرآن الكريم.

وفى شهر صفر سنة ٣٧ هجرية تم الاتفاق على أن يختار كل من الطرفين حكما يمثله.

وكان أن اختار على بن أبى طالب أحد أنصاره وهو أبا موسى الأشعرى ليمثله فى التحكيم، بينما اختار معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص ليكون وكيلا عنه.

واتفق على أن تتم عملية التحكيم فى شهر رمضان فى نفس السنة الهجرية عند بلدة اسمها «دومة الجندل».

وكان مجرد الاتفاق على وقف القتال يعنى قيام هدنة بين الطرفين حتى يتم التحكيم، ويعنى فى نفس الوقت الاعتراف بقيام سلطتين أولهما يمثلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب.. والثانية تحت قيادة معاوية بن أبى سفيان!

وجاء اليوم المحدد للتحكيم فى بلدة «دومة الجندل» لتجوز على أبى موسى الأشعرى الخدعة المشهورة عندما غرر عمرو بن العاص به، فقد اتفق معه على أن يخلع كل منهما صاحبه حتى يتسنى للمسلمين اختيار من يريدون.

ثم قام عمرو بن العاص بتقديم أبا موسى الأشعرى للناس ليعلن للناس ما اتفقا عليه، فأعلن أبو موسى خلع على ومعاوية، وجاء بعده عمرو بن العاص فوافق على خلع على وأقر معاوية.

وحاول أبو موسى الأشعرى أن يقول: إن عمرو بن العاص قد غرر به.

كما لم تفلح محاولات أمير المؤمنين على بن أبى طالب لرفض نتيجة التحكيم بسبب فتنة الخوارج التى كانت قد استشرت، وكان عليه أن يحاربها قبل أن يمضى فى قتال معاوية.

وعرف أن عمرو بن العاص كان قد اتفق مع معاوية بن أبى سفيان على مؤازرته مقابل أن يجرى تعيينه واليا على مصر من جديد!

• • •

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد عين محمد بن أبى بكر الصديق واليا على أثر وفاة الأشتر النخعى.

وفى شهر ربيع الأول من سنة ٣٨ هجرية ويوافق ذلك شهرى أغسطس وسبتمبر من عام «٦٥٨ للميلاد» وصل عمرو بن العاص على رأس جيش يتكون من ستة آلاف مقاتل وضعها معاوية بن أبى سفيان تحت قيادته لانتزاع مصر من سلطان محمد بن أبى بكر الصديق.

وكان محمد بن أبى بكر الصديق يحكم مصر باسم أمير المؤمنين على بن أبى طالب. ولم يستطع الرجل أن يتصدى لقوات عمرو بن العاص، فبادر بالهرب.

ويقول بعض المؤرخين القدامى: كانت إمارة مصر هى الثمن الذى اشترطه عمرو ابن العاص على معاوية ليقف إلى جواره فى صراعه ضد أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه.

وعاد عمرو بن العاص إلى إمارة مصر على أن يكون حاكمها المطلق والمتصرف فى كل شئونها.

وحدد الماوردى الاختصاصات التى عاد بها عمرو بن العاص إلى مصر فى سبع نقاط هى:

١- النظر فى تدبير الجيوش وترتيب النواحى وتقدير الأرزاق.

٢- النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣- جباية الخراج وقبض الصدقات وتعيين العمال فيها وتوزيع المستحق منها على مستحقيه.

٤- حماية الدين والذود عن الحريم.

٥- إقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين.

٦- الإمامة فى أيام الجمعة والجماعات، ويقوم بها بنفسه أو من يستخلفه عليها.

٧- تسيير الحجاج.

وقد كانت كل هذه الاختصاصات كلها هى نفس اختصاصات عمرو بن العاص فى ولايته الأولى فى السنوات الأولى لفتح مصر على أن عمر بن الخطاب سرعان أن فصل عملية الخراج عن اختصاصات عمرو بن العاص وعهد بها إلى عبد الله بن أبى سرح، وبعدها قام بتعيين قاض للحكم بين الناس، وكان تعيين القضاة من اختصاص الولاة!

وفى ليلة الأحد فى اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هجرية «٦٦٠ ميلادية» قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب متأثرا بجراحه على أثر اعتداء عبد الرحمن بن ملجم وهو من الخوارج عليه، وهو يصلى الفجر فى المسجد.

وكان هؤلاء الخوارج قد اعترضوا على قبول أمير المؤمنين على بن أبى طالب التحكيم فى النزاع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان، واعتبروا ذلك كفراً وإلحاداً فى دين الله، وطلبوا إلى أمير المؤمنين أن يثوب ويستغفر ربه، وإلا أعلنوا الحرب عليه وقاموا بقتاله.

ويقول الرواة.. إن الخوارج أخذوا يعيثون فى الأرض فسادا، كما ارتكبوا جرائم بشعة كثيرة باسم الدين والتمسك بأحكام القرآن الكريم، وقد دارت بينهم وبين أمير المؤمنين على بن أبى طالب معارك وحروب طاحنة انتهت بهزيمتهم.

وسقط من الخوارج قتلى كثيرون. واتفق ثلاثة من هؤلاء الخوارج على أن يقتلوا أكبر زعماء المسلمين فى تلك الأيام، وهم معاوية وعمرو بن العاص وعلى بن أبى طالب فى ليلة واحدة حتى يخلصوا المسلمين منهم.

وكان واحدا من الخوارج واسمه يزيد قد أعد خطته لقتل عمرو وهو يؤم المصلين فى يوم الجمعة فى المسجد، حتى إذا جاء اليوم الذى حدده القاتل لارتكاب جريمته انتاب عمرو مرض منعه من الخروج للصلاة، وكان أن كلف القائد الإسلامى خارجة بن

حذافة ليقوم بدلا منه بإمامة المصلين، ولم يفطن القاتل إلى ذلك فقام بمهاجمة خارجة وطعنه بخنجره حتى قتله، ولما أمسكوا بالقاتل وجاءوا به إلى عمرو قال له القاتل في شجاعة: أما والله ما أردت غيرك.

ورد عليه عمرو بن العاص قائلا:

- ولكن الله أراد خارجة!

وفشل أيضا الذى كان مكلفا بقتل معاوية بن أبى سفيان.. أما الثالث، وهو عبد الرحمن بن ملجم، وكان قد أخذ على عاتقه قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فقد نجح فى مهمته، وكان قد تربص بأمير المؤمنين فى المسجد عند صلاة الفجر، ثم قام بمجرد أن شاهده فى المحراب بطعنه بخنجر مسموم أعده لذلك.. وفى رواية أخرى.. أنه قام بطعن أمير المؤمنين بسيف كان يخفيه تحت طيات ملابسه.. ولم يلبث أمير المؤمنين أن مات متأثراً بجراحه!

واختلف المؤرخون القدامى فى تحديد عمره عند وفاته.

وقال بعضهم أن عمره كان ٦٣ سنة، بينما قال آخرون: أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة والخمسين سنة من عمره!

هذا وقد حكم أمير المؤمنين على بن أبى طالب أربع سنوات وتسعة أشهر أمضاها فى مشاق وآلام وأحزان وصراع!

وانتهى بمصرع أمير المؤمنين على بن أبى طالب عهد الإسلام الأول، وهو عهد الخلفاء الراشدين، ليبدأ عهد جديد، هو عهد الملكية الإسلامية!

ويقول الدارسون لأحداث التاريخ فى تلك الأيام.. أن أهل الكوفة سارعوا على أثر مصرع أمير المؤمنين على بن أبى طالب بمبايعة ابنه الحسن ليكون أميرا للمؤمنين وإماما لهم، ولكن الحسن لم يرغب فى الاستمرار فى الحرب والقتال، وكان فى رأيه إن العمل على إعادة الوحدة لصفوف المسلمين أهم بكثير من اختياره أميرا للمؤمنين!

ولم ينتظر وبادر بمصالحة معاوية بن أبى سفيان، وإن كان قد وضع شروطًا لهذه المصالحة.

وأجابه معاوية إلى ما طلب، مما أدى إلى تنازله رسميا لمعاوية عن الخلافة.

وأكثر من ذلك قام هو نفسه بمبايعة معاوية، وطلب إلى جنوده أن يبايعوه أيضا.

وهكذا تم الأمر لمعاوية، وعادت الوحدة لجماعة المسلمين

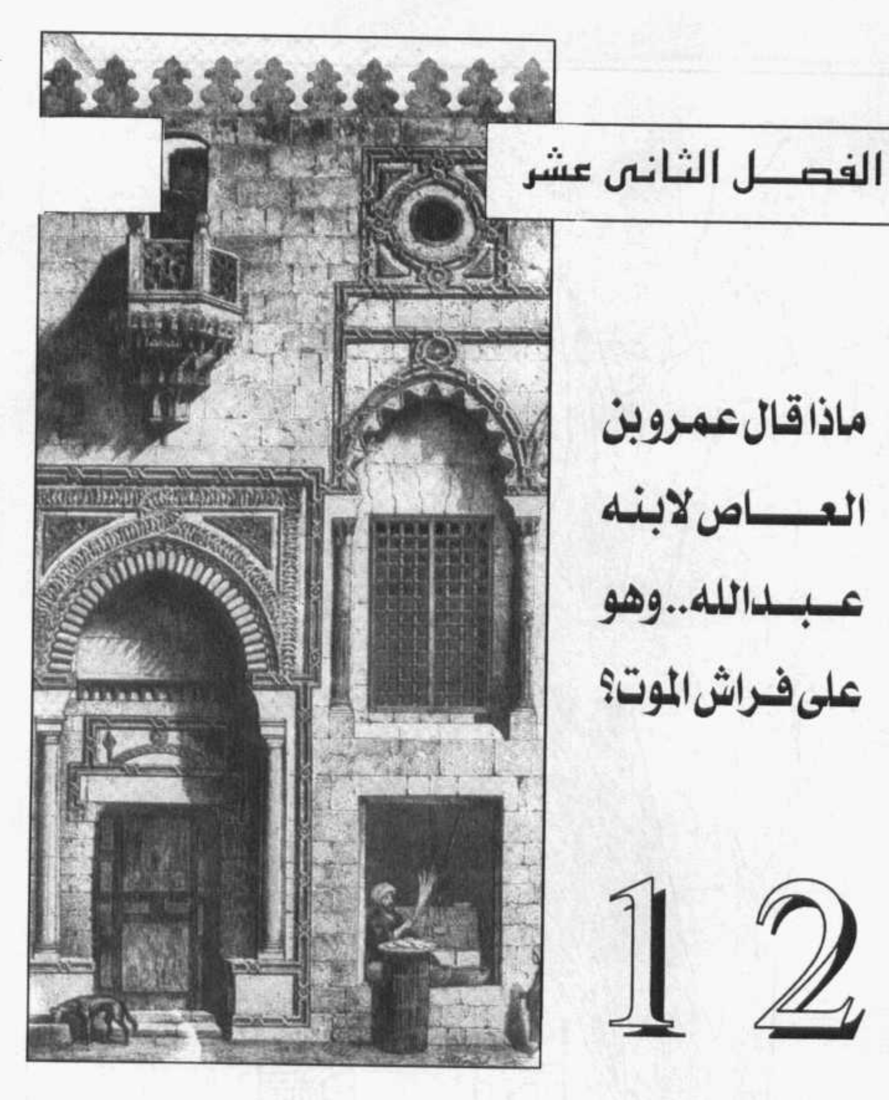
وأطلق المؤرخون القدامى على عام ٤١ هجرية اسم عام الجماعة!

وفي اليوم الثالث بعد شهر يناير من عام ٦٦٢ ميلادية «٤٢ هجرية».. أى بعد عدة أشهر من تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة توفى الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين لمدة ٣٩ سنة شهد أثناءها انسحاب الرومان واحتلال الفرس لمصر ثم انسحابهم وعودة الرومان، كما شهد فتح العرب لمصر وانسحاب الرومان.

وانطوت بوفاة البطريرك بنيامين آخر صفحة فى كتاب بطاركة مصر المسيحية الذين مثلوا شخصية مصر التى أسهمت فى إرساء قواعد الديانة المسيحية.

وظهرت على مسرح الأحداث السياسية والحضارية شخصية مصر الإسلامية التى أخذت تحل بالتدريج محل مصر المسيحية. ■



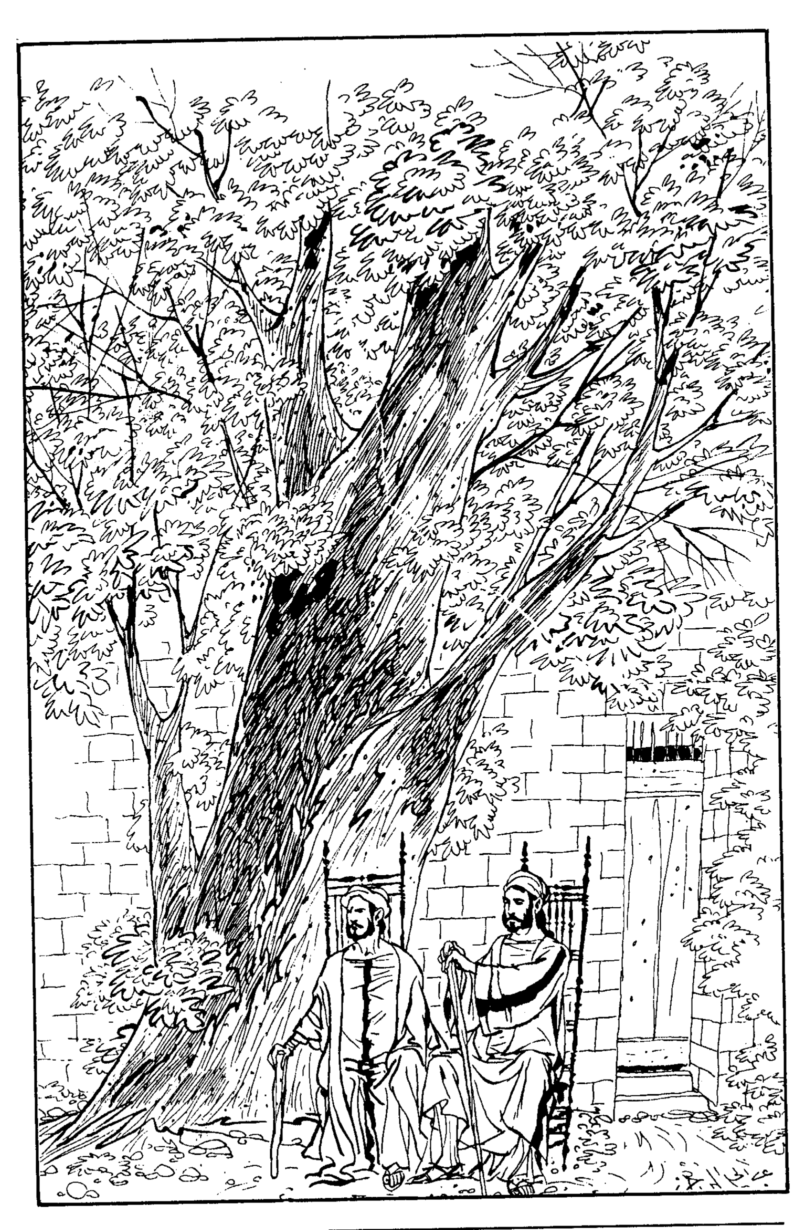


الفصـــل الثانى عشر

ماذا قال عمرو بن العـــاص لابنه عـبـدالله..وهو على فراش الموت؟

12

- لماذا رفض أمير المؤمنين أن يدفع عمرو بن العاص ٧٠ ألف دينار للأرض التي دفن فيها عند سفح جبل المقطم؟
- حكاية المياه العذبة التي تتساقط من أعلي الجبل لترتوي بها قوافل الحجاج ولا يعرف أحد مصدرها حتي الآن!
- أين دفن عمرو بن العاص بالضبط في منطقة اسمها الفج التي تطل علي مدك الحجيج تحت سطح جبل المقطم.



توفى عمرو بن العاص فاتح مصر وإقليم برقة وبقية الأراضى العربية يوم عيد الفطر فى سنة ٤٣ هجرية، وهو يوافق يوم ٦ يناير سنة ٦٦٤ ميلادية، وقيل إن عمرو قد شارف المائة سنة عند وفاته، وقيل أيضاً أن عمره كان تسعين سنة. وهذا غير صحيح لأن عمرو بن العاص عندما جاء على رأس قوات المسلمين لفتح مصر، وكان ذلك فى سنة ١٨ هجرية كان عمره ٤٤ سنة بالضبط، وبالتالى يكون عمره عندما مات حوالى ٧٠ سنة.

وكان بعض المؤرخين القدامى قد حاول أن يضع علامات استفهام كثيرة حول موقف عمرو بن العاص من على بن أبى طالب كرم الله وجهه. والخدعة التى قام بها فى عملية التحكيم إلا أن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هى أنه كان واحداً من بناة الدولة الإسلامية، وقد أذهلت بطولاته وانتصاراته - فى كل المعارك التى خاضها - المؤرخين والباحثين على مر العصور والدهور لأن أحدا لم يكن يتصور أن بدويا مثله خرج من قلب الصحراء، ولم يكن له عهد بالحكم والإدارة، أن يصبح حاكماً مثالياً لمصر بالدرجة التى جعلتهم يقرنون اسمه بأسماء أعظم من حكمها من الملوك.

ويقول ابن عبد الحكم: إن عمرا دمعت عيناه عندما حضرته الوفاة، وكان ابنه عبدالله إلى جواره فسأله :

- **يا أبا عبدالله أتجزع من الموت؟**

ورد عليه عمرو بن العاص قائلاً: لا.. ولكننى أخاف ما بعد الموت.

ومما يرويه.. أن عمرو بن العاص قال لابنه:

- **كانت حياتى على ثلاثة أطباق.. أى مراحل: الأولى عندما بعث الله محمدا ﷺ وكنت فى تلك المرحلة أكثر الناس كراهية لما جاء به، وكنت أتمنى لو أننى قتلته، وأظننى لو كنت قدمت على ذلك لقال الناس.. مات عمرو مشركاً وعدوا لله ورسوله، وأنه من أهل النار.**

ثم كانت المرحلة الثانية عندما قذف الله الإسلام فى قلبى فأتيت رسول الله ﷺ فبسط يديه ليبايعنى، فقبضت بيدى ثم قلت له:

- **أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى، وكنت أظن حينئذ إنى لن أحدث**

فى الإسلام ذنباً، فقال لى رسول الله ﷺ .. يا عمرو إن الإسلام يجب «أى يلغى» ما قبله من خطيئة، كما أن الهجرة تجب ما بينها وبين الإسلام فلو مت فى تلك المرحلة لقال الناس: أسلم عمرو وجاهد مع رسول الله ﷺ وإنا لنرجو لعمرو عند الله خيراً كثيراً.

ثم استطرد عمرو بن العاص يقول لابنه:

– أصبحت بلادنا الإسلامية – بعد ذلك – إمارات، وكانت الفتن والحروب وإننى لأشفق على نفسى من هذه المرحلة من حياتى، فإذا أخرجتمونى فاسرعوا بى، ولا تتبعنى مادحة ولا نار، وشدوا على إزارى فإنى مخاصم وسنوا علىّ التراب سنا، فإن يمينى ليست أحق بالتراب من يسارى ولا تدخلن فى القبر خشبة ولا طوبة، ثم إذا قبرتمونى – أى دفنتمونى – فامكثوا عند قبرى قدر نحر – أى ذبح – جزور «جمل» وتقطيعها حتى استأنس بكم.

ويقول ابن عبدالحكم فى رواية أخرى: عندما حضر عمرو بن العاص الموت، قال لابنه عبدالله:

– أُدْعُ لى يا بنى، وإذا أنا مت فاغسلنى وترا، وأجعل فى آخر ماء تغسلنى به شيئاً من كافور فإذا فرغت فاسرع بى فإذا أدخلتنى قبرى فسن على التراب سنا، وأعلم أنك تتركنى وحيداً خائفاً، اللهم لا أعتذر، ولكننى أستغفر .. اللهم أنك أمرت بأمور فتركنا كثيراً مما أمرت به، ووقعنا فى كثير مما نهيت عنه، اللهم لا إله إلا أنت.

ثم أخذ يكرر دعاءه حتى قبض – أى توفاه الله –

ويقول ابن عبدالحكم: إن عمرو بن العاص دفن فى ناحية اسمها «الفج» عند سفح جبل المقطم، وإن قبره يطل على الطريق الذى كان يؤدى إلى الحجاز، وكانوا يطلقون عليه اسم «مدك .. أى طريق الحجيج»!

وكان عمرو بن العاص هو الذى اختار بنفسه هذا المكان ليدفن فيه حتى يدعو له كل من يمر بالطريق بجوار قبره.

وكان على مقربة من القبر مكان لتكسير الحجارة التى كانوا يقتطعونها من الجبل لاستخدامها فى عمليات بناء البيوت فى مدينة الفسطاط وفى بناء المسجد الجامع الذى أصبح اسمه مسجد عمرو بن العاص.

وأنقل عن المؤرخين القدامى أن المقوقس كان قد عرض على عمرو بن العاص عندما التقى به فى حصن بابليون أن يبيعه قطعة الأرض التى دفن فيها عند سفح جبل المقطم بمبلغ سبعين ألف دينار.

وعجب عمرو بن العاص لهذا العرض من جانب المقوقس. وقال له.. إنه لا يملك المبلغ الذى يطلبه، وفى نفس الوقت ليس فى وسعه شراء الأرض من مال المسلمين - أى من بيت المال - ولذلك عليه أن يكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليستشيره فى الأمر، وبعث عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة يبلغه بتفاصيل عرض المقوقس.

وجاء الرد من أمير المؤمنين، وكان يقول: اسأل المقوقس.. لماذا يعرض عليك هذه الأرض، وهى جبلية لا تزرع، ولا يستنبط بها ماء، وبالتالى لا ينتفع بها أحد.

وقام عمرو بن العاص بتوجيه نفس السؤال إلى المقوقس الذى رد عليه قائلاً:

- إننا نجد فى الكتب القديمة أن من صفة هذه الأرض أن فيها غراس من الجنة.

وبعث عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين بما قال المقوقس.. ومرت عدة أسابيع ثم جاءت رسالة من أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص يقول له فيها بالحرف الواحد:

- إننا لا نعلم عن غراس الجنة إلا أنها للمؤمنين، فأقبر فيها.. أى ادفن فيها من مات قبلك من المسلمين. ولا تبعه بشىء أى لا تدفع إليه أى ثمن فيها!.

وفى رواية أخرى: أن أمير المؤمنين عندما عرف بما قاله المقوقس عن غراس الجنة قال: إذن نجعلها مقبرة للمسلمين.

وكان أول من دفن فى هذه الأرض رجل من قبيلة المعافر وهى من قبائل جنوب الجزيرة العربية التى شاركت مع عمرو بن العاص فى الفتح الإسلامى لمصر، وكان اسمه عامر ولذلك قيل عن الأرض أنها عمرت.

وكان قبره - كما يقول المقريزى - تحت حائط مسجد الفتح الشرقى.

ويقول ابن عبدالحكم: دفن فى هذه الأرض خمسة من الصحابة، وهم عمرو بن العاص، وعبدالله بن حذافة السهمى، وعبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدى وأبو بصرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى.

وفى رواية أخرى: أن مسلمة بن مخلد الأنصارى وهو من الصحابة دفن فى هذه الأرض أيضاً.

ويذكر أن ثلاثة من هؤلاء الصحابة عملوا ولاة على مصر بعد دخول الإسلام إليها، وقد ماتوا فيها ودفنوا فى أرضها . . وهم عمرو بن العاص وعبدالله بن حذافة السهمى الذى عينه معاوية بن أبى سفيان واليا على مصر بعد وفاة عمرو بن العاص، والثالث هو عقبة بن عامر الجهنى، وقد تولى هو الآخر حكم مصر لفترة من الوقت.

ويبقى بعد ذلك السؤال: لماذا لم تقم بعثات التنقيب عن الآثار، وبخاصة الآثار الإسلامية بالبحث والتنقيب على مدى السنوات الطويلة عن مقبرة عمرو بن العاص الذى ارتبط اسمه بعملية فتح مصر ودخول الإسلام إليها.

ونقول: لاشك أن الكشف عن هذه المقبرة وتحديد مكانها بالضبط إذا لم تكن قد خرجت كما يتردد أيام الفاطميين يمكن أن يكون حدثا له أهميته التاريخية والروحية ليس على مستوى مصر وحدها، ولكن على مستوى العالم الإسلامى كله.

وكما قال أحدهم: إننا نملأ الدنيا صياحاً حول محاولات يقال إنها للكشف عن مقبرة الإسكندر الأكبر الذى جاء إلى مصر غازيا ومستعمرا، فلماذا لا نفتش أيضا عن مقبرة عمرو بن العاص الذى جاء بالإسلام إلى مصر؟

ولن يصدق علماء الآثار الإسلامية أن الكثير من المعالم الطبيعية فى منطقة جبل المقطم تشير إلى إمكانية الكشف عن هذه المقبرة.

وتذهب إلى أعلى نقطة على امتداد الطريق الممهد الذى يصل إلى أعلى هضبة المقطم التى أصبحت الآن عامرة بمبانيها وأسواقها وبالفيلات الجميلة التى تنتشر فيها لتشاهد بداية الطريق الذى جاء ذكره فى روايات المؤرخين العرب القدامى أمثال ابن عبدالحكم وغيره.

إنه طريق ماتزال معالمه واضحة، وهو ينحدر من خلف هضبة جبل المقطم، وقد اشتهر منذ سنوات طويلة باسم «مدك الحجيج».

ونسأل عما إذا كان هذا الطريق هو نفسه الذى قال المؤرخون العرب القدامى أن عمرو بن العاص أراد أن يطل قبره عليه حتى يترحم العابرون به على روحه عندما يمرون بقبره.

ويقول الأعراب الذين يعيشون حتى الآن فى المنطقة أن هذا الطريق أو المدك كانت الجمال تستخدمه فى حمل قوافل الحجاج من مئات السنين للوصول إلى السويس،

ومنها كانت القوافل تتجه عبر جنوب سيناء إلى أرض مدين فى شمال الحجاز للوصول إلى الأراضى المقدسة.

ومن المعالم الظاهرة لمدك الحجيج حتى الآن أنه ينحدر إلى أسفل الجبل، وأنه يمر بعد انحداره من فوق هضبة المقطم بمبنى قديم هو عبارة عن سبيل ماء كانت الجمال تستقى منه، وكان المسافرون يحملون منه كل ما كانوا يحتاجون إليه من مياه تكفيهم حتى تصل قوافلهم إلى مدينة السويس.

ويوجد فى أعلى الجبل «فج» أى شق تندفع منه مياه عذبة تتساقط على الأرض بقوة من ارتفاع يقدرونه بحوالى ١٥٠ مترا لترتوى منها قوافل الحجاج.

ولا يعرف أحد حتى الآن مصدر هذه المياه، وقد شوهدت فى الآونة الأخيرة جماعات من البهرة وهم من جماعات الشيعة التى تعيش فى الهند، وهى تتردد على المنطقة، وكثيراً ما تشاهد هذه المجموعات من البهرة، وهى تغسل ملابسها فى المياه المتساقطة من أعلى الجبل.

ويتردد همس بين الأعراب الذين يعيشون فى المنطقة حول بعض المعتقدات القديمة التى تناقلوها عن أجدادهم بأن هذه المياه مباركة، وأنها تنحدر من ينبوع تقول بعض الأساطير القديمة أنه نابع من الجنة!

والثابت.. فى بداية «مدك الحجيج» كانت تمتد من قلب المناطق التى أصبحت عامرة الآن بالمبانى التى أقيمت فوق هضبة المقطم، وأنه كان يوجد طريق ينحدر موازيا للطريق الرئيسية الصاعدة فوق الهضبة التى أصبحت تعرف الآن باسم مدينة المقطم.

وأرادت الصدفة أن يعيش زميل صحفى هو الأستاذ سعيد حيدر وكان يعمل فى دار أخبار اليوم حتى أحيل إلى المعاش فى منزل يقع فى حضن الجبل منذ أكثر من ٤٠ سنة، وقد اقتطع جزء من «مدك الحجيج» الذى أرادت الصدفة أيضاً أن يمر أمام بيته ليطلق عليه فى تخطيط مدينة المقطم اسم شارع سعيد حيدر.

ويمتد المدك بعد ذلك منحدراً إلى أسفل الجبل حاملاً اسمه القديم الذى مازال معروفاً فى خرائط المساحة باسم «مدك الحجيج».

ونسأل أيضاً عن منجم تكسير الحجارة الذى أشار إليه بعض المؤرخين العرب

القدامى، ومن بينهم ابن عبد الحكم عندما قالوا إن القبر الذى دفن فيه عمرو بن العاص يقع بالقرب منه.

وهنا تسمع من يقول لك: كان يوجد ثلاثة محاجر لتكسير الحجارة فى المنطقة، وأن آثار هذه المحاجر ماتزال موجودة، وأحد هذه المحاجر هو الذى يشاهده الصاعدون إلى يمين الطريق المؤدى إلى مدينة المقطم.. أما المحجران الآخران فيوجدان فى المنطقة المتاخمة «لمدك الحجيج»، وماتزال آثارهما واضحة بالرغم من مرور مئات السنين حتى الآن، وأحد المحجرين لا يبعد كثيراً عن منطقة «الفج» أو الشق فى قمة الجبل الذى تتدفق منه المياه العذبة التى لا يعرف مصدرها حتى الآن.

ومن الغريب أن يردد الأعراب الذين يعيشون فى المنطقة نقلا عن آبائهم وأجدادهم الأساطير التى تقول: إنها أحد ينابيع الجنة.

ويؤكد الأعراب فى هذه المنطقة أن عمرو بن العاص ومجموعة من الصحابة قد دفنوا فى المنطقة حوله وتسأل هؤلاء الأعراب عن مكان قبر عمرو بن العاص بالذات، وهنا تختلف الروايات وتشير رواية تستحق اهتمام الباحثين عن الآثار الإسلامية وهى لعربى من أهالى المنطقة اسمه جمعة.

إنه يقول: إن بعض أجدادنا من المسلمين أيام زمان قاموا بإقامة مظلة حول قبر عمرو بن العاص، ثم تحولت المنطقة حول قبره إلى مسجد تحت سفح جبل المقطم فى نفس المنطقة وهو المسجد المعروف باسم مسجد «عقبة بن عامر» وهو لا يبعد كثيراً عن مسجد آخر معروف فى المنطقة تحت سفح جبل المقطم أيضاً، وهو مسجد الليث بن سعد.

ويقول جمعة: إن أحداً لا يستطيع تحديد قبر عمرو بن العاص من بين قبور الصحابة الذين دفنوا فى نفس المنطقة لأن دفن الموتى أيام زمان كان يتم بوضع الميت فى حفرة تحت الأرض، وكانت الحفرة تغطى بالتراب الذى كان يغطى الميت وكان يكتفى بوضع حجر فوق القبر.

• • •

وبمعنى آخر: لم يكن للقبور لحود أو شواهد كالتى تتميز بها قبور الموتى فى مصر الآن.

وتسأل عن عمر بن العاص عند وفاته لتسمع من يقول لك: كانت إمارته الثانية لمصر قرابة خمس سنوات، وقد ظل موقفه من أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وخديعته لأبى موسى الأشعرى فى عملية التحكيم تؤرق مضجعه حتى آخر لحظة من حياته، وفى وقت وفاته!

وتبقى بعد ذلك الحقيقة التى لا يمكن أن ينكرها أحد، وهى أن عمرو بن العاص كان واحداً من بناة الدولة الإسلامية، وأنه أحب مصر، وكان عاشقاً لها.

وأقف قليلاً أمام شخصية عمرو بن العاص قائد القوات الإسلامية الذى ارتبط اسمه بعملية فتح مصر ودخول الإسلام إليها.

إن المؤرخ القديم ابن قتيبة يقول: إن اسمه عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهل بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

ويضيف المؤرخ أبو المحاسن إلى ذلك اسم: أبو عبدالله القرشى السهمى الصحابى.

وتقول سيرة عمرو بن العاص.. إنه كان فى الأربعين عندما تحرك على رأس القوات الإسلامية لفتح مصر، وأنه كان كما وصفه بعض المؤرخين العرب القدامى.. قصير القامة قوى البنية معتدل الجسم مرن الأعضاء - أى مفتول العضلات -.

وأنه كان عريض الصدر بين المنكبين وله عينان سوداوان ثاقبتان وكان يخضب لحيته بالسواد.

وكان له حاجبان غزيران بالشعر، ويتميز بفمه الواسع، وكان وجهه ينم عن القوة من غير شدة، وكانت تبدو على ملامحه البشر والسماحة.

وكان إسلام عمرو بن العاص قد تأخر كثيراً. فهو لم يسلم إلا فى السنة السابعة أو الثامنة هجرية. وسأله أحدهم مرة: ما الذى عاقك عن الإسلام تلك المدة الطويلة مع رجحان عقلك؟

وكان جواب عمرو: كنت فى بادئ الأمر متردداً فلما كبرت وميزت أخذت نفسى بالهوادة حتى اتخذت قرارى باعتناق الإسلام. وقيل: إن المشركين من أهل قريش أرسلوا أحد رجالهم إليه ليسأله عن الحقيقة حول ما كان قد تردد حول إسلامه.

وكان جواب عمرو بن العاص:

- **لقد أسلمت وآمنت بالنبى واليوم الآخر، وبالعقاب.**

ويقول رفيق العظم بك فى كتابه عن مشاهير الإسلام بالحرف الواحد :

- كانت قريش مع ما تتمتع به من النسب ، وما كانت عليه من شرف المكانة بين العرب لأنها حامية البيت وضريح ولد إسماعيل ، لا يستنكف أشرافها من الاحتراف والمتاجرة ، والاعتماد فى الاسترزاق على عمل اليد ، ترفعا عن الاتكال على فضلات العجز ، والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترفها ، ونحن ذاكرون هنا حرف بعض الصحابة ، فمنهم عمر بن الخطاب ، وكان تاجراً ومنهم عثمان بن عفان فكان بزازاً . . ومنهم عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم من قبيلة سهم القرشية وكنيته أبو عبد الله فكان جزاراً .

وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا إنه يبلغ أربعين ألف درهم وأنه انفق منها خمسة وثلاثين ألفا معونة للنبى ﷺ على مصالح المسلمين والذى بقى عنده ظل يتاجر به حتى مات رضى الله تعالى عنه .

ومما يروونه أيضا عن قبيلة بنى سهم وهى القبيلة التى ينتمى إليها عمرو بن العاص وكانت لها مكانتها فى الجاهلية، فقد كانت تقوم بدور الحكومة . . أى الفصل فى المنازعات مما ولد فى أفرادها الذكاء والدهاء والحلم والإناة، وكانت لبنى سهم أيضا الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم وهى أشبه شيء بالأوقاف العامة ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الأموال المحجرة - أى المجمدة - التى يتصرف فيها حسبما تقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم ولا شك فى أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الأموال، وقد ظهرت آثار هذا السلوك فى حياة عمرو بن العاص فقد كان يحسن إدارة الأموال واستثمارها ولم يعرف عنه أنه كان مقصرا فى الانفاق وإن كان هناك من اتهمه بإنه قد أسرف أحيانا .

ومما يذكر أن معاوية بن سفيان سأله مرة عما بقى عنده من مال، وكان جوابه بالحرف الواحد :

- مال أغرسه فأصيب من غلته وثمرته!

وعرف عن عمرو بن العاص أنه كثيراً ما كان يتحدث عن رجاحة العقل عند عائلته، وأنه كان يصف شيوخها بأن عقولهم توازى الجبال!

وروى مؤلف السيرة النبوية أن عمرو بن العاص ذهب إلى المدينة المنورة عندما قرر اعتناق الإسلام ليعلن إسلامه وليبايع رسول الله ﷺ .

وكانت مفاجأة عندما قابل خالد بن الوليد وكان ذلك قبل الفتح بستة أشهر وكان متوجهًا هو الآخر إلى رسول الله ليشهر إسلامه.

وسأل عمرو بن العاص خالد بن الوليد :

- إلى أين يا أبا سليمان؟

ورد عليه خالد بن الوليد قائلا :

- إن الرجل لنبى.. أذهب فأسلم.

ولم يتمالك عمرو بن العاص نفسه، فقال لخالد :

- والله ما جئت إلا لأسلم.

وتقدم خالد بن الوليد فأسلم، وبايع رسول الله.

وجاء دور عمرو بن العاص الذى أشهر إسلامه هو وخالد بن الوليد فى نفس اليوم والساعة..!

• • •

وتقول.. وماذا عن القوات الإسلامية التى جاءت مع عمرو بن العاص لفتح مصر والجواب كما يقول بعض المؤرخين القدامى :

- كان الفرسان العرب الذين أصطحبهم عمرو بن العاص لفتح مصر يمثلون قمة الصفوة العربية فقد كان من بينهم حوالى ٥٪ من الصحابة، وكان هؤلاء الفرسان يمثلون القبائل العربية المختلفة، وعلى رأسها القبائل العدنانية التى كانت تعرف باسم عرب الشمال، والقبائل القحطانية الأصول، وكانوا يسمونها عرب الجنوب.

وكان الجيش الإسلامى الذى قام تحت قيادة عمرو بن العاص بعملية فتح مصر يتكون من وحدات قبلية كانت تسمى ألوية وكان كل واحد من هذه الألوية يرفع رأيته التى كانت تختلف فى اللون والشكل عن رايات القبائل الأخرى.

وكانت بعض ألوية القبائل تسير على ميمنة الجيش، ومنها من كان يسير على ميسرته، ثم تتوحد جميع الألوية تحت راية القلب - أى حول القائد الأعلى للجيش - وهو عمرو بن العاص.

وكان يمثل عرب الشمال فى هذا الجيش حوالى ثلاثين قبيلة تضم ٣٠ بطنا

وعلى رأسها قبائل قريش وفهد وعامر ونفار وثقيف، وكان غالبية أمراء الجيش وقواده من زعماء هذه القبائل.

وكان عمرو بن العاص يستخدم راية سوداء اللون على نمط أول راية أعطاها له النبى عليه صلوات الله وسلامه فى غزوة ذات السلاسل، ومن يومها ظل عمرو بن العاص يحمل راية سوداء.

ويضيف الواقدى واصفا ملابس عمرو قائد الجيش فيقول: إنه درج على أن يرتدى فوق درعه جبة صوف، وأن يضع على رأسه عمامة مصبوغة باللون الأصفر وهى من صنع اليمن، وقد درج على إدارتها على رأسه فى شكل كورة صغيرة تتدلى منها عذبة.

وتقول.. وماذا عن المقاتلين العرب ذوى الأصول القحطانية - أى عرب الجنوب - الذين جاءوا مع القوات الإسلامية.. وهنا تسمع من يقول: كان هؤلاء المقاتلون يشكلون حوالى ثلاثة أضعاف عرب الشمال ذوى الأصول العدنانية، وكانوا يمثلون حوالى ٦١ قبيلة يتفرع منها ١١١ بطنا ومن أبرزها قبائل الأرز وتجيب ولخم وجذام والمعافر.

وكان من بين هؤلاء المقاتلين الجنوبيين عددا من العرب الذين انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى صلوات الله وسلامه عليه وقاموا برفض دفع الجزية.. وهم الذين اشتهروا باسم العرب المرتدة وقد حاربهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق واستطاع إخضاعهم مرة أخرى، وكان أبو بكر يرفض انضمام مثل هؤلاء المرتدين إلى جيوش الفتح العربية، ولكنه عدل عن ذلك بعد فترة، وكان أن سمح لهم بالانضمام إلى الجيوش الإسلامية فى عمليات الفتح، ولما تولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب توسع فى استخدام هؤلاء العرب المرتدة حتى يشغلهم عن الفتن والقلاقل الداخلية، وحتى يمنحهم فرصة للحصول على بعض الغنائم من عمليات الفتح عنوة لتغيير أوضاع الفقر التى كانوا يعيشونها.

ويقول بعض المؤرخين.. إن عدداً من الصعاليك وقطاع الطرق الذين اسلموا، وعلى رأسهم أبو ذر الغفارى، وهو أحد الصحابة قد انضموا إلى القوات الإسلامية قبل وصولها إلى الأراضى المصرية.

ولعل أول مرة التى يعرف فيها أن عددا من كبار قادة وأمراء الجيش قد اصطحبوا زوجاتهم معهم، وعندما وصلت القوات الإسلامية إلى العريش كانت الجمال تتهادى فى مؤخرة هذه القوات، وهى تحمل هوادج النساء.

وكانت من عادات العرب عند الحرب اصطحاب النساء معهم لإثارة حماس المقاتلين وقد ظلت هذه العادات سارية فى غزوات النبى ﷺ وبعد الإسلام.

وكان اصطحاب النساء فى الحرب عند العرب له معنى آخر وهو أن الرجال سوف يقاتلون للانتصار على أعدائهم حتى الموت دفاعا عن زوجاتهم.

وكان من أشهر الزوجات التى جاءت مع القوات الإسلامية لفتح مصر رايطة بنت منبة بن حجاج القرشية زوجة عمرو بن العاص، وبسيسة بنت أبى يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وزوجة معاوية بن صريح وخولة بنت الأزور الكندية ومزروعة بنت عملوق الحميرية.

ومما يرويه الواقدى أن الأخيرتين أبلتا بلاء حسنا فى فتوح الشام ومصر!

ومن الغريب أن المؤرخين العرب.. لم يشيروا إلى وجود الزوجات مع قوات الجيش إلا فى بعض تعليقاتهم عن حصار الإسكندرية، ومما يروونه أن بعض قادة المسلمين ذهبوا إلى عمرو بن العاص يحذرونه عندما اشتد القتال.

قالوا له: نخشى أن يتغلب العدو علينا، ونحن نخاف على رايطة - أى زوجة عمرو بن العاص.

والتفت عمرو بن العاص إليهم، وهو يقول:

- فى حالة انتصار الرومان علينا سوف يجدون رياطا كثيرة.

وكانت أول إشارة إلى وجود عدد من زوجات القادة والأمراء مع القوات العربية على لسان عمرو بن العاص!

• • •

وكان عمرو بن العاص قد استخلف ابنه عبد الله لحكم مصر من بعده، ولكن معاوية بن أبى سفيان بادر على أثر وفاة عمرو بن العاص بتعيين أخيه غير الشقيق، وكان اسمه عتبة ابن أبى سفيان حاكما على مصر.

ولم تدم إمارة عتبة على مصر أكثر من ستة أشهر لوفاته فجأة.

وفى سنة ٤٤ هجرية التى توافق سنة ٦٦٤ ميلادية قام معاوية ابن أبى سفيان بتعيين عقبة بن عامر الجهنى واليا على مصر!

وكان عقبة أحد صحابة رسول الله، وكان واحداً من الذين شاركوا مع عمرو بن العاص في فتح مصر.

وكان قارئا وفقيها، وشاعرا، وقد مات في مصر ودفن بالقرب من قبر عمرو بن العاص في منطقة الفج عند سفح جبل المقطم.

وكان اهتمام معاوية بن أبي سفيان منذ أن كان واليا على الشام موجها نحو فرض سيادة المسلمين على منطقة شرق البحر المتوسط حتى يتسنى لهم مواجهة تهديدات الرومان، وتمهيدا لأحد أحلامه في أن يقوم بغزو القسطنطينية نفسها..

وأصدر معاوية تعليماته إلى عقبة بن عامر على بأن يخرج من الاسكندرية على رأس أسطول بحرى مصرى لغزو جزيرة رودس.

ولم ينتظر عقبة بن عامر، وخرج بأسطوله البحرى الذى صنعت سفنه في ميناء الأسكندرية قاصدا رودس، وكان ذلك في سنة ٤٧ هجرية التي توافق سنة ٦٦٤ ميلادية، وقد ارتفعت فوق صواريه وأشرعته رايات وأعلام المسلمين.

وكانت أول مرة تحمل السفن الإسلامية هذه الرايات والأعلام!

ولم يعرف.. لماذا قرر معاوية بن أبي سفيان فجأة تعيين مسلمة بن مخلد أميراً على مصر، ولكنه كلفه أن يخفى قرار تعيينه حتى يبارح عقبة بن عامر الاسكندرية على رأس أسطوله البحرى في طريقه إلى رودس.

وقيل إن مسلمة بن مخلد كان من الصحابة، وإن كان عمره عندما توفى رسول الله ﷺ عشر سنوات، وقيل في رواية أخرى.. إن عمره كان أربعة عشر عاما!

ومع تنفيذ هذه الخطة كلف معاوية ابنه يزيد بقيادة الحملة البرية التي أراد أن يوجه بها ضربة قاضية إلى الأمبراطورية الرومانية.

وتقول رواية للمؤرخين العرب القدامى.. إن الجيوش الإسلامية تحركت من الشام وقد قامت باجتياح منطقة آسيا الصغرى حتى وصلت إلى مشارف مدينة القسطنطينية في نفس الوقت الذى أخذت فيه السفن الحربية القادمة من مصر في محاصرتها من ناحية البحر.

واستمر الحصار الذى فرضته القوات الإسلامية.. على المدينة لمدة ست سنوات كاملة، وكانت المدينة على وشك الاستسلام لولا أن الرومان قاموا باستخدام سلاح

رهيب قاموا باكتشافه فى تلك الأيام، وقد اشتهر باسم النار الإغريقية، وكان عبارة عن قنابل تنفجر عند إطلاقها لتشعل نيرانا يصعب إطفاؤها.

وكان هذا السلاح الذى استخدمه الرومان فجأة حاسما فى إحراق وتدمير عدد كبير من سفن الأسطول الإسلامى، وبالتالى فشلت عملية غزو مدينة القسطنطينية!

واضطر معاوية ابن أبى سفيان لابرام معاهدة للصلح مع الإمبراطورية البيزنطية.. وكانت مدة هذه المعاهدة ٣٠ سنة!

وفى شهر ربيع الأول من سنة ٥٠ هجرية التى توافق سنة ٦٧٠ ميلادية اغتيل الحسن رضى الله عنه، وهو ابن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه.

وترددت فى تلك الأيام روايات كثيرة تتهم يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بأنه كان وراء عملية اغتياله!

ويذكر أن الرومان كانوا قد قاموا بمحاولة للإغارة على مصر فى سنة ٥٣ هجرية «٦٧٣ ميلادية»، وكان حصار القوات الإسلامية على مدينة القسطنطينية برا وبحر ما يزال مستمرا.

وكان هدف الرومان من مهاجمة مصر، هو محاولة تخفيف الضغط على عاصمة بلادهم المحاصرة.

وكان أن نزلت القوات الرومانية فى ناحية مدينة البرلس، ولكن مسلمة بن مخلد تصدى للقوات الرومانية، واستطاع إجلاءها عن الأراضى المصرية بعد أن كبدها خسائر فادحة!

ومات فى المعركة بين المسلمين والرومان عند البرلس وردان كاتب رسائل عمرو ابن العاص وكاتم أسراره!

• • •

وفى سنة ٥٨ هجرية التى توافق سنة «٦٧٧ ميلادية»، كلف مسلمة بن مخلد حاكم مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان، عقبة بن نافع بالخروج من مصر على رأس جيش من القوات الإسلامية لإعادة فتح شمال إفريقيا التى كانت قد ثارت على الحكم الإسلامى، فأعاد فتحها وأسس مدينة القيروان.

وفى نفس السنة توفيت السيدة عائشة أم المؤمنين ابنة أبى بكر الصديق وأحب زوجات رسول الله إليه.

وفى سنة ٦٠ هجرية « ٦٨٠ ميلادية »- أى بعد سنة واحدة - توفى معاوية بن أبى سفيان بعد أن ولى الخلافة لمدة عشرين سنة، وقد سبقتها ولايته لإمارة الشام لمدة ٢٠ سنة أخرى.. وكان عمره عند وفاته ٧٧ سنة.

ويؤخذ على معاوية بن أبى سفيان عمله على تحويل الخلافة من عهد الخلفاء الراشدين الذين كان آخرهم على ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - إلى خلافة عرفت باسم الملكية الإسلامية.

وكانت سقطته الكبرى عندما فرض ولاية العهد من بعده لابنه يزيد فى الوقت الذى كان يعرف فيه بأنه لا يصلح لأن يكون خليفة للمسلمين، فقد كان كل ما يهمه هو العبيد والجوارى وشرب الخمر!

واتهم بعض المؤرخين القدامى معاوية بن أبى سفيان بأنه حكم مشاعره الشخصية وهواه فى نهايته، وأنه كان متأثراً بما كان ملوك الفرس والرومان يعملون من قبله!

وقالوا: إن فرض معاوية لولاية ابنه قد هزت مركز الخلافة الإسلامية.

وكانت ولاية يزيد لمدة ثلاث سنوات وسبعة أشهر.

وفى أيامه قتل الحسين بن على - رضى الله عنه - وكان أهل الكوفة قد رفضوا مبايعة يزيد بن معاوية، وأرسلوا إلى الحسين بن على يطلبون إليه أن يفد إليهم لمبايعته خليفة للمسلمين بدلا من يزيد باعتباره صاحب الحق الأول فى تولى هذه الخلافة.

وسار الحسين بن على مع آل بيته إلى الكوفة، وكان عددهم لا يتجاوز ٨٠ فردا من رجال ونساء وأطفال.

وأرسل يزيد إلى عامله فى العراق، وكان اسمه عبد الله بن زياد يطلب إليه منع الحسين من الوصول إلى الكوفة.

ولم يكن من الرجل إلا أن خرج على رأس جيش من أنصاره لتنفيذ هذا الأمر.

وكانت معركة عند مدينة كربلاء قتل فيها الحسين بن على - رضى الله عنه.

وحمل عبد الله بن زياد رأس الحسين بن على، واصطحب معه نساء بيت الحسين، ومن بينهم السيدة زينب - رضى الله عنها - باعتبارهن سبابا إلى يزيد بن معاوية.

وأصيب المسلمون فى كل العالم بالهلع لما حدث واستغل عبد الله بن الزبير حالة السخط التى أصابت المسلمين لمصرع الحسين بن على، فدعا إلى خلع يزيد بن معاوية ومبايعته بالخلافة.

واستجاب أهل الحجاز ومصر والعراق لهذه الدعوة، وقاموا بمبايعة عبد الله بن الزبير بالخلافة وبادر يزيد بن معاوية بتحريك جيش لمحاربة عبد الله بن الزبير تحت قيادة مسلمة بن عقبة.

وكانت معارك طاحنة اشتهرت فى التاريخ الإسلامى باسم موقعة «الحرة» وقد استشهد فيها الألوف من المسلمين من بينهم الكثيرين من كبار المهاجرين والأنصار.

ولم يتهيب جيش يزيد حرمة مكة المكرمة فقام بمحاصرتها، وفى يوم الثالث من ربيع الأول عام ٦٤ هجرية «٦٨٤ ميلادية»، قام بقذف الكعبة المكرمة بالمنجنيق فأحرقها.

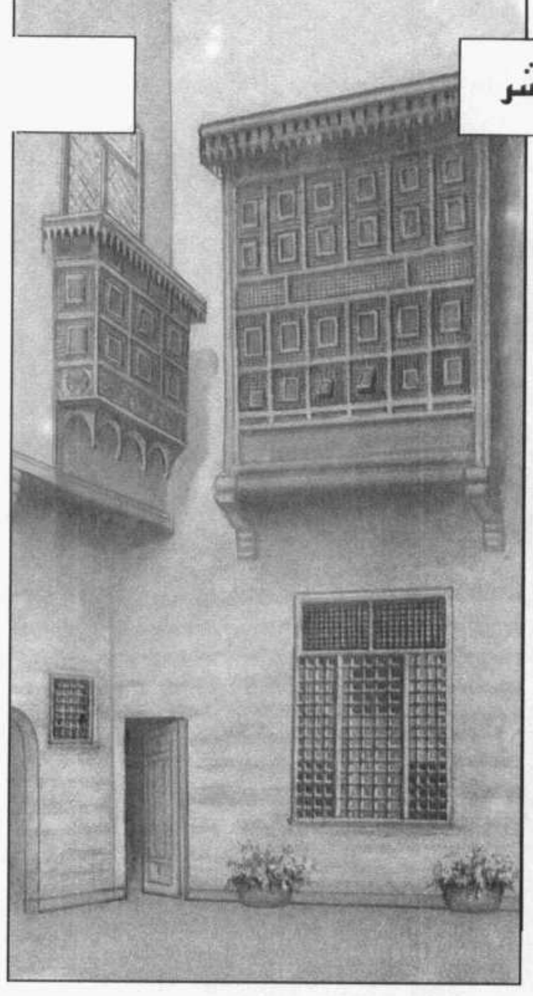
ولقى يزيد جزاءه فى نفس السنة عندما توفاه الله، ولكن بعد أن أغرق الأمة الإسلامية بالكثير من المآسى والكوارث والدماء.

ولا أظن أن أحداً من المسلمين قال كلمة طيبة فى أى حديث عن يزيد لما عرف عنه من أنه كان سكيراً وعربيداً وقليل الدين.

كما أنه لم يكن يصلى أو يؤم المصلين باعتباره الخليفة.

ومما يروونه أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنزل مرة عقوبة قاسية على أحد جلسائه لمجرد تسميته يزيد بن معاوية بأنه كان أميرا للمؤمنين!. ■





الفصـــل الثـالث عشر

اتهام عمـرو بن العـاص بحـرق مكتبة الإسكندرية القـديمة باطل..!

13

- ❏ روايات غـريبـة يرددها المقـريزى ومجـمـوعـة من المؤرخين العـرب بـعـد خـمـسـة قـرون ولا أحـد يكذبهـا..!
- ❏ الفـريد بتلر المؤرخ الأجنبى يقـول فى شـهـادة للتـاريخ لم تـكن فى الإسـكندريـة عند الـفـتح الإسـلامـى مكتـبـة.!
- ❏ كـانت الكتب أيام زمـان تكتب على الجلد.. وبالـتـالى لـم تكن تصلح لاستـخدامهـا كوقود لـتدفـئـة مياه الحـمـامـات..



بريشة الفنان عبد الحليم البرجينى

من الغريب .. أن بعض المؤرخين العرب قد اتهموا قوات المسلمين التى قامت بفتح مصر بإحراق مكتبة الإسكندرية القديمة، وهذا غير صحيح وكذب وادعاء باطل لأن من الحقائق التاريخية الثابتة أن هذه المكتبة أحرقت قبل سنوات طويلة من الفتح الإسلامى لمصر..!

واعترف المؤرخ الأوروبى الدكتور الفريد بتلر بالرغم من تعصبه وتحامله فى الكثير من آرائه ومواقفه على عمرو بن العاص وقوات المسلمين بكذب هذه الفرية وبطلانها، فقد قال فيها بالحرف الواحد:

- لم يرد فى أى من مصادر التاريخ الإسلامى أو البيزنطى أو القبطى التى سجلت فى القرون التى أعقبت الفتح الإسلامى لمصر ما يشير إلى أنه كانت توجد مكتبة فى مدينة الإسكندرية حتى تقوم قوات المسلمين بإحراقها..

وكانت روايات كثيرة قد ترددت حول هذا الاتهام السخيف فى القرن الثالث عشر الميلادى، أى بعد أن تم الفتح الإسلامى للإسكندرية بحوالى ٧٠٠ سنة.

وقالت بعض هذه الروايات إن عمرو بن العاص قام بتخريب مكتبة الإسكندرية وإحراق ذخائرها العظيمة من الكتب والمؤلفات بناء على تعليمات صريحة قالت تلك الروايات أنه تلقاها من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكانت هذه الروايات الغريبة قد جاءت لأول مرة على لسان المؤرخ العربى ابن العبرى الذى اشتهر باسم «أبى الفرج» الذى قال إن رجلا من أهل الإسكندرية وكان من القساوسة الأقباط الذين لقوا حظوة كبيرة عند عمرو بن العاص الذى لم يكن يعرف أن الرجل كان مطرودا من الكنيسة القبطية، وأنه قد جرت محاكمته أمام مجمع القساوسة فى اجتماع عقد فى حصن بابليون قبل استسلامه للقوات الإسلامية، وأن الرجل كان متهما بارتكاب بعض الجرائم المخلة بعمله كرجل دين.

وتقول الرواية إن رجل الدين السابق قال لعمرو بن العاص بعد أن توثقت العلاقة بينهما.. إنه قام بزيارة مدينة الإسكندرية كلها وشاهد الكثير من النفائس والتحف التى توجد بها، وكل ما يطلبه منه هو شيء لا نفع له عنده، ولكنه نافع له..!

وسأل عمرو بن العاص الرجل:

- ماذا تعنى بالضبط ؟

قال الرجل : الذى أريده هو ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة .

ورد عمرو بن العاص قائلا :

- إن هذا أمر ليس لى أن أقطع فيه برأى دون إذن من أمير المؤمنين فى المدينة المنورة .

وقال أبو الفرج دون أن يذكر اسم مصدره . . إن عمرو بن العاص بعث برسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يسأله رأيه فى الأمر . .

وجاء الرد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكان يقول فيه بالحرف الواحد :

- أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا بها ، وإذا كان يخالفه فلا إرب لنا فيه وعليك أن تحرقها . . !

واستطرد صاحب الرواية الغريبة يقول :

- لم ينتظر عمرو بن العاص عندما جاءه هذا الرد وبادر بإصدار أوامره بتوزيع الكتب على حمامات مدينة الإسكندرية لاستخدامها كوقود ، وقد ظلوا يوقدون بها النار لتسخين مياه الحمامات لمدة ستة أشهر كاملة . . أى لمدة ١٨٠ يوما .

• • •

ظلت هذه الرواية الغريبة يتداولها الناس نقلا عن أبى الفرج دون أن يذكر أحد مصدرا لها .

وقيل إن مؤرخا آخر وهو عبد اللطيف البغدادى قد ردد كلاما شبيها فى حوالى سنة ١٢٠٠ ميلادية دون أن يذكر هو الآخر مصدراً لاتهامه .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى نقل مؤرخ ثالث نفس الرواية نقلا عن أبى الفرج .

وجاء بعد ذلك المقريزى ليتداول نفس الرواية على أنها حقيقية لا تحتاج إلى تحقيق حول مصدرها !

ومن الغريب أن الدكتور الفريد بتلر وهو مؤرخ أوروبى ، وليس عربيا كان أول من تصدى لتكذيب هذه الرواية فى كتابه : فتح العرب لمصر ، فقد قال فى هذا الكتاب بالحرف الواحد :

- إن القصة على الرغم من أن مصدرها عربى، إلا أنها غير قابلة للتصديق، وقد تلاحظ أن أحدا من الكتاب من مختلف الجنسيات لم يذكرها كما أنها لم ترد فى كتابات المؤرخ القبطى حنا النقيوسى الذى ولد بعد الفتح الإسلامى بنصف قرن:

وقال الدكتور الفريد بتلر إن فى رأيه أن خلطا قد وقع بين الرد الذى قيل أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد بعث به إلى عمرو بن العاص، وبين رسالة أخرى كان أمير المؤمنين قد بعث بها إلى عامله فى بلاد فارس حول كتب الفرس الوثنيين ومن بينها كتاب : تاريخ الملوك.

وقال: إن هناك دليلاً آخر على عدم صدق الرواية وهو، أن عمرو بن العاص إذا كان قد قرر فعلا حرق كتب مكتبة الإسكندرية فإنه كان من السهل عليه أن يحرقها فى مكانها بدلا من نقلها وتوزيعها على الحمامات لاستخدامها كوقود..!

ودليل آخر على عدم صدق الاتهام.. أن جميع الكتب التى كتبت قبل القرن السابع الميلادى.. أى قبل الفتح الإسلامى لمدينة الإسكندرية كانت مكتوبة على الرق.. أى على الجلد، وبالتالى لم تكن تصلح كمادة للوقود!

• • •

وتتكلم وقائع التاريخ لتقول إن بناء مكتبة الإسكندرية يعود إلى عهد بطليموس سوبر الذى لم يتمكن من استكمال بنائها فى حياته نظرا لضخامتها، وقد قام خلفه بطليموس فلادلفوس بإتمام عملية بنائها.

وفى تصور بعض المؤرخين القدامى.. أن هذه المكتبة كانت جزءا من مجموعة أبنية ضخمة كانت تعرف جميعها باسم المتحف.

ووصف الرحالة المؤرخ الإغريقى سترابو هذا المتحف بأنه كان إلى جوار قصور الملك العظيمة التى كانت تشغل مساحة قدرت بربع مساحة المدينة وكان بناء المكتبة يتكون من بهو عظيم تحيط به أعمدة مصفوفة على جانبيه وعلى أفنية واسعة، وكانت تتصل بالأبنية التى كانت تجاورها، وكانت تضم مدرسة للطب والجراحة والتشريح ومدرسة أخرى للفلك والرياضيات ومدرسة ثالثة للفلسفة والقانون.

وبمعنى آخر.. كان هذا المتحف عبارة عن جامعة عملاقة مما جعل مدينة الاسكندرية عاصمة للعلم والمعرفة فى تلك الأيام..

وكان يمتد إلى جوار المتحف مزرعة شاسعة تضم حديقة لدراسة علم النباتات ومرصدا.

وكانت المكتبة فى أدق التقديرات تحتوى على ٤٠٠ ألف كتاب، وإن قالت إحدى الروايات إن عدد هذه الكتب كان يقدر بحوالى ٧٠٠ ألف كتاب.

• • •

ويقول الدكتور الفريد بتلر إن فى تصور بعض المؤرخين القدامى.. أن المكتبة قد خربت فى سنة ٤٨ ميلادية.. أى قبل زيارة سترابو لمدينة الأسكندرية أو الحريق الذى أطاح بها..

ويقول المؤرخ بلوتارك فى رأى آخر إن فى تصوره أن المكتبة أحرقت فى نفس هذا العام أى سنة ٤٨ ميلادية عندما حاصر يوليوس قيصر مدينة الإسكندرية مما اضطر القائد المصرى إخيلاس إلى إحراق أسطوله فى ميناء الإسكندرية حتى لا يقع فى أيدى أعدائه، وقد تطايرت شرارات الحريق من السفن إلى المكتبة لتشتعل فيها النيران وتحرقها.

وقال الدكتور الفريد بتلر فى كتابه أيضا:

– أكد المؤرخ سينيكا هذه القصة عندما قال.. إن حوالى ٤٠٠ ألف كتاب احترقت عندما اشتعلت النيران فى المكتبة.!

وذكر مؤرخ آخر هو كاسيوس إن النيران امتدت إلى ما وراء المرسى فقضت على مخازن القمح والكتب التى كانت موضوعة على أرفف فى المكتبة.

أما المؤرخ مرسلينوس فذكر المكتبة بصفة الجمع فقال إن مكاتب الإسكندرية التى لا تقدر بثمن والتى اتفق الأقدمون على أنها كانت تحتوى على ٧٠٠ ألف كتاب وبذل البطالسة جهدا كبيرا فى جمعها، ولقوا فى سبيل ذلك العناء أحرقتها النيران فى حرب الإسكندرية عندما غزاها قيصر وخربها.

وكتب المؤرخ أورسيوس يعزز ذلك بقوله:

– اتفق على إحراق أسطول الملك أثناء المعارك وكان راسيا أمام الشاطئ فامتدت النيران إلى جزء من المدينة وانتشر الحريق ليصل إلى المكتبة التى احترق فيها ٤٠٠ ألف كتاب كانت فى بناء قريب من الحريق فضاعت خزانة أدبية عظيمة مما خلفه لنا آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين.

وقال الدكتور الفريد بتلر بعد أن استعرض كل هذه الآراء والشهادات التاريخية بالحرف الواحد :

– استطيع أن أؤكد أن عملية إحراق مكتبة الإسكندرية تمت على الأرجح أثناء حصار يوليوس قيصر لمدينة الأسكندرية . . وقد قام مارك أنطونيو بعد حريق المكتبة بإهداء مكتبة برغاموس إلى مدينة الإسكندرية ، وهى مكتبة لم يعرف عما إذا كانت قد أقيمت فى المتحف فى مكان المكتبة القديمة أم أنها أقيمت داخل السرابيوم . . وبالتالى تكون هذه المكتبة هى أول لبنة فى بناء مكتبة السرابيوم الجديدة التى حلت مكان مكتبة الإسكندرية التى احترقت ، وأن كان فى تصورى أن هذه المكتبة أقيمت داخل معبد القيصرون الذى أقامته كليوبترا ، ولم يكتمل ، وقد عمل أوكتافيوس على إتمام بنائه !

وقال بتلر : تبقى جزء من مبنى المتحف الذى كان يضم مكتبة الإسكندرية الأم حتى سنة ٢١٦ ميلادية . . وفى أوائل سنوات المسيحية أنشئت فى السرابيوم بالإسكندرية مكتبة بديلة عن المكتبة التى احترقت .

وتردد أيضا أن أبنية المتحف الذى كانت تضم المكتبة قد خربت وسويت بالأرض فى سنة ٢٧٣ ميلادية انتقاما من أهل الأسكندرية على تأييدهم لثورة فيرموس .

وكانت مكتبة السرابيوم تعرف باسم المكتبة الصغرى ! .

وقال بتلر أيضا :

– أن جميع الوقائع التاريخية تؤكد أن المكتبة الأم خربت تماما فى القرن الرابع الميلادى أى بعد مرور سنوات على إنشاء المكتبة الصغرى . .

وفى أواخر القرن الرابع الميلادى قام المسيحيون بقيادة نيوفيلوس بتخريب السرابيوم . .

وللدقة يمكن القول : إن المكتبة الصغرى قد تم تخريبها نتيجة للصراع الذى كان دائرا بين المسيحيين وعبدة الأوثان ، فقد كان السرابيوم فى رأى هؤلاء المسيحيين حصنا للوثنية .

وقد قام المسيحيون بتخريب السرابيوم فى سنة ٣٩١ ميلادية أى قبل الفتح الإسلامى لمصر بأكثر من ٣٠٠ سنة !

واستطرد بتلر فى شهادته للتاريخ يقول:

- كانت المكتبة موضوعة داخل حجرات متصلة ببناء المعبد، وبالتالى إذا كان المعبد قد خرب تماما فإن من المؤكد أن الدمار والتخريب قد لحق المكتبة أيضا فى نفس التاريخ.. أى فى نهاية القرن الرابع الميلادى.

وبالتالى يمكن القول إنه لم تبق فى الإسكندرية مكتبة بعد إحراق المكتبة الأم فى فى سنة ٤٨ ميلادية، وأن المكتبة الجديدة أحرقت فى نهاية القرن الرابع الميلادى..!

إنها الحقيقة كما يقولها الدكتور الفريد بتلر بصراحة وبكل شجاعة..

وقام الرجل لتأكيد أدلته التاريخية بالإشارة إلى زيارة قام بها المؤرخ حنا مسكوس مع صديق له اسمه صفرنيوس لمصر، وكان معروفا عنهما شغفهما بحب العلم.

وقال إن زيارتهما جاءت إلى مصر قبل الفتح الإسلامى بسنوات طويلة.

والشىء المؤكد أنهما لم يتركا أية إشارة إلى وجود مكتبة الإسكندرية.. أو أية مكتبة أخرى.. وقال بتلر فى تحديد واضح لإثبات عدم صحة رواية أبى الفرج:

- لو فرضنا أن المكتبة كانت موجودة فى الإسكندرية عند الفتح الإسلامى لمصر، **فإن قوات عمرو بن العاص لم تدخل المدينة إلا بعد هدنة استمرت لمدة ١١ شهرا وفقا لاتفاقية صلح الأسكندرية، وكان من شروط هذه الاتفاقية أن للرومان الحق فى مغادرة المدينة حاملين معهم كل ما فى وسعهم من أموال ومتاع، وكان البحر خاليا أمامهم من أية أخطار تهدد انسحابهم من المدينة، وبالتالى كانت مدة هذه الهدنة كافية لأن يحملوا معهم كل ما كان فى استطاعتهم من كتب إذا صح أن المكتبة كانت موجودة، لأنه لم يكن معقولا أن يترك الرومان وراءهم ما كانت تحتويه أعظم مكتبة عرفها العالم فى تلك الأيام من كتب وذخائر!**

واستطرد بتلر يقول فى شهادته للتاريخ:

- مما يؤكد كذب الفرية أنه لم تصدر أية إشارة حول اتهام عمرو بن العاص والقوات الإسلامية بحرق مكتبة الإسكندرية أو أية مكتبة أخرى على مدى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.. أى بعد الفتح الإسلامى..!

كما أن الأسقف المصرى حنا النقيوس، وهو من مؤرخى تلك الفترة، وكان من أهل العلم قد كتب فى ديوانه الكثير من الأخبار عن أحداث تلك الأيام، وإذا صح أنه إذا كانت توجد مكتبة وأن العرب قد قاموا بإحراقها فإن مثل هذا الحدث ما كان

ممكنا أن يهمل الرجل الإشارة إليه، وخصوصا أنه لم يكن عربيا، كما أنه لم يكن مسلما..!

●●●

ويلخص الدكتور الفريد بتلر أسانيده التى تؤكد وجهة نظرة فيما يلى:

أولاً: أن قصة إحراق العرب للمكتبة لم تظهر أو تنشر إلا بعد أكثر من ٥٠٠ عام من الزمن المفترض أنها حدثت فيه..

ثانيًا: أن رواية أبى الفرج مليئة بالسخافات التى لا يمكن أن يصدقها عقل، وتتعارض مع أحداث التاريخ..

ثالثًا: أن الرجل الذى استشهد به أبو الفرج والذى كان محوراً للقصة الغريبة ثبت بالدليل القاطع أنه مات قبل الفتح الإسلامى بزمن طويل..

رابعًا: إن كتاب ومؤرخى القرن الخامس والسادس الميلاديين لم يذكروا شيئًا عن وجود مكتبة عامة لا فى الأسكندرية وحدها، ولا فى مصر كلها!.

خامسًا: أن الثابت أن المكتبة الأم قد خربت فى عام ٤٨ ميلادية.. أى قبل الفتح الإسلامى لمصر بأكثر من خمسة قرون كاملة، وأن المكتبة الثانية، وهى مكتبة معبد السرابيوم قد خربت على أيدى المسيحيين الرومان قبل الفتح الإسلامى بأكثر من ٢٥٠ سنة..

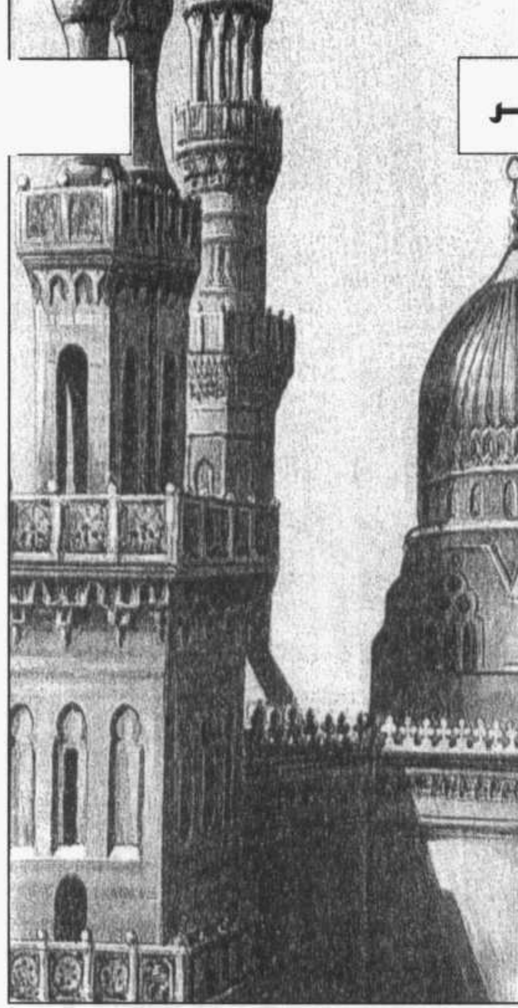
سادسًا: أن مكتبة الإسكندرية لو كانت موجودة عندما عقدت الهدنة بين العرب والرومان لما تردد الرومان لحظة واحدة فى نقلها إلى بيزنطة خلال فترة الهدنة التى نصت عليها اتفاقية صلح الإسكندرية، وكانت لمدة ١١ شهراً، وهى مدة كانت كافية لنقل كل ما فى المكتبة من كتب وذخائر!.

سابعًا: لو أن المكتبة كانت موجودة فعلاً، وقام العرب بإحراقها لما أغفل حنا النقيوس الإشارة إلى ذلك.

وهكذا قدم الدكتور الفريد بتلر أسانيده فى شهادته للتاريخ أراد أن يؤكد بها واقعة تاريخية مهمة. وهى أن عمرو بن العاص لم يحرق مكتبة الإسكندرية..

وأهم هذه الأسانيد.. أنه لم تكن فى الإسكندرية عند الفتح الإسلامى مكتبة حتى يحرقها!. ■





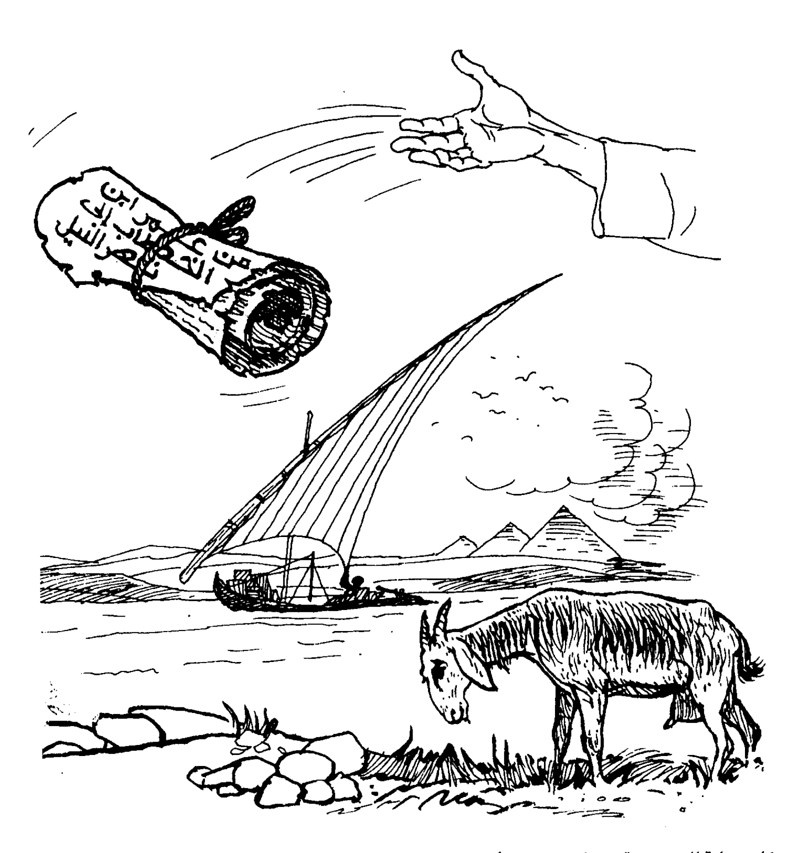


الفصل الرابع عشر

منع الاحتفالات بعروس النيل بأمر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب.. كيف..!

14

- كانت البعثات المصرية أول من اكتشفت بحيرة فكتوريا عند منابع النيل، وكان اسمها القديم بحيرة إسماعيل .!
- أين ذهبت فروع النيل السبعة التى كانت تخرج منه قبل إنشاء القناطر الخيرية؟
- ماذا تقول تقارير وأبحاث شركات البترول الأمريكية عن المياه الجوفية في المنطقة الصحراوية عند العوينات؟



كانت عادة المصريين قبل دخول الإسلام أن يلقوا بفتاة عـذراء وهي حية في موسم الفيضان في النيل كقربان للنهر العظيم، ورفض عـمرو بن العـاص أن تستـمـر هذه العادة وأرسل إلي أمـير المؤمنين يطلب مشـورتـه وكان رد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رسالة موجهة إلي النيل وطلب إلي عمرو بن العاص أن يلقي بها في النيل بدلاً من الفتاة العذراء ولما ألقيت في النيل فاض النهر العظيم بأمـر ربـه في ليلة واحدة

كتب الكاتب الكبير المرحوم محمد صبيح فى كتابه: عمرو بن العاص يقول:

– روى عن ابن يونس بن طرق بن حفص بن عاصم عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

– النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة.

وأنقل من أحاديث الرسول الكريم ﷺ أيضًا عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن كعب الأحبار أنه قال:

– أربعة أنهار من الجنة وضعها الله عز وجل فى الدنيا.. النيل نهر العسل فى الجنة، والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال أيضًا:

– «نيل مصر سيد الأنهار، وسخر الله له فى كل نهر من المشرق إلى المغرب فإذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر الله كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بما شاء، وفجر الله له فى الأرض عيونًا، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله عز وجل أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره».

ونقل عن أبى جنارة الضبى أنه قال: سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهو يقول:

– النيل فى الآخرة عسل أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل، ودجلة فى الآخرة لبن أغزر ما يكون فى الأنهار التى سمى الله عز وجل وسيحان من ماء أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل..

ومما يروونه نقلاً عن بعض مشاهير العرب أيام زمان قولهم:

– مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، فإن فى شهر أبيب (وهو شهر تموز أى شهر يوليو) ومسرى (وهو شهر آب أى أغسطس) وتوت (وهو شهر أيلول.. أى شهر سبتمبر) يركب الماء فيها فترى الدنيا بيضاء وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب، وقد أحاطت بها المياه من كل وجه.

وهى ثلاثة أشهر عسكة سوداء، فإن شهر بابه (وهو شهر تشرين الأول أى شهر

أكتوبر) وهاتور (وهو شهر تشرين الثانى.. أى شهر نوفمبر) وكيهك (وهو شهر كانون الأول وهو شهر ديسمبر) تنكشف فتصير أرضها سوداء، وفيها تقع الزراعات.

وهى ثلاثة أشهر زمردة خضراء، فإن فى شهر طوبة، وهو كانون الثانى أى شهر يناير، وأمشير وهو شهر شباط.. أى شهر فبراير، وبرمهات وهو شهر أذار أى شهر مارس تلمع ويكثر حشيشها ونباتها فتصير مصر كالزمردة الخضراء..

وهى ثلاثة أشهر سبيكة حمراء، وذلك فى وقت إدراك الزرع وهو شهر برمودة وهو شهر نيسان أى شهر أبريل وبشنس وهو شهر آيار.. أى شهر مايو وبؤونة.. وهو شهر حزيران.. أى شهر يونيو، ففى هذه الشهور تبيض الزراعات ويزهر العشب فتبدو مصر وكأنها سبيكة من الذهب.

ومما يرويه بعض المؤرخين القدامى.. أن أهل مصر جاءوا إلى عمرو بن العاص فى شهر بؤونة، وهو من الأشهر القبطية وكان ذلك بعد أن تولى إمارة مصر وقالوا له:

- **يا أيها الأمير .. إن نيلنا له عادة أو سنة لا يجرى إلا بها..**

فقال عمرو بن العاص:

- **وما هى هذه العادة أو السنة؟**

ورد عليه أهل مصر بقولهم:

- **إننا نأتى فى اليوم الثانى عشر من شهر بؤونة من كل سنة بجارية بكر من عند أبويها بعد أن نقوم بإرضائهما.. أى بشرائها منهما، ثم نضع عليها من الثياب والحلى أفضل ما يكون وبعدها نقوم بإلقائها فى النيل وهى حية فيجرى!.**

فقال لهم عمرو بن العاص:

- **هذا لن يكون فى الإسلام، وكما تعلمون إن الإسلام يهدم ما كان قبله..**

ورفض عمرو بن العاص أن يقوم أهل مصر بإلقاء جارية وهى على قيد الحياة فى النيل كعادتهم قبل أن يدخلها الإسلام!

وكانت عادة أهل مصر إقامة احتفالات كبيرة فى هذه المناسبة التى عرفت باسم الاحتفال بإلقاء العروسة فى النيل.

وقيل إن أهل مصر انتظروا طوال أشهر بؤونة وأبيب ومسرى دون أن تجرى مياه النيل لا قليلا ولا كثيرا..

وأخذ أهل مصر فى التذمر، فلما عرف عمرو بن العاص بذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة يستشيره فى الأمر..

وكان رد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه برسالة قال له فيها:

«لقد أصبت فإن الإسلام يهدم ما قبله، وقد أرسلنا إليك بطاقة لترميمها فى النيل إذا أتاك كتابى».

وجاء كتاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص فوجد برفقته بطاقة مكتوب فيها بالحرف الواحد:

من عبدالله.. عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر..

أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجرى، وإن كان الواحد القهار الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

ولم ينتظر عمرو بن العاص، وبادر بإطلاع من كان حوله من أهل مصر على بطاقة أمير المؤمنين، ثم ألقى بها فى النيل، وكان ذلك قبل يوم عيد الصليب الأعظم.. أو عيد الصلبوت، كما كان الرومان يطلقون عليه بيوم واحد.

وكان أهل مصر قد جمعوا حاجياتهم واستعدوا للرحيل والهجرة عن أراضيهم والخروج منها خشية أن يتعرضوا للجفاف إذا لم تجر مياه النيل.

وجاء الصباح.. فى يوم العيد ليجدوا مياه النيل قد ارتفعت إلى ١٦ ذراعا فى ليلة واحدة!

وانقطعت عادة إلقاء الجارية الحسناء.. أو عروس النيل كما كان أهل مصر يطلقون عليها ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ومما يروونه أيضا أن شيخا طيبا من المسلمين وكان من قبيلة يطلق عليها اسم المعافر من جنوب الجزيرة العربية، توفاه الله وكان اسم الرجل الطيب الشيخ القرافى، وقد تم دفنه فى المنطقة الصحراوية الممتدة أمام سفح جبل المقطم.

واشتهرت هذه المنطقة التى تحولت إلى مدافن للمسلمين باسم القرافة.

وما يزال هذا الاسم يطلق على هذه المنطقة حتى الآن!

إنها نفس المنطقة التى أراد الدكتور عبدالرحيم شحاتة محافظ القاهرة السابق نقل المدافن منها بعد أن عاشت فى المنطقة ١٤٠٠ سنة هجرية إلى مناطق أخرى خارج القاهرة.

***

ونعود مرة أخرى إلى نهر النيل، فقد قال بعض الحكماء أيام زمان عنه:

- لا يوجد نهر يصب فى بحر الروم، وهو الاسم الذى كان يطلق على البحر المتوسط سوى نهر النيل، كما لا يوجد فى الدنيا كلها نهر يصب من الجنوب إلى الشمال غيره ولا يوجد أيضا فى الدنيا نهر يزيد وينقص على ترتيب موسمى فيها سوى نهر النيل..

ولا يوجد أيضا فى الدنيا نهر يزيد إذا نقصت المياه فى العالم حولنا غيره أيضا..

ويمتاز نهر النيل بمزايا كثيرة غير موجودة فى غيره من الأنهار.. ومنها السمكة الرعاشة التى إذا أمسكها شخص أو وضع يده عليها أخذ جسمه يضطرب، ولا تخف حدة هذا الاضطراب حتى يرفع يده عنها.. ومنها أيضا التمساح النيلى الذى لا يوجد له مثيل فى غيره من أنهار العالم..

وقال الكندى فى وصف مصر والنيل:

- جبلها مقدس، ونيلها مبارك، وبها الطور حيث كلم الله نبيه موسى، وبها الوادى المقدس وبها ألقى موسى عصاه وبها أغلق الله البحر لموسى، وبها ولد موسى وهارون عليهما السلام ويوشع بن نون ودانيال وأرميا ولقمان وعيسى بن مريم الذى ولدته أمه بأهناس..

ولما سار عيسى وأخذ يسير على سطح جبل المقطم، وقد وضع على جسمه جبة من الصوف مربوطة بشريط فى وسطه، بينما كانت أمه تسير خلفه إلتفت إليها وقال:

- يأماه.. هذه مقبرة أمة محمد..

وجاء إلى مصر الخليل إبراهيم ويعقوب ويوسف والإثنا عشر سبطا!

***

وأقف قليلا أمام ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

- «**أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى**»

وأذكر ما كان يقوله بعض الحكماء القدامى :

- إن علمنا ، وعلم أهل مصر أن بلادهم لا يجرى فى أرضها غير نهر واحد ، هو نهر النيل ، وبالتالى ما هى الأنهار الأخرى التى تجرى تحت أرض مصر ؟ .

ومضت القرون حتى تم اكتشاف منابع النيل المتناثرة فى أكثر من دولة أفريقية، وعرفت الأنهار المتولدة فى هذه الدول، وإذا هى أنهار متباعدة فى دول مختلفة، ومنها بحر الغزال وبحر الزراف ونهر السوباط والنيل الأبيض، ونهر أباى والنيل الأزرق ونهر عطبرة . .

إن كل هذه الأنهار موجودة فى مناطق منابع النيل فى أواسط القارة الإفريقية، وفى إثيوبيا . .

وتكتمل الصورة لنجد أنهارا أخرى كانت تتفرع من نهر النيل فى منطقة الدلتا لتصب بالفائض من مياهه فى البحر .

وكانت تتفرع من النيل سبعة فروع لتتكون منها دلتا النهر العظيم، وكان أشهرها معروفا باسم النهر أو الفرع البلوزى . .

وهكذا كانت منطقة منابع النيل تمتلئ بالأنهار التى كانت تزود النهر العظيم بما كانت تحمله لأهل مصر من مياه الخير والبركة . .

وتقول أبحاث حديثة أنه قد اكتشف مجرى جديد لنهر جوفى يتحرك فى اتجاه الشمال تحت مجرى النهر الأصلى . .

أى أنه يوجد نهر آخر يتحرك بقوة اندفاع المياه الجوفية تحت مجرى النيل !

وتحاول أن تربط هذه الدراسات بحركة المياه الجوفية على امتداد حوض نهر النيل وبين المياه الجوفية التى تتجمع تحت مياه الصحراء فى المنطقة التى تمتد من غرب بحيرة ناصر حتى منطقتى العوينات والكفرة فى منطقة الحدود المصرية الليبية .

وهنا تسمع عن تقارير لشركات البترول الأمريكية التى كانت تعمل فى ليبيا عن دراسات أجريت لدراسة ما تحت الأرض فى أكبر عملية مسح للصحراء الليبية . .

أن أحد هذه التقارير ويرجع تاريخه إلى أيام الملك أدريس السنوسى . . أى قبل الثورة الليبية . . يقول إن عمق المياه الجوفية فى منطقة العوينات والكفرة لا يزيد على ثمانية أمتار من سطح الأرض وأنه يتم فى هذه المنطقة اللقاء بين المياه الجوفية لحوضى نهرى النيل والنيجر .

ويقدر أحد هذه التقارير الأمريكية المياه الجوفية المختزنة فى المنطقة بما يوازى مياه فيضان النيل لمدة ١٠٠٠ سنة!

وتقوم الجماهيرية الليبية بالسحب من مخزون هذه المياه الوفيرة فى مشروعها العملاق الذى أطلقت عليه اسم النهر العظيم.

ولا أريد أن أقول أن هذه المياه الجوفية كانت المدخل لمشروعات مصر العملاقة لتعمير الصحراء الجنوبية فى المنطقة التى عرفت باسم توشكى وعلى امتداد الصحراء حتى منطقة الحدود المصرية الليبية الجنوبية..!

***

وتقول إن النيل كانت له دائما مكانة عظمى عند قدماء المصريين وقبل الفتح الإسلامى لمصر بآلاف السنين..

وكان قدماء المصريين يطلقون على النيل اسم: حبى.. أى الفيضى، وكان تصورهم أنه ينبع من جزيره فيلة جيث يجرى شطره الشمالى فى اتجاه البحر المتوسط، والجنوبى فى اتجاه بلاد النوبة.

وكانت من أوصافه عند المصريين القدامى.. أنه رب الرزق الوفير، وأنه والد الأرباب.. أى الآلهة وخالق الكائنات وقد صوروه فى هيئة آدمى لا هو بالذكر الخالص ولا بالأنثى الخالصة - وأن له من الذكر اللحية، وله من الأنثى الثديان الممتلئان باللبن وبطن الأم الحامل..

وكان الفراعنة يضعون النيل فى مستوى أكبر آلهة الخلق والخصب من أمثال رع وبتاح وأوزوريس وآمون ولا يعرف أحد حتى الآن من أين جاء اسم النيل، ولكن هناك من يقول أنه اسم يعنى السماء الزرقاء.. وأن الجلباب الأزرق الذى اشتهر به الفلاح المصرى منذ آلاف السنين يرمز إلى لون مياه النيل الزرقاء..

وتذهب إلى منابع النيل بعد اكتشافها لتشاهد الأنهار والجداول الصغيرة ، وهى تحمل المياه وتندفع بسرعة هائلة بحيث تبدو وكأنها فى شوق عظيم يحثها إلى لقاء حميم فى مواعيد لا تختلف عند منطقة المقرن فى الخرطوم عاصمة جمهورية السودان.

وفى هذه المنطقة يتم التوحد الذى يبدو وكأنه عناق بانضمام نهر عطبرة مع النيل



عند «المقرن» في الخرطوم تلتقي مياه النيل الأبيض بمياه النيل الأزرق ليتدفق
النهر العظيم حاملاً الطمي والخير بكل الحب لشمال السودان ولمصر..!

الأبيض القادم من الجنوب لتنسى كل الأنهار الصغيرة أسماءها لتحمل اسما واحدا خالدا، هو اسم نهر النيل!

وتكفى وقفة عند شاطئ النهر الخالد فى هذه المنطقة بالذات لتجد الجواب على تساؤل الذين توقفوا أمام قوله تعالى عن الأنهار التى تجرى من تحت أرض مصر.

إن النهر يخرج من المنطقة نهرا واحدا، وأن شئت رأيت من تحتك مجرى النهر التى تتجمع عنده حصيلة أنهار شتى بقدرة الله ورحمته بأهل مصر المباركة المحروسة!

***

وتتكلم الأرقام لتقول.. إن طول نهر النيل ٧٦٤٢ كيلو مترا و٧٥٠ مترا بالضبط، وأن مساحة حوضه تقدر بحوالى ١,٧٦٩,٩٠٠ كيلو متر مربع.

وتقول دائرة المعارف البريطانية فى وصف نهر النيل:

- يقع النهر العظيم فى الشمال الشرقى من القارة الأفريقية ويعتبر أطول الأنهار فى العالم، إذ يبلغ طوله ٤١٤٥ ميلا، وترتفع هضبته عند منبعه جنوب خط الاستواء إلى ما يزيد على ٢٠٠ ميل فوق سطح البحر..

ويستمد نهر النيل الأبيض مياهه أساسا من مياه الأمطار الاستوائية الغزيرة التى تتساقط فوق الهضبة التى تمتد حول بحيرة فكتوريا التى كان اسمها بحيرة إسماعيل، ثم جاء الاستعمار ليغير اسمها لتصبح معروفة باسم الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا.

ويستمد النيل الأزرق مياهه من أمطار الرياح الموسمية الصيفية من هضبة الحبشة.

ويخترق نهر النيل المبارك طريقة نحو الشمال مارا بصحراء تعرف باسم صحراء العتمور، وهى صحراء جرداء، حاملا الخير والبركة لمصر وشعب مصر.

وتكشف بعض الدراسات الجغرافية التكوين المعقد للمنطقة الاستوائية الأفريقية حيث ينبع النيل الأبيض وخصوصا وادى الريفت وهضبة فكتوريا، ويعتبر الجانب الغربى من هذا الوادى، ويضم بحيرة تنزانيا وبحيرة البرت منطقة مغلقة لكثرة

البراكين التى تتفجر فيها بين بحيرتى كيفو وإدوارد، وهى تعزل الأحواض الممطرة لنهر النيل عن تلك المتجهة إلى جمهورية زائير (الكونجو البلجيكية سابقا) .

وتقع بحيرة إدوارد على ارتفاع ١٩٩٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ويتدفق فيضان هذه البحيرة شمالا فى وادى الريفت إلى بحيرة ألبرت على ارتفاع ٢٠٣٠ قدما فوق مستوى سطح البحر .

وبخروج نهر ألبرت من جانب هذه البحيرة، كما توجد فى هضبة بحيرة فكتوريا مساحات هائلة من الجنادل غير محدودة العدد ويتخلل هذه الجنادل عدد من الشلالات . .

وتتجمع معظم مياه الأمطار التى تتساقط فى هذه المنطقة فى الحوض الضحل المتسع لبحيرة فكتوريا من خلال روافد قصيرة تنتشر حولها فيما عدا الجانب الغربى والجنوبى حيث يفيض نهر كاميرا على امتداد مساحات واسعة ليشارك مع بحيرة تنزانيا فى تغذية متبع نهر النيل العظيم بكميات هائلة من المياه .

ويقول خبراء الرى . . أن الفيضانات التى تخرج من بحيرة فكتوريا تتعدد فى أوقات مختلفة فى اتجاه الغرب خلال وادى الريفت . .

وتهدأ الفيضانات عند منتصف الشمال الشرقى لبحيرة فكتوريا حيث أقيم سد لتوليد الكهرباء عند شلالات أوين الذى تم بناؤه فى عام ١٩٥١، وهى على ارتفاع ٣٧٣٠ قدما فوق مستوى سطح البحر .

وتنحدر مياه النيل فى بحيرة فكتوريا فى اتجاه الشمال الغربى إلى مستوى ٣٣٠٠ قدم لتغطى سلسلة من المنحدرات المتتابعة التى تتكون من مجموعة من القنوات الضحلة تعرف باسم بحيرة كايوجا .

وفجأة تتساقط مياه النهر من ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر عند منطقة اشتهرت باسم منحدرات « ميرشيسون » وعندها تقتحم مياه النيل الجانب الشرقى لبحيرة ألبرت .

وينشط فيضان نهر النيل الذى يصبح اسمه بحر الجبل عند دخوله إلى منطقة جنوب السودان .

ويفيض النهر فى هذه المنطقة مكونا حوضا متسعا تتجمع فيه مجموعة كبيرة من الروافد المائية من ناحية الغرب .

وأكبر الروافد هو بحر الغزال الذى تتوسط حوضه مستنقعات ضحلة هائلة المساحة وتنمو فيها كثافات نباتية تعترض مجرى النيل بحيث أصبح يطلق عليها اسم السد .

وينحرف بحر الزراف عن المجرى الأصلى فى هذه المنطقة فيتشعب . . ثم يعود فيتجمع مرة أخرى فاقدا كميات هائلة من مياهه بسبب البخر .

وهنا تتحد مياه النيل التى تتدفق قادمة من الجنوب فى المنطقة جنوب الملكال مع نهر السوباط القادم من هضبة أثيوبيا .

ومرة أخرى وليس بعيدا عن الملكال يستمر مجرى النيل فى حوض منتظم يعرف باسم النيل الأبيض .

ويخترق النهر فى مسيرته هضبة سنار فاقدا الكثير من مياهه بسبب البخر ولتسرب المياه خلال قنوات جوفية قبل أن يصل إلى الخرطوم التى يصل ارتفاعها إلى ١٢٤٠ قدما فوق مستوى البحر . .

وهكذا تتساقط مياه النيل القادمة من هضبة فكتوريا من ارتفاع ٤١٤٥ قدما فوق سطح البحر فى اتجاه الخرطوم التى يقدر ارتفاعها بحوالى ١٢٤٠ قدما فوق سطح البحر !

وعند منطقة المقرن فى الخرطوم تلتقى مياه النيل الأبيض، مع مياه الأمطار الموسمية التى تتساقط فوق الهضبة الإثيوبية عند بحيرة تانا بسرعة هائلة فى اتجاه الخرطوم .

ويمكن تصور قوة تدفق مياه النيل الأزرق إذا عرفنا أن ارتفاع الهضبة الإثيوبية هو ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر بالمقارنة بارتفاع منطقة الخرطوم (١٢٤٠ قدما فقط فوق سطح البحر) .

***

وتقول دائرة المعارف البريطانية . . إن كمية المياه التى يحملها النيل الأزرق تبلغ ضعف كمية المياه التى يحملها النيل الأبيض عند الخرطوم .

ويشق نهر النيل مجراه بعد لقاء النيلين فى الخرطوم مخترقا منطقة النوبة التى اشتهرت بشدة حرارتها فى شهر أغسطس، وفجأة ينحنى مجراه بشدة على شكل

حرف S اللاتينية ليلتقى من يمينه بآخر رافد وهو نهر عطبرة الذى ينبع من الجانب الشمالى من هضبة أثيوبيا.

وتبعد نقطة هذا اللقاء ١٦٧٥ ميلا، وبالضبط ٢٦٩٥ كيلو مترا من مصب النيل فى البحر المتوسط.

ويجتاز النهر فى طريقه إلى الشمال ستة شلالات أو جنادل صخرية على مسافات متباعدة حتى يصل إلى أسوان فى جنوب مصر.

وينحدر النهر فى هذه الأثناء من ١١٠٠ قدم إلى ٣٠٠ قدم، وذلك قبل إنشاء السد العالى.

وتتدفق مياه النيل فى اتجاه الشمال، ويتراوح عرض النهر فى رحلته من صعيد مصر ما بين ٤٥٠ و ٥٠٠ متر.. وتشاهد على جانبى شاطئيه الكثير من الآثار التاريخية القديمة كمعبد أبو سمبل والأقصر وطيبة والكرنك وأسيوط وممفيس ثم القاهرة المحروسة.

وعلى مسافة عدة كيلو مترات فى الشمال من القاهرة وعلى مسافة ١٦٠ ميلا.. أى حوالى ٢٥٧,٥ كيلر مترا يبدأ رأس الدلتا العظيمة المثلثة عند القناطر الخيرية وتقدر عرض قاعدتها على امتداد شاطئ البحر بين رشيد ودمياط بحوالى ١٢٠ ميلا.. أى حوالى ١٩٣ كيلو مترا.

وكان نهر النيل فى الأزمنة القديمة يتفرع فى منطقة الدلتا إلى سبعة فروع، ثم أصبح بعد تنظيم الرى فرعين اثنين فقط هما فرع رشيد وفرع دمياط.

وكان من المشاهد المثيرة للغاية قبل إنشاء السد العالى ما كنا نراه عندما يحمل النيل الأزرق كمياته الهائلة من المياه من الأمطار المتساقطة على هضبة إثيوبيا بين أشهر مايو وأكتوبر وكانت هذه المياه ترفع مستوى المياه فى النهر ما بين ٢٠ و٢٦ قدما وبعد تنظيم الرى فى مصر استبدل برى الحياض الرى المستديم ببناء القناطر وأشهرها قناطر محمد على وقناطر زفتى على فرع دمياط التى أنشئت فى المنتصف الأول من القرن التاسع عشر.

كما أقيمت مجموعة من السدود والقناطر عند أسيوط ونجع حمادى وإسنا، ثم خزان أسوان القديم فى عام ١٩٠٦.

أما السد العالى فقد انتهى من إنشائه فى عام ١٩٦٥ على مسافة عدة كيلو مترات فى الجنوب من خزان أسوان القديم.

وتم بإنشاء السد العالى تحويل مجرى النيل، وأصبح مصدرا رئيسيا لتوليد الكهرباء فى مصر.

وتنظر إلى خريطة مجرى نهر النيل الآن من منبعه وعند مصبه، ثم تحاول أن تعدد الروافد والقنوات التى تنتشر حوله ولا يسعك إلا أن تذكر مرة أخرى قوله تعالى فى الآية الكريمة:

«**أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى**» صدق الله العظيم..

* * *

ويبقى فى النهاية نفس السؤال..

لماذا لم تحتفل مصر بمرور ١٤٠٠ سنة هجرية على فتح عمرو بن العاص لمصر ودخول الإسلام إليها؟

وهل الاحتفالات الهزيلة التى أقيمت بطريقة ارتجالية فى هذه المناسبة التاريخية الهامة كانت تكفى؟

ولا أريد إلا أن أقولها مرة أخرى.. يبدو أننا كنا نائمين فى العسل كالعادة لولا هذا الصحفى اليابانى الذى ذكرنا بهذه المناسبة.

ولولا الاحتفالات التى أقيمت فى الكوفة فى العراق بنفس المناسبة بمرور ١٤ قرنا هجريا على إنشائها كأول مدينة إسلامية فى العراق بالرغم من كل الظروف المأسوية التى يعيشها شعب العراق!

الله يرحمنا جميعا! ■

وتكلمت ريشة الفنان بعد طول غياب!



الفنان البرجيني

■ ■ كعادته انفعل الفنان الكبير محمد عبد الحليم البرجينى على أثر قراءته بروفات كتاب دخول الإسلام مصر..

وأراد الفنان الكبير أن يعبر عن رأيه فى الكتاب بأسلوبه الفريد الذى يتسم دائمًا بروح الفنان الأصيل وكان أن أهدى إلى الكتاب إضافة جديدة هى عبارة عن مجموعة من اللوحات التى رسمها بريشته وتراها منشورة على صفحات الكتاب.

إنها روح فنان أصيلة فقد كانت ثانى مرة يفعلها، فقد سبق له أن أهدى الطبعة الثانية من كتاب المؤلف: أنا وبارونات الصحافة.. مجموعة لوحات عبرت تعبيرًا صادقًا عن الكثير مما جاء فى الكتاب..

والفنان محمد عبد الحليم البرجينى زميل قديم، فقد بدأ حياته الصحفية فى مؤسسة «أخبار اليوم» وكما يقول.. إنه يفخر بأن المرحوم على أمين قد اكتشفه، وهو طالب فألحقه فى وظيفة كاتب ورسام فى «أخبار اليوم»..

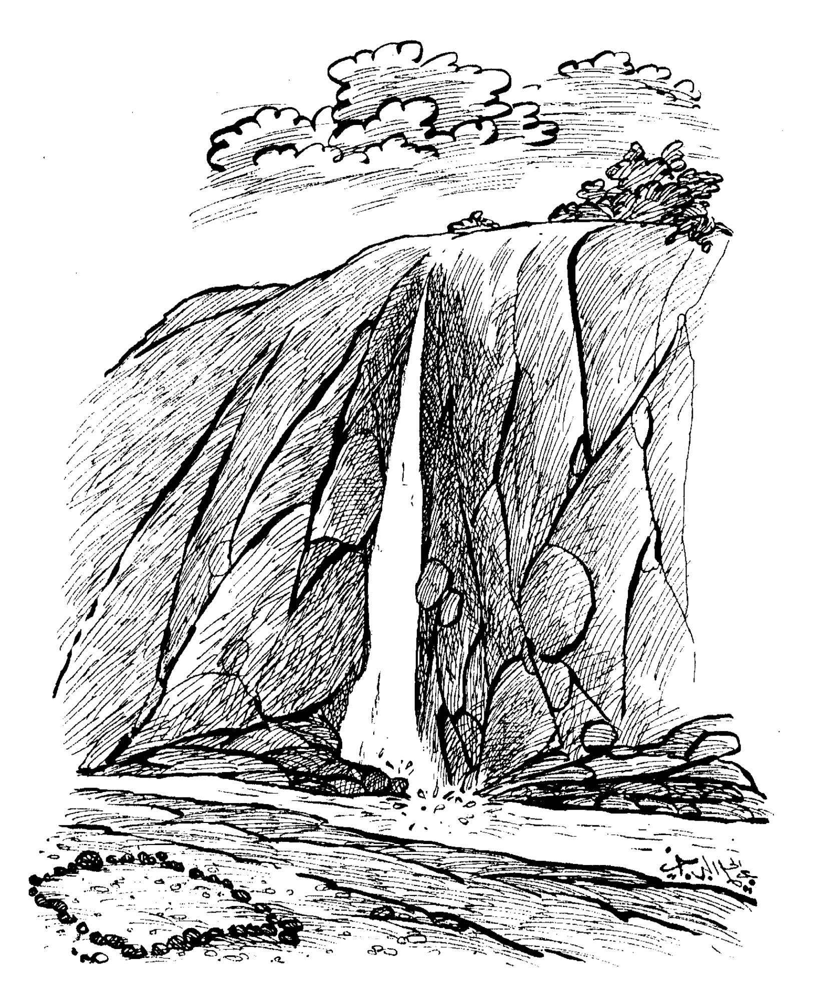
وتبناه المرحوم على أمين حتى تخرج فى كلية الفنون الجميلة ليباشر مشوار حياته كفنان له رسالته ومهمته فى الحياة..

ويفخر البرجينى أنه اشترك فى مسابقة بكلية الفنون الجميلة وكان منافسه هو أستاذه وكانت النتيجة أنه فاز بالجائزة الأولى بينما لم يحصل أستاذه إلا على الجائزة الثانية.

وعمل البرجينى فى «أخبار اليوم» ثم انتقل إلى دار الجمهورية التى يعتبر واحدًا من مؤسسيها..

وغاب الرجل الفنان عن مصر أكثر من ٢٥ سنة حيث كان يعمل فى دولة الإمارات العربية، وكان انفعاله الشديد على أثر عودته إلى القاهرة بما شاهده وما لمسه بنفسه عن الحالة المأسوية التى أصبحت صحافتنا تعيشها اليوم..

إن البرجينى فنان كبير، ولا يسع المؤلف إلا أن يقول للرجل الفنان شكرًا، وألف شكر..



وكان عمرو بن العاص عاشقًا لمصر ومحبًا لها .. ومات فيها بعد ولايته الثانية ودفن عند سفح جبل المقطم في منطقة تطل علي طريق سفر الحجاج .. وكان عليه اسم طريق الحجيج.

تعقيب

تحية رجل حوار إلى رجل إعلام

بقلم: أ. د. على السمان



حينما اقترح عليَّ الكاتب الصحفى الصديق جميل عارف أن أكتب تعقيبًا على كتابه عن الفتح الإسلامى لمصر ترددت لأنى أؤمن بالتخصص وبمبدأ « رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه »، فأنا لست مؤرخًا ولا عالم دين ولكن فى الوقت نفسه إذا قسمت حياتى على مدى الأربعين عامًا الماضية فسأجد أن ثلثيها للإعلام والثلث الآخر لقضية تستحوذ على عقلى وفكرى ومشاعرى وهى قضية حوار الأديان. وكنت أحلم دائمًا أن أرى المراحل المزدهرة فى تاريخنا الإسلامى يعالجها إعلامى يعرف كيف يجذب القارئ فى عصر تكاد تنقرض فيه حضارة الكتابة والقراءة لصالح العلاقة بين المشاهد والشاشة وهنا أعترف أن أسلوب الأستاذ جميل عارف قد جذبنى وأنا أتوقف عند نقاط تستحق الإبراز لأن لها معانٍ عميقة عن الخلفية التاريخية لما ربط المسلمين والأقباط فى مصر.



أبرز الكاتب بإسهاب موقف أقباط مصر من الفتح الإسلامى وكأنهم اختاروا الفاتحين المسلمين لأنهم سيحررونهم من ظلم الرومان، كما أن الأقباط والمسلمين تربطهم عبادة الله الواحد بالشكل الذى حدده الرسول عليه الصلاة والسلام فى الرسالة التاريخية التى وجهها إلى المقوقس عظيم أقباط مصر.



إن الرفض الدائم لأقباط مصر لسيطرة الفرنجة على أرضهم ورفضهم أن يفرضوا عليهم عقيدتهم وينكلوا بكل من يقاومهم كان هو نفس منطق الاستمرارية التاريخية حينما رفض أقباط مصر أن يؤازروا الفرنجة أثناء الحروب الصليبية، والشرح المنطقى لهذا الموقف هو ارتباط أقباط مصر بالأرض والوطن واستقلاله.

وحينما ننظر إلى هذا الكتاب الشيق ككل نجد أنفسنا فى حالة انسجام كامل مع كلمة رئيس الدولة - رئيس كل المصريين- حينما استقبل بابا الفاتيكان فى ٢٤ فبراير عام ٢٠٠٠ وأعلن فى مطار القاهرة أمام العالم أجمع «أن جذور مصر هى مسلمة ومسيحية» وأخذ لحساب مصر هذه الحقبة التاريخية منذ مولد السيد المسيح ووصول عقيدته إلى مصر حتى الفتح الإسلامى مع عطاء مفكرى أقباط مصر منذ فجر التاريخ لا سيما مع سان مارك.

ومرة أخرى لست مؤرخًا ولست عالم دين ولكنى أردت أن أسجل تحية «رجل حوار» إلى رجل إعلام قام بجهد كبير يستحق التقدير لإلقاء النور والاستنارة على حقبة مشرقة من تاريخنا.



د./ على السمان

نائب رئيس اللجنة الدائمة للأزهر الشريف

لحوار الأديان السماوية

المحتويات

المؤلف

* عمل جميل عارف كاتب هذا الكتاب بالصحافة منذ عام ١٩٤٥ على أثر تخرجه فى جامعة القاهرة، وقد عمل عدة سنوات بالصحف اليومية، كما عمل بمجلة المصور (دار الهلال) وبعدها انتقل ليعمل فى مجلة آخر ساعة لمدة ٢٣ سنة، وقد عمل نائبًا لرئيس تحرير المجلة لمدة ١٩ سنة قبل أن يعمل مديرًا لتحرير مجلة أكتوبر ثم كاتبًا متفرغًا فى روزاليوسف وصباح الخير.

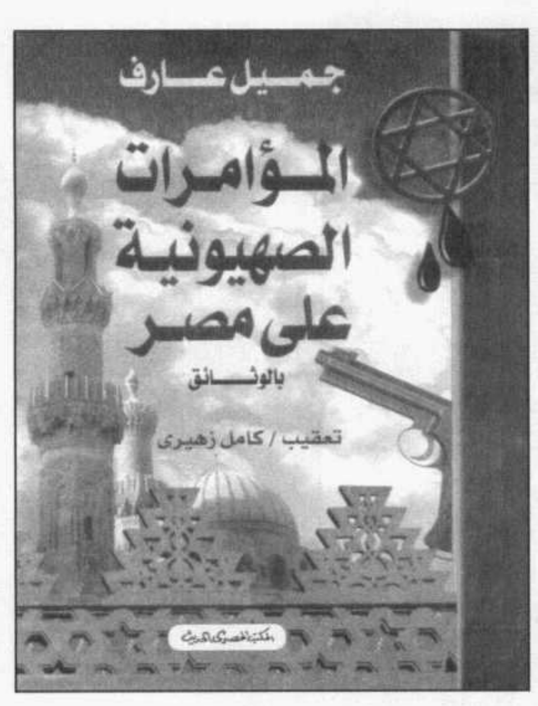
* وقد عاصر أحداث الجامعة العربية منذ إنشائها، وقد عمل لمدة ١٥ سنة محررًا للشئون العربية، وكان موضع ثقة المرحوم عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة.

* وعمل مراسلاً حربيًا أثناء حرب فلسطين فى ١٩٤٨، وأثناء العدوان الثلاثى على بورسعيد فى ١٩٥٦، كما عاصر غالبية حركات التحرير العربية، وكان أول صحفى يزور اليمن فى ١٩٤٧ فى أيام الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن.

* وعاش أحداث ثورة لبنان فى ١٩٥٨ والانقلابات العسكرية فى سوريا، وثورات العراق والسودان كما قام برحلات مثيرة بمساعدة قوات جيش التحرير الجزائرى داخل الأراضى الجزائرية على إثر اندلاع الثورة فى بلد المليون شهيد..

* قام بجولات صحفية فى ١٠٩ دول مختلفة حتى الآن فى مختلف أنحاء العالم على مدى ٥٠ سنة وللدقة ١٠٨ دول بعد وحدة اليمن مع عدن والجنوب اليمنى، وقد واشتهر بتحقيقاته الصحفية التى كتبها عن الدول الإفريقية بعد أن حصلت على استقلالها..

* وكان ترتيبه فى عام ١٩٧٠ رقم ٥٢ فى أقدمية الصحفيين وأصبح ترتيبه الآن الخامس من الأحياء بجدول نقابة الصحفيين المصرية، ويعتبرونه واحدًا من الرعيل الأول من الصحفيين فى مصر..



كتاب المؤامرات الصهيونية علي مصر

كتب للمؤلف

* للنساء فقط ١٩٤٦
* مذكرات عبد الرحمن عزام أول أمين للجامعة العربية الجزء الأول.. (المكتب المصرى الحديث) ١٩٧٧
* .. وكانت ملكة.. ناريمان (المكتب المصرى الحديث) ١٩٧٨
* شاهد على مولد الجامعة العربية ١٩٩٥
* أنا وبارونات الصحافة
الطبعة الأولى ١٩٨٤
الطبعة الثانية ٢٠٠٠
* مؤامرات الصهيونية على مصر بالوثائق..! (المكتب المصرى الحديث) ٢٠٠٠

..وكتب تحت الطبع

* ممنوع النشر بأمر الرقيب..
* حكايات دبلوماسية بعيون صحفية..
* أنا وبارونات الصحافة الجزء الثانى

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢١٨٧٥

الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 – 209 – 132 - 1